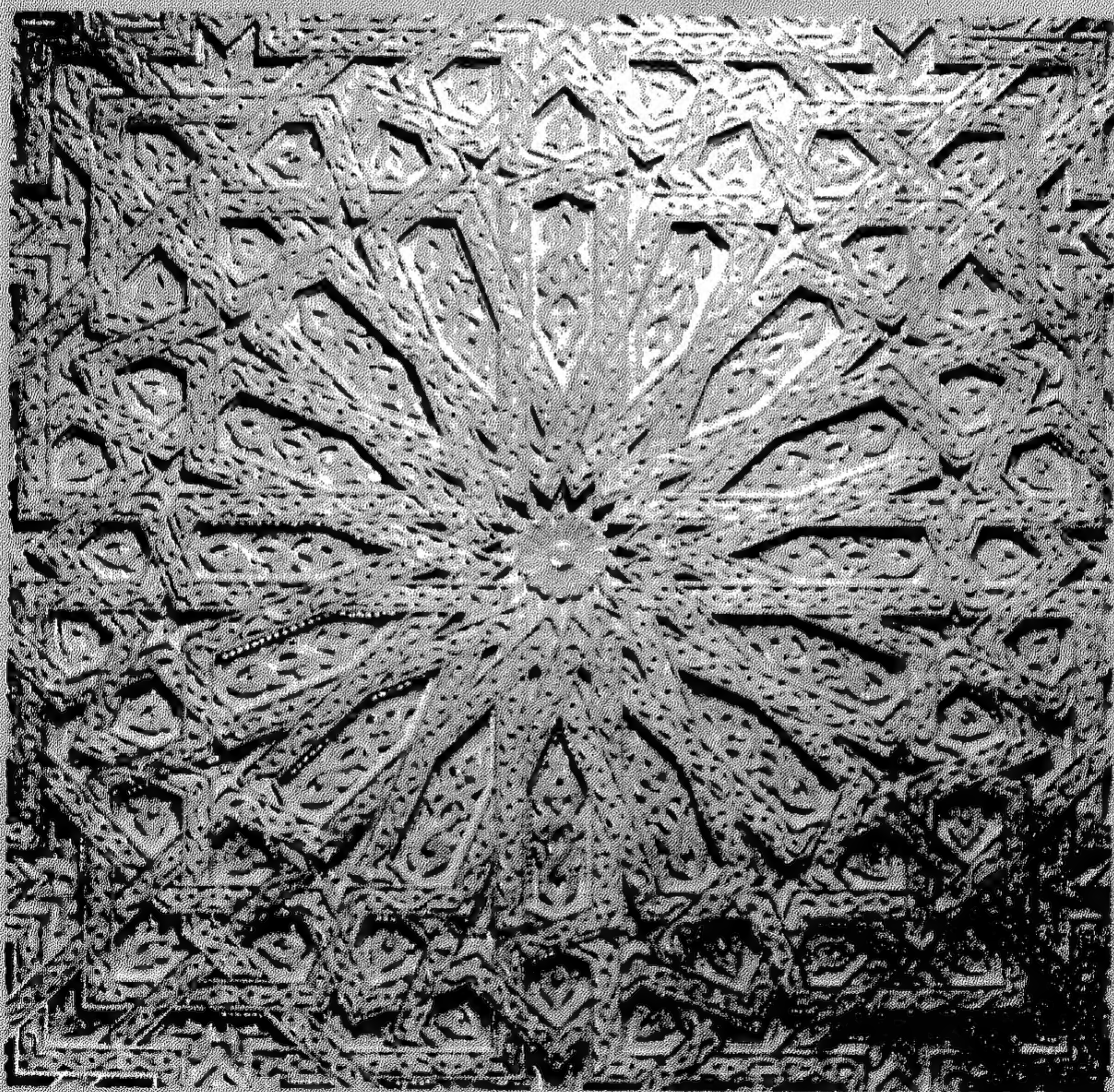


سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ



عبد الحميد جوده السخار





سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ

وأبطال القادسية

عبد الحميد جوده البخار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البحالة

الفصل الأول

عهد جديد

﴿ وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم
فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفا ﴾
(قرآن كريم)

انحدرت الشمس ومست الأفق ، فاصطبغ بلون الأرجوان ، وبدأت كذبيحة تخبط في دماؤها . وجلس سعد بن أبي وقاص ، وهو فتى في السابعة عشرة من عمره ، قصير دحداح ، ذو هامة ، خشن الأصابع يرى النبل في هدوء . وكان السكون يسيطر على المكان ، إلى أن عاد الناس من أرباض مكة بسرهم ، فمزق رغاء الإبل غلالة السكون . وأقبل الشباب من قنصهم ، راكبين كرائم جيادهم متوشحين أقواسهم ، فارتفع صهال الخيل وقهقهة الشباب للملحة ألقاها أحدهم ، فدبت الحياة في المكان ، وراح كل يلتفت إلى الظباء التي صرعاها مزهوا ، وقال أحدهم :

— مساء الخير .

— إلى أين ؟ ألا تأتي معنا إلى الكعبة تطوف قبل العودة إلى الدار ؟
— سأتجه أولا إلى سعد لأبري نبلي ، ولأستعد للقنص غدا .
ولوى الشاب أعنة جواده ، واتجه إلى سعد ، فلما بلغه ترجل عن جواده

وحيا سعدة ، وجلس يرقبه وهو يعمل بمهارة ، ثم قال له :

— أتجيد يا سعد الرماية إجادتك للبرى ؟

فرفع سعد رأسه ، والتمعت في عينيه ابتسامة عارضة ما لبثت أن اختفت ،
وتطلع إلى السماء ، فلمح زفة قطا ، فتناول سهمها ووضع في قوسه ، وقال :

— أيها تريد فأصرعها لك ؟

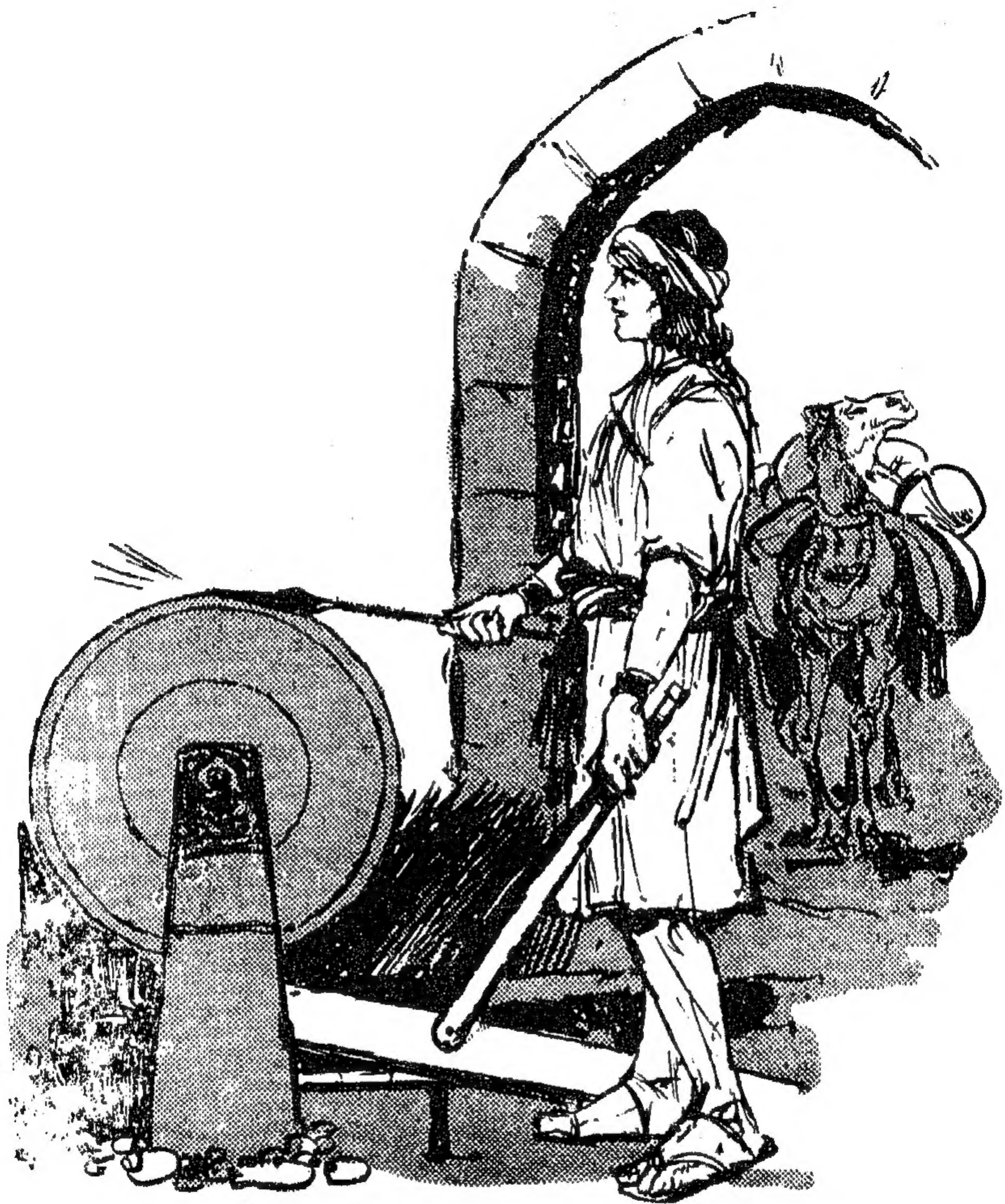
فأشار إلى واحدة منها ، فسدد سعد سهمه وأطلقه ، فأرداها .

— مرحى سعد مرحى ، ما حسبتك قط ماهرا في الرماية إلى هذا الحد .

* * *

وابتدأ الليل في مد ردائه الأسود على الكون ، فانصرف سعد إلى دياره
 ووضع العشاء ، فجلس وأمه يتناولانه ، فكانت أمه تحنو عليه ، وترنو إليه بعين
الحب . وكان بارا بها ، يستمع إلى حديثها ونصائحها ، وكانت تعلو شفتيه
بين الفينة والفينة ابتسامة حلوة تنطق بما يكنه لها من حب وعطف ، وبر
وطاعة .

ورفع العشاء ، وأوى سعد إلى فراشه ، وأغمض عينيه ، فراح في سبات
عميق ، فرأى نفسه في ظلام دامس ، لا يبين شيئا ، ولا يرى شيئا ، فجعل
يحاول الخروج من هذا الظلام اللجى ، وراح يتحسس بيده لعله يجد منفذا
للاتفلات منه ، ولكنه لم يجد مخرجا ، وأخذ يخترق الظلام المتراكم بعضه فوق
بعض ، فكان يخرج من ظلام ليدخل في ظلام ، واستمر يخط على غير هدى ،
حتى نال منه التعب والكلال ، وانهرت أنفاسه ، وجعل صدره يعلو
وينخفض ، وأحس ساقيه لا تقويان على حمله ، فجلس غارقا في بحر الظلمات
منزعجا مضطربا ، يحس ضيقا يكاد يقضى عليه . وبينما هو في ضيقه وتبرمه ،
إذ أطل القمر على المكان فبدد بنوره دياجير الظلام ، فأحس سعد الحياة تدب



أُتْجِيدُ يَا سَعْدُ الرَّمَايَةَ إِجَادَتَكَ لِلْبَرَى ؟

في نفسه ، والسرور يهزه ، فتفرس في القمر فرحان جذلان ، فرأى شيئا عجبا .
رأى أبا بكر ، وعلى بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة يطلون من القمر ،
ويشيرون إليه ليلحق بهم ، فقال لهم :

— متى انتهيتم إلى ها هنا ؟

فقالوا له : الساعة .

وهب سعد من نومه مذعورا ، واعتدل في فراشه ، وجعل يستعيد منامه
ويحاول تأويله ، فلا يجد له من تأويل . ورقد ليستأنف نومه ، ولكن النوم
جافاه وخاصم عيونه . وراح فكره يعمل ، فألقى نفسه يفكر في رؤياه
برغمه ، وطفق يتقلب في فراشه كتقلبه على الجمر ، وأغمض عينيه لعل النوم
يمس بأنامله الرقيقة جفنيه ، ولكنه صد ونأى ، وفر معرضا عنه .

وارتفع صياح الديكة معلنة قدوم طلائع النهار ، فارتاح سعد لسماعها
ارتياحه لسماع بشرى سعيدة ، فقد أعلنته بانقضاء الليل ، وإدبار أحلامه التي
أقضت مضجعه ، وقرب قدوم النهار الذي ينكب كل فيه على عمله فينسى
نفسه . وما كاد صياح الديكة ينقطع حتى عاد يفكر فيما رأى في منامه ، فتمتم :
— أضغاث أحلام ، فلم أعيرها كل هذا الاهتمام ؟

وتسللت أشعة الشمس إلى حجرته ، ففر الظلام من وجهها ، وتركها
توطد سلطانها على المكان . رأى سعد نور الصباح فترك الدار واتجه إلى عمله ،
واستأنف يرى النبل لشباب مكة المولع بالقنص والصيد .

جلس سعد يرى النبل في هدوء ، وارتفعت الشمس ، ودبت الحياة في
مكة ، وأقبل أبو بكر بن أبي قحافة ، فسلم وجلس ، واستأنف سعد عمله ،
وساد الصمت بينهما إلى أن قطع أبو بكر حبل السكوت ، قال :

— جئتك يا سعد في أمر ذي بال .

فتوقف سعد عن البرى ، ورفع رأسه ، والتفت إلى أبى بكر وقال :
— خيرا !

— خيرا إن شاء الله . أنت يا سعد أعلم الناس بمحمد بن عبد الله ، ومقدار
صدقه وأمانته ، فأنت خاله ، وهو منكم .

— إن محمداً غير متهم ، فهو يؤدى الأمانة ، ويصل الرحم ، ويقرى
الضيف ، ويعين على نوائب الدهر .

— قد نزل على محمد وحى من السماء ، أخبره أنه نبي هذه الأمة ، وأمره أن
يدعو إلى عبادة الله وحده رافع السموات ، وباسط الأرضين .

— أيكفر باللات والعزى وهبل ؟

— أجل ، إنه يدعو إلى التحرر المطلق من عبادة هذه الأصنام التى لا تملك
لنفسها شيئا ، ولا تدفع عن نفسها ضرا .

فأطرق سعد ، وقال أبو بكر :

— إنه يا سعد لا يبغي من وراء ذلك جاها ولا مالا ، وإلا فإن له من أموال
خديجة الطائلة ما يغنيه عن ذلك قرونا ، وله من نسبه فى قريش مكان الذروة
والسنام . على أن دعوته هى إلى التحرر المطلق من عبودية هذه الأحجار
الصماء إلى عبادة خالق هذه السماء الصافية ، والصحراء المترامية ، والنجوم
اللامعة ، والشمس الساطعة ، والماء والرياض ، والهواء والغياض ، وإن هذه
الدعوة التى لا تفرق بين السادة والعبيد أمام الله إلا بقدر العقيدة والعمل ،
والتي تخلص الطريق بين العبد وربّه ، يدخل إليه بغير واسطة ، ويتقرب إليه بغير
زلفى ، وتدعو إلى التراحم والتواد ، والبر والتقوى ، وتنفر من الواد والقطيعة
والتراشق ، فهى هناءة الدنيا وسعادة الأبد .

استمع سعد إلى أبى بكر فمس كلامه شغاف قلبه ، وتفتحت له نفسه ،

وأراد الله له الرشيد والهداية ، فسأل أبا بكر :

— ومن تبعه على دينه هذا ؟

— أنا وعلى بن أبي طالب وزيد بن حارثة .

فأطرق سعد ، وتذكر رؤياه التي أقضت مضجعه فغمغم : « لقد كانت

رؤيا صادقة » ، ثم رفع رأسه والتفت إلى أبي بكر وقال :

— وأين رسول الله الآن ؟

— في شعب إحياد يعبد الله مستخفيا .

— هيا إليه !

وانطلقا ، وأغذا في السير حتى بلغا شعب إحياد ، فألفيا رسول الله ﷺ

قائما يصلي ، فجعل سعد يرمقه متعجبا ، ويتبعه بنظره . ولما أتم الرسول

صلاته ، اتجه أبو بكر وسعد إليه ، وسلما عليه ، وعرض النبي على سعد

الإسلام ، وقرأ القرآن ، فأخذ سعد بعدوبته ، وفتن برقته ، وانتشى بحلاوته ،

وكان لجرسه وقع عظيم في نفسه ، فقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

وانقلب سعد إلى أهله مسرورا .

اغتسل سعد ، وقام يصلي صلاة العشاء ، وكبر وابتدأ في الصلاة . ولما

سجد دخلت عليه أمه ، فألفته يهيم بصوت خاشع خفيض . فراحت ترقبه

فألفته لم يعبر مقدمها انتباها ، ولم يقبل عليها كعادته ، بل ظل في هممته وقيامه

وقعوده وسجوده ، فأحدثت جلبه لتنبهه إلى مقدمها ، ولكن سعدا ظل في

هممته ولم يلتفت إليها ، ولم يأبه بها ، فهتفت :

— سعد !

فلم تسمع لهتافها جوابا ، فصاحت غضبى :

— سعد ، ما تفعل ؟

فلم يبلغ آذانها إلا رنين صوتها ، فازداد غضبها ، واتجهت إليه فوجدته يلتفت يمينا ، ثم يلتفت شمالا ، ثم ينهض ويقبل عليها منشرحا ، ويفتر ثغره عن ابتسامة حلوة ، فيها غبطة واطمئنان وهدوء ، ويرنو إليها بعين الحب والعطف ويقول :

— ماذا يا أماء ؟

— ما كنت تفعل الآن ؟ ولمن تسجد ؟

— كنت أصلى وأسجد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، خالق كل شيء وفاطر السماء والأرض .

— أتصلى لإله غير آلهتنا وآلهة آبائنا ؟

— ما آلهتكم إلا أحجار صماء .

— أتسفه أحلامنا وأحلام آبائنا يا سعد ؟ عد إلى رشدك ، ودع هذا الدين الذى أحدثت .

— لا يا أمت ، فإنى لا أدع دينى ، فإنه دين الحق وإنى أدعوك إليه .

— ثب إلى رشدك يا سعد ، ولا تغضبني عليك ، ولا تصبأ فتكونن من الخاسرين .

— إنى لأرجو أن تستمعى إلى عسى أن يهديك الله إلى الصراط المستقيم .

— لا لن أستمع إليك . لتدعن دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت

فتعير بى .

— لا تفعلى يا أمت فإنى لا أدع دينى .

— يا سعد رفقا بى فما عهدتك إلا بارا رحيفا .

— تعلمين مبلغ حبي لك وإعزازي إياك ، وإني ما رددت لك طلباً قط ، ولكنك تطلبين محالاً ، تطلبين ممن هدى إلى الصراط المستقيم أن يتنكب الطريق القويم ، تطلبين. ممن عرف الحق أن يعود ليخبط في الضلال ، وإني يا أمت كالأعمى الذي رد إليه بصره ، فكيف تطلبين منه أن يعود أعمى كما كان أو أضل سبيلاً ؟ لا لن أدع ديني أبداً .

— ولن أذوق للطعام طعماً بعد اليوم .

وتركته أمه وخرجت غاضبة ، وبقي سعد يفكر في الدين الجديد ، ويستعيد ما سمعه من رسول الله ﷺ ، فيحس الطمأنينة تشيع في نفسه . واتجه أخيراً إلى مضجعه ونام ليلته الأولى راضياً مرضياً ، في كنف الله ورسوله .

تصرم اليوم الأول ، وبقيت أم سعد على وعدها لا تأكل ولا تشرب ، فبلغ منها الجهد ، وأحست جوعاً هالكا ، وعطشاً قاتلاً ، ودب الضعف في أوصالها ، وشعرت بدوار وخور ، وبأثاث الدار يتراقص أمام عينيها ، فاستلقت على فراشها يكاد يغمى عليها من شدة الوهن ، ودخل سعد ليدعوها للعشاء ، فزفرت زفرة ، وأهت أهة ، وأجهشت بالبكاء لعلها تبلغ بدموعها ما لم تبلغ بتوسلاتها ووعيدها وتهديدها ، ولكن سعدا طأطأ بصره وقال :

— ألا تقومين للعشاء ؟

— لا . سأبقى هكذا حتى أموت .

— اللهم اهدها سواء السبيل .

وخرج وتوضأ ، ووقف يصلي صلاة العشاء ، فراح يقرأ القرآن بصوت صك أذن أمه ، فتيقنت أنه جاد لا هازل ، وأنه لن يتخلى عن دينه ولو فاضت روحها ، فازدادت حزناً على حزن ، وجعلت تدعو سلطان الكرى ليريحها من آلام الجوع والعطش ، وآلام النفس الحزينة ، ولكن سلطان الكرى صد

وهجر ، فما كان ليطوف بالجائعين ، أو يصل المحزونين المتوجعين . ومر الزمن بطيئا على أم سعد ، وأحست كأن ليلتها ليس لها نهاية ، وظلت قلقة أرقه ، منزعة مضطربة ، تتذكر أيام كان سعد يطيعها ويحنو عليها فتزداد غما وهما ، وتتخيل شبح الموت فتزلزل الأرض تحت جنبها ، ويصيبها دوار على دوار . وانقضت الليلة بآلامها ، وكاد البوار يصيبها ، وتلاشت مقاومتها ، وعزمت على أن تجيب ابنها إذا دعاها إلى الطعام ، ولكن ما إن دخل ليدعوها إليه حتى أخذتها العزة بالاثم ، فرفضت وتماوتت لعل قلب سعد يلين ، ولعل سعدا البار بأهله يرق لرؤيتها تقضى ، فيرتدع ويرتد إلى دين أهله وعشيرته ؛ إلى عبادة اللات والعزى وهبل ، ولكن سعدا نظر إليها وقال :

— والله لو كان لك ألف نفس ، فخرجت نفسا نفسا ، ما تركت ديني هذا . وتركها وخرج ، ووضع الطعام وابتدأ في تناوله . وأحسن حركة عند الباب ، فالتفت فرأى أمه مقبلة نحوه تترنخ ، فهب واقفا ، ومد لها يده لتكئ عليها ، وسار بها حتى بلغا مكان الطعام فأجلسها بجواره ، ومدت يدها إلى الطعام ووضعته في فمها ، فرنا سعد إليها مسرورا يكاد يطير من شدة الفرح .

* * *

علمت قريش أن محمد بن عبد الله يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء ، وأنه يدعو إلى عبادة إله واحد ، وأنه يسفه أحلام القوم ، ويسب آلهتهم ، ويسخر من معتقداتهم ، ويرمى آباءهم بالضلالة والجهل ، ويدعى أن آلهتهم جميعا ما هي إلا أصنام بلهاء ، فحز ذلك في نفوسهم ، فأرصدوا العيون حوله وحول من اتبعه ليعدوا حركاته وسكناته ، وحركات أتباعه ، ويوافوا قريشا بها لعلهم يدرءون هذا الخطب المدهم ، ويصدون الناس عن الافتتان بهذا الدين الجديد الذي استحدثه محمد ، هذا الدين الذي جاء يفرق بين القبيلة

والعشيرة والأسرة ، وليحض الناس على قطع أوشاج ما يربطهم بآبائهم ،
وليدفعهم إلى الثورة على معتقدات أسلافهم ، وليغير من أوضاع الناس ،
فيجعل الفقراء أندادا للأغنياء . وقد كان أكثر الناس مقتا لهذا الدين الجديد
عظماء القوم ، ورؤساء القبائل ، فقد أحسوا أنه ما جاء إلا ليقوض سلطانهم ،
وليحد من نفوذهم ، بل ليخفضهم ويرفع آخرين ، فوطنوا العزم على محاربتة
بلا هوادة أولين ، عسى أن يتمكنوا من أن يقضوا عليه قبل أن يعصف بهم .
خرج أتباع محمد للصلاة متسللين ، وخرج سعد مستخفيا قاصدا
الشعب لينضم لرفقائه ، وليصلي معهم خلف النبي ، بعيدا عن أنظار القوم .
وما كاد سعد يترك داره حتى اقتفى أثره عين من عيون قريش ، وجعل يرقبه
عن كثب ، ويتبعه كظله حتى انتهى إلى الشعب وانضم إلى محمد ورفاقه ، فعاد
العين وأنبا القوم باجتماع محمد وصحبه ومكانهم ، فخرج أبو جهل وبضع نفر
إلى الشعب ، واختفوا خلف صخرة ، وأرهفوا السمع ، ومدوا أبصارهم
ليروا ما يفعل هؤلاء الشاقون عصا الطاعة ، الخارجون على قومهم .

قام محمد تعلوه المهابة ، وتقدم في وقار ليؤم المسلمين ، فاصطف أصحابه
خلفه ملائكة بررة مطهرة ، وكبر وكبروا ، وجهر بمصلاته فرتل القرآن
بصوت ندى ، فتغلغل في أفئدة أصحابه ، ونزل بردا وسلاما عليهم . وبلغ
صوته آذان المختبئين خلف الصخرة . فسرت في أجسامهم رعدة ، وأحسوا
رهبة ، وطأطأوا أبصارهم ، ولزموا الصمت ، وسيطر الهدوء . وقضيت
الصلاة ، فجلس النبي يفقه أصحابه في الدين ، فخاض في اللات والعزى
وهبل ، فعرض المختبئون نواجذهم ، وفكروا أن يفاجئوا ذلك الصابي
وأنصاره ، ذلك الذي سب آلهتهم ، ولكنهم وجدوا أنفسهم أذلة ، فأحجموا
على مضض ، واستمر النبي في أحاديثه ثم قرأ :

﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ، ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله في عامين ، أن أشكر لي ولوالديك إلى المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ . سمع سعد هذه الآيات فعلم أنها إنما نزلت فيه ، فأطرق ، ثم نهض وبعض أصحابه لقضاء حاجة ، فمروا في طريقهم بأبي جهل وصحبه ، وقال أبو جهل :

— ما يقول صاحبكم في آلهتنا ؟

فقال سعد : يقول إنها أحجار صماء .

— خستتم .

— بل خستتم أنتم ، ما هي إلا أحجار .

— وما آلهتكم ؟

فقال سعد : إن إلهنا واحد لا شريك له ، خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزل من السماء ماء ، فأنبت بها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون في ضلال مبين .

— ما تلك الصلاة التي استحدثتم ؟

— لقد فرض الله علينا الصلاة ، لنذكره في اليوم خمس مرات نشكره على ما أولانا من فضله ونعمه ، وندعوه عسى أن يرضى عنا فنفوز ببجئات عرضها السموات والأرض .

— وما تلك الحركات التي تأتونها في صلاتكم كأنكم قردة نشيطة ؟

وضج أبو جهل ورفقاؤه بالضحك ، وراحوا يتغامزون ويعيون صلاة

محمد وأتباعه ، فلم يطق سعد صبرا فهجم على أحدهم ، وتلاحم أصحاب
محمد ورفقاء أبي جهل ، وتناول سعد عظم بعير ، فضرب به وجه الرجل
فشجه . واستمرت الملاحمة ، وأصيب سعد بشج أذنه ، وارتفعت أصوات
المتلاحمين . ونحش أبو جهل ورفقاؤه أن يبلغ الصوت محمدا وصحبه فيخفوا
لنجدة سعد ومن معه ، فانسلوا من المكان ؛ وعاد سعد ورفقاؤه إلى النبي ،
فضمده له جرحه بيده ، وقال له :
— في سبيل الله دمك يا سعد .

الفصل الثاني

أتون الاضطهاد

﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ .
(قرآن كريم)

أمر النبي ﷺ أن ينذر عشيرته ، وأن يجهر بدعوته ، فصدع بما أمر به ، ودعا قريشا إلى عبادة الله وحده ، ونبذ الأصنام ، فأعرضوا عنه ؛ فجعل يلاحقهم بدعوته ، ويعيب دينهم ، ويسب آباءهم ، ويسفه أحلامهم ، فشنفوا له وتجهموا ؛ واتفقت القبائل على أن تثب كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، يعذبونهم لعلهم يعيدونهم إلى دين آبائهم ، فأصاب المسلمين بلاء عظيم . وأضحت مكة أتونا من جحيم يقذف حمم البغضاء والمقت ، وتندلع منه ألسنة الكراهية والحقد لمحمد وصحبه ، وذاق المسلمون صنوف الاضطهاد ، وعبوا كأس العذاب ، بلغ منهم الجهد ، ولكنهم ثبتوا على دينهم ينتظرون الفرج من الله بقلوب عامرة بالإيمان ، ممتلئة باليقين . رأى محمد تنكيل القوم بأصحابه ، فأمرهم أن يستعدوا للهجرة إلى الحبشة إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا .

أعد عامر بن أبي وقاص متاعه استعدادا للرحيل ، وقابل أخاه سعدا فدعاه للخروج مع الخارجين ، فرارا بدينه من الكافرين ، فقال سعد :

— لا يا عامر ، لن أرحل وأترك رسول الله . لأبقين بجواره دواما ،
ولأصبرن على أذى القوم ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين .

— ألا تخرج يا سعد بعد ما رأيت من قومنا ؟ لقد اضطهدونا وعذبونا
ومنعوا عنا الطعام ، فإن بقينا بعد ذلك أصبنا بالبوار .

— سأبقى يا عامر .

— لقد أمر النبي بالهجرة ، وسيهاجر عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت
رسول الله ، فلا تحسبن الهجرة فرارا من الجهاد ، فقد تكون دعما للدين ،
وتوطيدا لأركانه ، وعاملا على نشره وانتشاره .

— لم أقل يا عامر إن الهجرة فرار من الجهاد ، فهي الجهاد ، وهي الصبر على
فراق الأهل والأوطان في سبيل الله . ولكن لن أفارق رسول الله ما دام في عرق
ينبض .

— اعلم يا سعد أن القوم قد تحجرت أفئدتهم ، وغلظت أكبادهم ،
واضحوا كالضواري المفترسة لا يتورعون عن الفتك بمن عاب دينهم ، ولا
يحجمون عن افتراس من كفر بألهتهم .

— أعلم ذلك يا عامر ، ولأبقين ، فلن يزيدني اضطهادهم إلا يقينا .

— تذكر يا سعد ما فعل بنو مخزوم بعمار بن ياسر وبأبيه وبأمه . إني ما
اختليت بنفسى قط إلا رأيت بنى مخزوم يخرجون بهم ويجردونهم من ثيابهم إذا
ما حميت الظهيرة ، فيعذبونهم برمضاء مكة . وإني يا سعد لأراهم اليوم
بوجوههم التي ارتسم عليها الألم والفرع ، وإني لأرى نظراتهم الزائغة ،
ولأسمع أناتهم وتأوهاتهم وزفراتهم وأنفاسهم المبهورة فيهتز كياني ، وتقطع
نياط قلبي . وإني لأرى يا سعد عدو الله أبا جهل وهو يصوب رمحہ نحو أم

عمار فيصيبها في موضع العفة فيردبها قتيلة ، وإني لأرى الماء الساخن يصب على أبي عمار ليكفر بمحمد وإله محمد . لا يا سعد لقد احتملنا الكثير ، فما علينا إلا ترك هذه البلدة الظالم أهلها .

— لقد استشهد أبو عمار وأمه في سبيل الله ، فهنيئاً لهما جنات النعيم .
— أراك يا سعد عازماً على البقاء ، موطداً النفس على احتمال البلاء ، فابق في رعاية الله ، أما أنا فسأهاجر الليلة مع المهاجرين .
— ارحل يا عامر ، وليكلاًكم الله بعنايته ، وليبدل خوفكم أمناً ، وقلقكم دعة وطمأنينة .

وهجع الكون ، وضرب الله على أصمخة أهل مكة فناموا ، وأغرقوا في النوم ، ولم يشعروا بخروج المسلمين في جوف الليل البهيم متسللين من دورهم ، متوجهين إلى المكان الموعد لملاقاة النبي وتوديعه قبل الرحيل إلى الحبشة . وخرج سعد ليودع أخاه والمسلمين ، فألقى رسول الله ﷺ ينتقل بين القوم يوصيهم بالتجلد والصبر ، وقد ارتسم على وجوه الجميع العزم الصادق ، والإيمان العميق .

وراح المسلمون يتجهزون لرحلة طويلة . وأخذ سعد يساعد أخاه في حزم أمتعته ، ويجهزه بالميرة والماء ؛ وأخيراً التأم عقد المهاجرين ، واقتربت ساعة الرحيل ، فأحس الجميع لوعة وأسى ، وفاضت شجون النساء ، وانهمر الدمع من مآقيهن ، واحتبس الحزن في صدور الرجال ، فما شاءوا أن تترجم عيونهم عما تفيض به الجوانح ، فتحجرت الدموع ، ولكن الحزن انعكس على وجوههم برغمهم . وحان وقت الوداع ، فتعانق القوم ، والتصقت الصدور العامرة بالإيمان ، وخفقت القلوب الطافحة باليقين . وأذن بالرحيل ، ففصلت العير ، وسارت القافلة التي تحمل خيرة المسلمين ، وأول المهاجرين ،

(سعد بن أبي وقاص)

وئيدة وئيدة ، تنطلق نحو الغيب المجهول ، تسير لا تعلم لها مصيرا ، معتمدة على الله ، محتسبة ما نالها من هوان ، وما ينتظرها من أهوال ، لله رب العالمين .
ووقف النبي وسعد بن أبي وقاص وأصحابهما يرقبون أبناءهم وبناتهم وإخوانهم وأخواتهم ، وآباءهم وأمهاتهم الذين اضطروا لهجرة الأوطان ، وترك الديار ، وفراق الأهل والخلان ، بقلوب شفها الوجد ، ونفوس نال منها الأسى والحزن . وابتعدت القافلة ، وراح الظلام يخيم عليها حتى غيبتها في طياته وحجبها عن أعين الأحبة المودعين ، فأحس النبي وصحبه حزنا ثقيلا ، حزن من ودع وحيد الوداع الأخير ، فطأطأوا الرءوس ، وسيطر على المكان سكون كسكون الرموس ، وبقوا لحظة لا يبدون حراكا ، شاردى الأفكار ، مبلبلى الخواطر ، غائبى القلوب ، فقد انطلقت أفئدتهم تحوم حول الأحبة المهاجرين .

انفلق عمود الصبح ، ونشرت الشمس ضياءها على الكون ، واجتمع عظماء قريش في الكعبة كعادتهم كل يوم ، وراحوا يتسامرون ، وفيما هم يتجاذبون أطراف الحديث ، بلغهم خبر تسلل المسلمين ليلا إلى الحبشة في غفلة منهم ، فطار صوابهم ، وأفلت منهم زمام أمرهم ، فأصبحت صدورهم كمرجل يغلى بالحنق والغضب ، وارتسمت آيات الكآبة على وجوههم ، وحز الحزن في نفوسهم لانفلات الصابئين من أيديهم ، ففكروا ، وأداروا قداح الرأي بينهم فيما يفعلون بمحمد ومن بقى معه ، فقر رأيهم على أن يسوموهم سوء العذاب ، لعلهم يعيدون إلى نفوسهم هيبتها التي تزعزعت بخروج المسلمين ليلا ، وهم منهم ساخرون .

لقد وطن رؤساء قريش العزم على مضاعفة الأذى لمحمد ولمن بقى معه ،

ونسوا أن الاضطهاد سلاح المغلوب على أمره ، الموقن بافتقاره إلى الحق ،
وعدم استناده إلى المنطق والعقل والبرهان .

دعا رؤساء قريش دهماء القوم وراحوا ينفثون سمومهم فيهم ويوغرون
صدورهم على المسلمين ، فانطلق الدهماء كالسائمة إلى دور الصابئين ،
الخارجين على القبيلة ، الشاقين عصا الطاعة ، الحاملين لواء التمرد والعصيان ،
الكافرين باللات والعزى ، وراحوا يمحصبون دورهم بالحجارة ، ويسومونهم
سوء العذاب ، فأوذى سعد واحتمل ، وضرب وعذب ليرتد عن الدين
الجديد إلى دين الآباء فتجلد وصبر ، وزاد هذا الاضطهاد نفسه صفاء كما يزيد
الانصهار المعادن نقاء .

الاضطهاد مستمر ، والانضواء تحت لواء الدين الجديد مستمر ، فزاد
ذلك في حنق قريش ، فغالوا في اضطهادهم ، ولكن كيدهم ارتد إلى نحورهم ،
فلم ينالوا من بغيتهم شيئا ، فما وقفت الدعوة الجديدة عن السّير قدما ، وما
ارتد الذين اعتنقوها إلى دين قومهم ، بل ازدادت أنصارا ووجدت لها مؤيدين
وأعوانا .

فكر دهاة قريش في سلاح جديد يحاربون به محمدا غير سلاح الاضطهاد
الذى فل ، فاقترح أحدهم أن تقاطع قريش المسلمين ، فلا يبيعونهم ولا
يتاعون منهم ، ولا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم ، فصادف هذا هوى في
نفوس القوم ، فوافقوا عليه ، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة ،
وضربوا حول شعب أبي طالب نطاقا من الحراس يمنعون المسلمين من الخروج
كما يمنعون الناس من الدخول أو الاتصال بهم ، وحسب القوم أن هذا هو الحال
المنشود ، والسلاح البتار الذى سيقضى على المسلمين ، فباتوا والطمأنينة
تترف عليهم والسكينة تحتل قلوبهم .

وحوصر المسلمون رجالا ونساء وأطفالا في شعب أوى طالب ، وضيق
الحصار عليهم ، فنفذ ما كان عندهم ، ونحوت بطونهم ، وزاغت عيونهم ،
وتفككت أوصالهم ، وأنت نساؤهم ، وبكى صغارهم ، وراحوا يصرخون
يطلبون الطعام ، فكانت دموع النساء تنهمر ، وأكباد الرجال تتفتت ، وتطفى
آلام النفوس على آلام الجوع . إنهم يرون أبناءهم أمام عيونهم يتضورون
جوعا ، إنهم يرون فلذات أكبادهم ، مهجهم وأرواحهم ، لا يقرون ، يتلوون
ويثنون ، ويكون يصرخون ، ويتوسلون ويتضرعون إليهم أن يمنحوهم
كسرة خبز يمسون بها رمقهم ، ويعدون شبح الجوع الذى أقلقهم ، ولكن
أنى لهم هذه الكسرات التى عزت ؟ ليتهم يستطيعون استبدال أرواحهم
بكسرات تلتطف من آلام آبائهم الذين قضت قريش الظالمه الجائرة بتجويعهم
وتعذيبهم بلا ذنب جنوه ، أو إثم اقترفوه .

وأقبل الليل ، وحاول سعد أن يهجع ، ولكن الجوع راح يطارده ويقض
مضجعه ، فما استطاع أن ينام على الطوى ، فنهض وخرج يقطع الشعب
مترنحا فألفى الناس سهدا من الجوع ، فجعل يوصيهم بالصبر ، ثم أحس بساقيه
لا تقويان على حمله ، فجلس على حجر ، وعضه الجوع بأنياه ، وأحس
بغشاوة على عينيه وبالوهن يدب فى جسمه ، فمال وتناول حجرا شده على
بطنه ، ولكن ذلك لم يخفف من آلام الجوع ، فأصابه دوار وخور ، فاستلقى
على الأرض وتمدد ، ومر الوقت وتيدا ، ورفع سعد رأسه فلمح بشجرة قريبة ،
فنهض وحمل نفسه حملا حتى بلغها وأخذ يقطف أوراقها ويأكل ليسكت
صراخ الجوع المروع المنبعث من جوفه .

ضيق الجوع الخناق على المسلمين ، واستبد بهم ، فأضناهم وعذبهم
وأضعف أبدانهم ، وغير ألوانهم ، ولكنه لم يقو على أن يززع إيمانهم ، أو

يضعف نفوسهم . و حان وقت الصلاة فوقفوا جميعا خلف النبي يصلون
يقيمون بالجهد صلبهم ، ويغالبن بعزائمهم الماضية ضعفهم ، وقضيت
الصلاة بعد أن نال منهم التعب والنصب والمخمصة ، فاستلقوا على الأرض
مبهورى الأنفاس ، زائغى العيون ، يتألمون ويتوجعون ، وزاد فى ألمهم صياح
الأطفال وصراخهم . وسار الزمن متاثقلا ، وانقضى الوقت متباطئا ، فما
الوقت بالنسبة إليهم ، فنهارهم عذاب ، وليلهم سهاد . واحتضر النهار ،
واستوى الليل على عرشه ، وبلغ الجهد بالمسلمين غايته . ودب الضعف فى
جسم سعد فراح فى غيبوبة وإعياء ، واستيقظت نفسه بعد حين ، فجعل
يصارع الضعف ويغالبه ، وشدت عزيمته أزره ، فاستطاع أن يرفع رأسه
وجاهد حتى استوى قاعدا ، ومد بصره فى الظلام فرأى أشباحا تتراقص ودنيا
تتايل ، فأغمض عينيه ، وثبت يديه فى الأرض خشية أن تميد به ، وهمس الريح
فى أذنيه بصوت كصوت البعير ، ففتح عينيه ومد بصره ، فرأى فى الظلام
شبحا يتحرك لم يستطع أن يميزه ، وأخذ الشبح يقترب منه رويدا رويدا
ويتشكل شيئا فشيئا حتى صار بعيرا محملا بأحمال ، فدبت الحياة فى نفس سعد
وصبت فيه القوة ، وانقلب الضعف فتوة ، فهب واقفا وهرول نحو البعير
وراح يسوقه أمامه حتى بلغ النبي .

أناخ النبي البعير فألفاه يحمل طعاما طيبا ، وانتشر خبر الطعام فى الشعب
انتشار الريح ، فتوافد المسلمون على النبي ، فأعطى كلا طعامه ، فأكلوا
وشبعوا ، وانهزم الجوع وتقهر ، ثم ما لبث أن جمع فلول جيشه ، وسوى
كتائبه ، واستعد ليشق هجوما آخر أقسى وأوجع من هجومه الأول .

امتلات البطون ، فأغمضت العيون ، ونام الأطفال والنساء والرجال ملء
الجفون ، وبقي سعد وبضعة نفر من الرجال يتسامرون ويأخذون بأطراف

الحديث . فدار حديثهم حول البعير ، وجعلوا يتساءلون عمن ساقه إليهم ، فعلموا أن في قريش أناسا يهتمون بهم ، ويعطفون عليهم ، ويرجون لهم النجاة فاستراحت نفوسهم ، وقرت عيونهم ، وأيقنوا أن الله يرعاهم برحمته ، ويكلأهم بعنايته ، وأنه سينصرهم ويعلى كلمته ، وينشر دينه ، ولو كره الكافرون .

نقد ما كان عند محمد من زاد ، فأعاد الجوع سيطرته ، واحتل شعب أبي طالب ، وصب على المسلمين جام غضبه ، وأنزل بهم سوط عذاب ، واقتربت الأشهر الحرم ، تلك الأشهر التي تنام فيها الخصومات ، وتحقن فيها الدماء ، فراح سعد يعد الأيام والليالي الباقية على حلوها ليتخلص المسلمون من هذا الحصار المضروب ، فضاغف ألم الانتظار آلامه ، وزاد في عذابه ، وتلكأ الزمن في سيره ، وأخيرا أطل قمر الشهر الجديد معلنا ابتداء الأشهر الحرم ، فتجاوبت صيحات الفرخ في جنبات الشعب ، لقد رفع الحصار عن المسلمين . وأقبل الحجيج إلى مكة من كل فج عميق ، ليطوفوا بالكعبة بيتهم المقدس ، وخرج النبي من الشعب يعرض نفسه على الحجاج ، وأخذت قريش تبذل جهدها لتمنع اتصاله بالوافدين ، فكان القرشيون ينصحون الناس بعدم الاستماع إلى محمد الساحر خشية أن يصيبهم شيء من سحره ، فكان في التحذير دعاية وأي دعاية ، فاستمع الناس إليه ، ودخل بعضهم فيما يدعو إليه ، وباءت قريش بفشل عظيم .

* * *

ودارت عجلة الزمن سريعا ، وأوشكت الأشهر الحرم على الانصرام ، فأحس سعد حزنا شديدا ، وحاول أن يتناع طعاما يخزنه للأيام العجاف ، أيام الشدة والضيق ، أيام الحصار الشديد والمقاطعة ، ولكنه لم يجد من يبيعه شيئا ،

وانقضت الأشهر الحرم ، واستأنف الحصار ، وعاد الجوع يبطش بالمسلمين .
استبد الجوع بهم ، فترنح سعد مع المترنحين ، وأصيب ببلاء شديد وكرب
وضيق ، وبلغت روحه الحلقوم ، وتطلع إلى السماء مع المتطلعين ، يلتمس
العون والفرج ، ودخل أبو طالب على النبي فقال رسول الله :
— يا عم إن الله قد سلط الأرضة على الصحيفة فلم تدع فيها اسما هو « الله »
إلا ثبتته فيها ، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان .

فقال أبو طالب :

— أربك أخبرك بهذا ؟

فقال رسول الله : نعم .

فقال أبو طالب : فعلام نجس ؟

وخرج إلى الكعبة ليقابل أشراف قريش ولينبئهم أن رب محمد قد مزق
الصحيفة الظالمة الجائرة ، فلا عهد ولا ميثاق ولا ظلم ولا قطيعة . وانتشر خبر
تسليط الأرضة على الصحيفة بين المسلمين في الشعب ، فانتشت النفوس
واطمأنت القلوب ، وانتظر الناس سفارة أبي طالب انتظار الغريق للغوث ،
وعاد أبو طالب فأسرع سعد إليه مع من أسرع بقلب يتنازعه الرجاء واليأس ،
وتطلع إلى وجهه ليستشف ما في نفسه ، فألقى البشر يشيع في محياه ، فعلم كل
شيء ، ولكنه أرهف أذنيه فسمع أبا طالب يهتف :

— مزقت الصحيفة ، ورفع الحصار .

فهتف سعد مع الهاتفين : « الله أكبر ، الله أكبر » ! وجلجل الصوت
وارتفع عاليا قويا ، فزلزل جنبات مكة ، وشق الجوزاء وبلغ عنان السماء .

السهم الأول

رفع الحصار عن المسلمين ، واستأنف محمد دعوته ، وترادف العذاب على المسلمين وتتابع ، فنال سعدا قسط كبير من الأذى والاضطهاد . وأسلم أهل يثرب ، فغضبت قريش وازدادت طغيانا وظلما ، وكثر التنكيل والتعذيب ، فأمر الرسول أصحابه بالخروج إلى يثرب ، فاتفق سعد وبلال وعمار على الخروج ، فلما سجا الليل وهدأ كل شيء ، خرجوا من دورهم متسللين ، وامتطوا رواحلهم ، وانطلقوا من مكة أتون العذاب إلى يثرب مهد الهدى والرشد ، وانطلقوا تاركين خلفهم أهلهم وعشائرهم الذين تنكروا لهم ، ميممين صوب إخوان ألان الله قلوبهم ، وشرح لهم صدورهم ، انطلقوا من مكة مضحين بمصالحهم ، مهاجرين لله وفي سبيل الله ، انطلقوا مطأطيء الرءوس ، منقبضي الصدور ، وما دار بخلداهم أنهم عما قريب سيعودون إلى مكة شامخي الأنوف ، رافعي الإهام ، وأن سعدا سيدخلها ظافرا منتصرا حاملا راية المهاجرين ، وأن صوت بلال الصداح سيتجاوب في جنباتها ، وسينساب في أجوائها رقيقا رقة النسيم ، عذابا عذوبة الماء السلسبيل ، يدعو الناس للصلاة ، فيهرع الجميع خاشعين ، ملين داعي السلام . وانطلقوا وما يدرون ما يدخر الدهر لهم من أمن بعد خوف ، وامتلاء بعد مسبغة ، وعز بعد ذل ، ورفعة وسؤدد وسلطان .

وتتابعت هجرة المسلمين ، وأقبل على المدينة النبي وأبو بكر ، فتصرم عهد احتمال أذى قريش ، والصبر على مكروهاها ، وانقضى زمن التنكيل والتعذيب ، ولاحت في الأفق القريب تباشير عهد جديد ، عهد مطاولة

المسلمين للكافرين ، عهد القوة والفتوة ، عهد الكفاح والنضال لدعم الدين الجديد ونشر سلطانه في الخافقين .

وأقبل الليل ونشر رداءه الأسود على الكون ، وتلألأت في صفحته الداكنة نجوم خافتة ، فبدا كزنجية تحلت بجمان ، وعاد الناس إلى دورهم ، وبقي النبي وحده ، وحاول النوم ولكنه لم يهجع ، فدعا عائشة وراحا يتجاذبان أطراف الحديث ، قال النبي فيما قال :

— ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة .

واستأنفا حديثهما ، وبينما هما يتحدثان إذ سمعا خشخشة سلاح فقال النبي :

— من هذا ؟

— سعد بن أبي وقاص .

— وما جاء بك ؟

— وقع في نفسي خوف على رسول الله فجئت أحرسه .

فدعا له النبي ، واتجه إلى مضجعه ونام ملء جفونه ، ولبث سعد الليل

جميعه يحرس رسول الله .

استقر المهاجرون في يثرب ، واستتب الإسلام بها ، وقويت شوكته ، فرأى النبي أن يبعث السرايا إلى الحجاز ليتنسم أخبار قريش ، وليعلم ما تحبسه له من مفاجأة ليكون على بينة من أمرها حتى لا تدهمه وهو عنها غافل ، فبعث عبدة ابن الحرث في ثمانين راكبا من المهاجرين ، فخرجت السرية وبها سعد بن أبي وقاص ، وراحت تجدد في السير ، وتتابع عليها الليل والنهار حتى بلغت ماء الحجاز بأسفل ثنية المرة ، ولمح سعد جمعا غفيرا من قريش عند الماء فتذكر إخراجهم له من داره ، وإبعادهم إياه عن وطنه ، فجرى الدم حارا في عروقه ، وأحس رغبة في قتالهم ، فوضع سهمهما في قوسه ورمى به ، فانطلق أول سهم في

الإسلام يشق الفضاء ، منذرا الكفار بغارات شعواء وحرب مذكر ، ووضع
سهما آخر في قوسه وتأهب لإطلاقه ، ولكنه لمح القوم ينصرفون لا يبغون
قتالا ولا نزالا ، فوضع سهمه ، ثم قفل عائدا إلى يثرب مع السرية بعد أن أطلق
السهم الأول ، الذي ستتبعه سهام وسهام ، قبل أن ترفرف راية الإسلام على
العالمين .

الأيام تمر ، وسواعد المسلمين في يثرب تشتد ، وتاق النبي إلى معرفة ما
يدور في مكة ، فدعا عبد الله بن جحش وبعثه في سرية مع ثمانية رهط من
المهاجرين ، وكان سعد منهم . وكتب لعبد الله كتابا وأمره ألا ينظر فيه حتى
يسير يومين ، وانطلقت السرية صوب الحجاز ، ولما انصرم الأجل المحدود
فض عبد الله الكتاب وقرأه ، ولما فرغ منه قال :

— سمعا وطاعة .

ثم التفت إلى أصحابه وقال :

— قد أمرني رسول الله أن أمضي إلى نخلة (موضع) ، أرصد بها قريشا حتى
آتيه منهم بخبر ، وقد نهاني أن أستكره أحدا منكم ، فمن كان منكم يريد
الشهادة ويرغب فيها فليطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض لأمر
رسول الله .

انطلق عبد الله ورهط المهاجرين ، وأغدوا في السير حتى بلغوا نجران فنزلوا
بها ليستر يحوا ، ثم استعد عبد الله بن جحش لاستئناف زحفه ، فتفقد رجاله
فلم يجد سعدا ولا عتبة بن ربيعة فراح يبحث عنهما فلم يجد لهما أثرا ، وأخيرا لم
يجد بدا من الانطلاق إلى ما أمرهم به رسول الله تاركا سعدا وعتبة ، فأمر
رجالته بالسير إلى نخلة ، ولما بلغوها نزلوا بها فمرت بهم غير تحمل تجارة
لقريش ، ففكروا في مهاجمتها ، ولكنهم تذكروا أنهم في الأشهر الحرم ،

فأحجم بعضهم ، ورأى بعضهم أن لا بد من الهجوم ، وارتفع الجدل بينهم ، قال أحدهم :

— لقد آذونا وعذبونا وحاولوا فتننا عن ديننا ولم يراعوا لنا حرمة ، فلم نرعى لهم حرمة ؟
وقال آخر :

— والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم ويمتنعن عليكم .
ووافق الجميع على القتال ، فرمى أحدهم سهما فأردى قرشيا قتيلا ، وهجم المسلمون على القافلة ، وأسروا رجلين ، وغنموا ما تحمل العير ، ثم رجعوا إلى يثرب ولم يعد معهم سعد ولا عتبة ، فراح القوم يسألونهم عنهم ؟ فقالوا : لقد اختفيا عند نجران ولم نعثر لهما على أثر ، ولما رأى رسول الله الأسيرين والغنائم قال :

— ما أمرتكم بقتال في الأشهر الحرم .
ورفض أن يأخذ نصيبه من الغنائم ، ثم نزل القرآن يبرر عمل السرية ، وبعثت قريش في فداء الأسيرين ، فقال رسول الله :

— لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا — سعد وعتبة — فإننا نخشاكم عليهما ، فإن قتلتموهما نقتل صاحبيكم .

وأقبل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن ربيعة ، فأنجفل الناس إليهما ، وراحوا يسألونهم عما حدث لهما فقال سعد :

— لما بلغنا نجران ضل بعير لي ولعتبة ، فخرجنا نتعقبه ، فعثرت قريش علينا فأسرتنا ، فلما اطمأن الرسول على صاحبيه أطلق سراح الأسيرين .

الفصل الثالث

يوم عظيم

﴿ لقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم
تشكرون ﴾

(قرآن كريم)

نزل سيف الفجر من غمد الغلس ، وارتفع صياح الديكة تهتك غلالة
السكون ، ثم هدأ كل شيء ، واعتلى بلال مسجد الرسول ، وأرسل صوته
الندى الحنون يدعو الناس إلى صلاة الفجر ، وداعب صوته العذب أذن سعد
فهب من نومه وتوضأ ، ثم خرج إلى المسجد فلفحته نسمة عليلة أنعشته ،
وراح يقطع الطريق بين داره والمسجد بخطا واسعة وهو مرهف السمع
لصوت بلال الصداح .

وقضيت الصلاة ، وجلس سعد إلى النبي ، وأخذ بأطراف الحديث في دعة
وهدوء حتى تنفس الصبح ، وبزغت الشمس ، وأقبل رجل على الرسول وقال :
— إن أبا سفيان بن حرب مقبل من الشام في غير لقريش عظيمة .

فأطرق رسول الله هنيهة ، ونظر سعد إليه فتيقن من أنه قد عقد العزم على
أمر ذي بال ، ثم رفع النبي وجهه ، ودعا المسلمين إليه وقال :

— هذه غير قريش فيها أموالكم ، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها .
أضحت يثرب في حركة دائمة ، وأخذ الناس يتوافدون في عدة القتال ،

وأقبل سعد بن أبي وقاص على بعيه ، لابساً جبة من صوف ، وارتسم العزم الصادق على وجهه ، إنه يتوق لملاقاة قريش الذين اضطهدوه وآذوه وعذبوه وأخرجوه من دياره ، إنه يتوق لملاقاة قريش الذين فرقوا بينه وبين أهله وخلانه . واكمل عقد المسلمين ، فأمرهم الرسول بالمسير على بركة الله ، فانطلقوا وكانوا يتعقبون بعيهم ، وانطوت الأرض تحت أرجلهم . وأخيراً نزلوا بالقرب من ماء بدر ، وقد بلغ أبا سفيان أن محمداً قد استنفر أصحابه له ، فأرسل إلى مكة يستنفر قريشاً إلى أموالهم ، وبلغ النبي مسير قريش ، فاستشار الناس فقالوا له :

— امض لما أراك الله فنحن معك .

وعسعس الليل ، ونشر ألويته السود على المكان ، فبعث رسول الله على بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص إلى ماء بدر يلتمسون الخبر ، فانطلقوا تحت جنح الليل حتى أمسوا على قيد خطوات من ماء بدر ، فهمس سعد :

— انظرا هذان ساقيان لأبي سفيان .

فتمتم الزبير :

— لنأت بهما رسول الله .

فانسلوا من مكانهم ، وساروا على حذر ، ثم قبضوا على الساقيين وعادوا بهما إلى النبي ، فوجدوه يصلي ، فسألهما سعد :

— سقاة من أنتم ؟

— نحن سقاة قريش ، بعثونا نسقيهم من الماء .

فقال على : كذبتما .

فقالا : لا ، لم نكذبكم القول .

فقال سعد : أنتما ساقيان لأبي سفيان .

فقال الزبير : الصدق الصدق ، وإلا ضربناكما حتى تعترفا .

فقالا : نحن سقاة قريش .

فضربوهما وأوجعوهما ، فصاح الساقيان :

— نحن سقاة أبي سفيان ، نحن سقاة أبي سفيان .

فتركوهما ، وأيقنوا أن غير قريش وتجارتهن باتت في قبضة أيديهم .

وأتى رسول الله الصلاة ، فالتفت إلى سعد وعلى والزبير وقال :

— إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ، صدقا والله لإنهما

لقريش .

وأقبل رسول الله على الناس وقال :

— هذه مكة قد ألفت إليكم أفلاذ أكبادكم .

— أتى المسلمون أدنى ماء من القوم ، وبنوا حوضا على الماء ، ملئوه ليشربوا

ولا يشرب الكافرون ، وبنوا عريشا للنبي ، واصطف المسلمون ، ووقف

سعد في الصف يتحفز للقتال ، ولمح قريشا مقبلة فجرى الدم حارا في عروقه ،

ووقف كأسد كاسر يتحفز للانقضاض على غريمه ، وانتظر الإذن بالقتال

بصبر نافذ : إنه يتوقد لقتال أعداء الله وأعدائه . وصك أذن سعد قول النبي :

— اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ،

اللهم نصرك الذي وعدتني .

فاتقد حمية وحماسة ، وهمت قريش بالزحف ، فأمر النبي المسلمين أن

يمنعوهم بالنبل من الاقتراب منهم ، فأخذ سعد يسدد سهامه الفتاكة ، ودخل

النبي وأبو بكر العريش ، وراح المتحاربون يتراشقون بالسهام ، ثم خرج النبي

يحرض القوم ، قال :



هجم سعد علی قریش کا لاسد عادی

— والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة .

فاستل سعد سيفه ، وانتظر الإذن بالهجوم لينقض على الكافرين ، فإما نصر وعز ، وإما استشهاد في سبيل الله وجنات عرضها السموات والأرض . وهتف رسول الله : شدوا .

فصاح المسلمون : أحد .. أحد .

وهجموا على الكافرين كالليوث الكواسر ، وتصافت السيوف ، وتبودلت الضربات ، وفغرت المنايا أفواهها ، وهجم سعد على قريش كالأسد عاديا ، وأطل الموت من سيفه ، وراح يهزه ويضرب الكفار ، صائلا جائلا . ووقع بصره على النبي وسط المعمة شاهرا سيفه ، ضاربا به المشركين ، فازدادت حماسته ، وكر على الأعداء وهو يهتف : « أحد .. أحد » .

وثار النقع ، واختلط المسلمون بالكافرين ، وحمى وطيس القتال ، وراح صناديد قريش يسقطون صرعى تحت ضربات أبطال المسلمين ، وحاول الباقون النجاة من تلك السيوف البتارة ، فولوا الأدبار ، فكانت الهزيمة ، وتعقبهم المسلمون ، وأسروا ناسا كثيرين ، وأسر سعد أسيرين ، وانجلت أول معركة في الإسلام عن انتصار باهر عظيم ، ثم راح المسلمون يجمعون الغنائم فرحين مستبشرين ، وعاد سعد بأسيره إلى حيث كان الرسول الأمين .

عاد المسلمون إلى يثرب ظافرين منتصرين ، وكانت أنباء الانتصار المبين قد بلغت من في المدينة ، فخرجوا فرحين مهللين مكبرين يهتفون إخوانهم بنصر الله ، ثم انصرف سعد إلى داره وخلع جبته الصوف ، وطواها برفق ووضعها في مكان أمين ، تخليدا لذكرى يوم عظيم .

الفصل الرابع .

الصابرون

(ارم أيها الغلام فداك أبى وأمى ا) .

(حديث شريف)

انطلق سعد إلى المسجد ، وفي الطريق بلغه خروج قريش لقتال المسلمين ، ونزولهم بالقرب من أحد ، فأسرع ليرى ما يفعل الرسول ، وما إن دلف من باب المسجد حتى رأى النبي والناس حوله ، فاتجه نحوهم فسمع النبي يقول : — إني رأيت والله خيراً ، رأيت بقراً لي يذبح ، ورأيت في ذباب سيفى ثلماً ، فأما البقر فهي ناس من أصحابي يقتلون ، وأما الثلم الذى رأيت في ذباب سيفى فهو رجل من أهل بيتى يقتل .

فطأطأ الحاضرون الرءوس ، وسيطر السكون برهة إلى أن قال سعد :

— نزلت قريش بالقرب منا ، فماذا نحن فاعلون ؟

فقال النبي : إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا . فإن أقاموا ،

أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا ، قاتلناهم فيها .

فصاح صائح : يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أنا جنبنا عنهم

وضعفنا .

فقال عبد الله بن أبى : « يا رسول الله ، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم ، فوالله ما

خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه .

(سعد بن أبى وقاص)

فدعهم يا رسول الله ، فإن أقاموا ، أقاموا بشر محبس ، وأن دخلوا ، قاتلهم الرجال في وجههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما نجاءوا .

فصاح آخر : لنخرج إليهم ، ولنقاتلهم ولا نقعد عن الجهاد .
وصاح ثالث : لو دخلوا علينا وأصابوا منا ، لم تقم لنا بعدها قائمة أبدا .
الخروج الخروج !

وارتفعت الأصوات من كل جانب تحبذ الخروج للقتال ، فدخل النبي داره ، والتفت سعد إلى القوم وقال :
— استكرهتم رسول الله ، ولم يكن لكم ذلك .

فندم الناس ، ولما خرج النبي لا بسا لأمته ، انجلفوا إليه وقالوا :
— يا رسول الله استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد .
فقال النبي : ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل .
تجهز سعد للقتال . فتدحج بالسلاج ، وخرج مع المسلمين للقاء قريش ، وانطلقوا حتى نزلوا الشعب من أحد ، فجعل النبي ظهره وعسكره إلى أحد ، وأجلس جيشا من الرماة ، وأمر عليهم عبيد الله بن جبير وقال له :
— لا تبرحوا . إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهرنا علينا فلا تعينونا .

واصطف الجيشان ، وبرز سباع من بين صفوف قريش ، وصاح :
— هل من مبارز ؟

فخرج إليه حمزة وقال :

— يا سباع ؛ أتحاد الله ورسوله ﷺ ؟

ثم شد عليه وضربه ضربة فأرداه قتيلًا ، وبرز ابن أبي طلحة من صفوف

المشركين ، وهو صناديد من صناديد قريش وصاح :

— يا أبا القاسم من يبارز ؟

فلم يخرج له أحد ، فصاح ثانية : يا أبا القاسم من يبارز ؟
فلم يخرج له أحد من المسلمين ، فصاح : يا أصحاب محمد ، زعمتم أن
قتلناكم في الجنة ، وأن قتلانا في النار ، كذبتهم واللات ، لو تعلمون ذلك حقا
لخرج إلى بعضكم .

فخرج إليه على بن أبي طالب . وتبادلا ضربات ، وشد عليه على كأسد
كاسر ، فأحس ابن أبي طلحة بانهزامة ، وأن عليا سيقتله فاستقبله بعورته ،
فتركه على وعاد إلى صفوف المسلمين .

وأمر رسول الله أصحابه أن يشدوا ، فهتفوا : « أمت .. أمت » واندفعوا
كالبحر الهائج . والتقى الجمعان ، وانقض سعد على ابن أبي طلحة وكان يحمل
لواء المشركين انقضاض الصاعقة وعاجله بضربة من سيفه فبترت يده ،
فحمل ابن أبي طلحة اللواء بيده الأخرى ، فضربه سعد ضربة ثانية أطاحت
بها ، فضم ابن أبي طلحة اللواء بذراعيه إلى صدره . فسدد سعد إليه ضربة
هائلة سقط بعدها ابن أبي طلحة يخبط في دمه . وسقط لواء المشركين على
الأرض ، وراح سعد يحسو الكفار بسيفه ويهتف : « أمت .. أمت » وسمع أنينا
خلفه ، فالتفت فرأى حمزة قد أصيب بحربة خرجت من بين وركيه ، فثارت
ثأثرته ، وكر على قريش عازما على أن يستأصلهم قتلا ، وراح المسلمون
يعملون سيوفهم فيهم حتى انهزم الكفار ، وابتدأ نساؤهم يشددن في الجبل ،
رافعات عن سوقهن ، قد بدت خلاخلهن ، وأسرع المسلمون يجمعون
الغنائم ، فلما لمح الرماة ذلك تصايحوا :

— الغنيمة الغنيمة .

فقال عبد الله بن جبير :

— عهد إلى ﷺ ألا تبرحوا .

— لقد انهزم القوم ، وابتدأ إخواننا في جمع الغنائم .

— لا تبرحوا .

فأبوا وانصرفوا ليجمعوا الغنيمة ، وخلوا ظهور المسلمين ، فظهرت خيل الكافرين على الجبل خلف المسلمين ، فالتفت المسلمون نحو الصوت مذعورين فرأوا خيل قريش تنقض عليهم كصقور كواسر ، فوقع بينهم هرج شديد ، وراحوا يدافعون عن أنفسهم دفاع المستميت ، وسقط المسلمون صرعى ، وراح سعد يقاتل وهو يخترق الصفوف باحثا عن النبي ليزب عنه حتى النفس الأخير ، فوجده قد شج وجهه ، وكسرت رباعيته ، فوقف بجواره ، وراح يسدد سهامه إلى الكافرين ، فالتفت إليه النبي ، وقال :

— ارم أيها الفتى الخزور فذاك ألى وأمى .

فجعل سعد يرمى سهامه ، حتى كسرت القوس في يده ، فناوله النبي قوسا أخرى وقال :

— اللهم سد رميته ، وأجب دعوته .

وأقبل طلحة بن عبيد الله ، وانضم إلى سعد في الذود عن الرسول ، فوقف بين يديه مجوبا (مترسا) عليه بحجفة له ، وكان طلحة راميا شديدا للزرع ، ومر رجل بجعبة من النبل فقال له النبي :

— انثرها لطلحة .

وأقبل أبو دجانة ، وانضم إلى النبي وصحبه ، ولما رأى كثرة النبل المصوب إلى الرسول جعل من نفسه ترسا يقى النبي ببدنه ، فأخذ النبل يرشق في ظهره ، وهو منحني على الرسول حتى أصبح كالقنفذ وهو لا يبارح مكانه .

وراح سعد وطلحة يدافعان عن النبي دفاع الأبطال الصناديد ، وأشرف
النبي ينظر إلى القوم ، فقال له طلحة :

— بأبي وأمي ، لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم ، نحري دون نحرك .
وأحس سعد بالعطش . فالتفت فرأى عائشة تحمل قربة على متنها تسقى
القوم فأشار إليها فأقبلت وأفرغتها في فيه ، ثم رجعت لتملأها ، واستأنف سعد
قتاله فناول النبي سهمًا ما له نصل ، فأخذه سعد والتفت إلى النبي ، فقال له
النبي :

— ارم به .

فوضعه في قوسه وأطلقه ، وجعل يطلق السهام حتى بلغ ما أطلقه ألف
سهم .

ولمحت أم عمارة انهزام المسلمين وثبات سعد وطلحة مع النبي ، فألقت
بالقربة التي كانت تحملها تسقى منها القوم ، وتناولت سيفًا ، وانحازت إلى
رسول الله تذب عنه مع سعد وطلحة ، وترمى عن القوس ، وأقبل رجل من
قريش يصيح :

— دلوني على محمد ، فلا نجوت إن نجا .

فاعترضت له ، فضربها بسيفه فخلصت الجراح إليها ، فلم يثنها ذلك ،
فهجمت عليه وضربتة ضربتين فأدبر . وصرخ صارخ : « ألا إن محمدًا قد قتل
.. فقعد المسلمون عن القتال ، وهدأت المعركة ، وعثر كعب بن مالك على
النبي فصاح :

— يا معشر المسلمين ، أبشروا .. هذا رسول الله .

فأشار له رسول الله أن أنصت ، وأقبل عمر ، وأبو بكر ، وعلي ، والزبير ،
فرأوا رسول الله ، ففرحوا ببلقائه ، ونهضوا به ونهض معهم نحو الشعب ، وسار

سعد مع النبي خائر القوى يتفصد العرق منه ، يكاد يسقط من شدة الإعياء .

وصاح أبو سفيان :

— أفي القوم محمد ؟

فقال النبي : لا تجيبوه .

— أفي القوم ابن أبي قحافة ؟

— لا تجيبوه .

— أفي القوم ابن الخطاب ؟

فلم يبلغ أذنيه إلا صدى صوته ، فقال :

— إن هؤلاء قتلوا ، لو كانوا أحياء لأجابوا .

فلم يملك عمر نفسه فقال :

— كذبت يا عدو الله ، أبقى الله عليك ما يخزيك .

فصاح أبو سفيان :

— أعل هبل .

فقال النبي ﷺ :

— أجيئوه .

— وما نقول ؟

قولوا : « الله أعلى وأجل » .

قال أبو سفيان :

— لنا العزى ولا عزى لكم .

فقال النبي :

— أجيئوه .

— ما نقول ؟

— قولوا : « الله مولانا ولا مولى لكم » .

فقال أبو سفيان :

— يوم يوم بدر والحرب سجال .

وانصرف المشركون ، وبقي المسلمون في الشعب ، وأذن لصلاة الظهر ،
فصلى النبي قاعدا من الجراح ، وصلى المسلمون خلفه قعودا ، ولما قضيت
الصلاة عاد سعد إلى يثرب وفي نفسه حزن ثقيل لما أصابهم من كرب وبلاء .
وفي صبيحة اليوم التالي ، بددت الشمس فحمة الدجى ، وبهرت أنوار
السرّج ، وارتفع صوت المنادى يدعو المسلمين للخروج في أثر قريش ،
فخرج سعد وانضم إلى إخوانه وانطلقوا حتى نزلوا حمراء الأسد ثلاثة أيام :
ولم يلقوا كيذا فقفّلوا عائدين إلى يثرب . واستمر سعد حزينا مغيظا لانتصار
قريش إلى أن دخل المسجد يوما وسمع النبي يرتل :

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسيكم قرح
فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداؤها بين الناس ، وليعلم الله الذين
آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . ولیمحص الله الذين آمنوا
ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم
ويعلم الصابرين . ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، فقد رأيتموه وأنتم
تنظرون » .

فأحس سعد كأن حملا ثقيلا قد أزيح عن صدره وشعر بالراحة تشيع في
نفسه ، وبالطمأنينة تسكن قلبه .

الفصل الخامس

عهد جديد

(اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم
الأحزاب) .

(حديث شريف)

دارت عجلة الزمن وقويت شوكة المسلمين ، ولم تخضد شوكة قريش ،
واستمرت العداوة بين الفريقين شديدة لا تلين لها قناة ، فكان القرشيون
يتربصون بالمسلمين الدوائر ، وكان المسلمون يتتبعون حركات أعدائهم
خشية أن يفاجئوهم وينالوا منهم ما ييغون ، وفي يوم قابل سعد جابر بن عبد
الله في الطريق ، فسلم عليه ، وأخذوا بأطراف الحديث ، فقال جابر :
— أبلغك ما فعله اليهود ؟

— وما فعلوه ؟

— خرج سلام بن أبي الحقيق النضري ، وهوذة بن قيس الوائلي ، وأبو
عمار الوائلي في نفر من بني النضر ، ونفر من بني وائل ، حتى قدموا على قريش
في مكة فدعواهم إلى حربنا .

— من أبلغك هذا ؟

— ترامت الأنباء إلى هنا .

— وما فعلت قريش ؟

— قال اليهود للقرشيين : إنا سنكون معكم على المسلمين حتى نستأصلهم .
فقلت قريش : يا معشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما
أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟
— بم أجابوهم ؟

— قالوا لهم : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق .
— أو قالوا ذلك ؟ إنهم لفي ضلال مبين ، ما كنت أحسب أن الحسد يبلغ
بهم هذا ، يقولون إن الذين يعبدون الأصنام أهدي من الذين آمنوا سييلا ؟
— استجابت قريش إلى هذه الدعوة وخرجت يقودها أبو سفيان .
— إذن سنقاتل قريشاً ونقتص ليوم أحد .
— مهلا . ليت الأمر اقتصر على قريش .
— وما هنالك ؟

— لم يكتفوا بتأليب قريش علينا ، بل جاءوا غطفان كذلك ودعوهم إلى
حربنا .

فطأطأ سعد رأسه ، وراح يفكر برهة ، ثم تتم :
— خطب نازل .

وانطلقا حتى إذا أتيا رسول الله وأصحابه ألفيا صمتا شاملا ، وأبصارا
شاردة ، لقد كانوا يفكرون فيما يفعلون وقد رمتهم العرب عن قوس واحدة ،
وكالبوهم من كل جانب ، وقال أحد المسلمين :
— فلنواجههم ولنقاتلهم .

فقال آخر :

— ليس هذا بالرأى ، كيف نواجه العرب ونحن قلة ؟ لن نستطيع لهم صدا .
— وماذا نفعل إذن ؟

فأطرق الجميع يفكرون فيما يفعلون ، ثم رفع سلمان الفارسي رأسه وقال :
— أرى يا رسول الله أن نضرب على المدينة خندقا ، فيصبح بيننا وبين
المشركين فلا يستطيعون اقتحامه .

فرجع المسلمون رءوسهم ، وانبسطت أساريهم ، وسرى الأمل الدفء في
صدورهم ، فقد هداهم الله إلى الرأي السديد ، وألهم سلمان ما ألهم ليحميهم
من عدو الله وعدوهم .

ونفض النبي خفيفاً ، وتناول فأساً وضرب به لحفر الخندق ، فراح
المسلمون يقتدون به ، وتناول سعد فأساً ومسحاة ، وراح بضرب الأرض
بقوة ، ويحمل التراب على عاتقه ، وتفصد العرق منه على الرغم من برودة
الجو ، فقد كان الوقت شتاء . وتصرم النهار ، وأحس بعض المسلمين التعب
يدب في أوصالهم ، والجوع يعض بطونهم ، فراحوا يختلقون الأعذار للفرار ،
وبقى سعد مع النبي لا يحفل بالتعب ولا يأبه للجوع ، فقد وجد في طاعة
الرسول راحة لنفسه ، وخوى بطنه فتناول حجراً وشده عليه ، ومالت
الشمس نحو الأفق ، ونال النصب والكلال من الرجال فتراخوا في عملهم ،
وبلغت القلوب الحناجر ، فأخذ النبي يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل
التراب :

لا هم لولا أنت ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكيناً علينا	وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا	وإن أرادوا فتنة أينا

فدب النشاط في المسلمين ، وراحوا يعملون حتى توارت الشمس في
الأفق .

وبزغت شمس اليوم التالي فاتجه سعد إلى الخندق نشيطاً واستأنف عمله ،



نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

فأخذ يضرب بفأسه ويحمل التراب وينقل الحجارة ، وسمع النبي يرتجز :
لا هم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة
فراح يردد مع المسلمين خلف النبي :

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا
وراح المسلمون يعملون في حفر الخندق ، وجلس النبي ﷺ ، تحت قبة
تركية ، فدخل عليه سلمان وهو يتصبب عرقا وقال :

— يا رسول الله ! بأبينا أنت وأمنا ، خرجت صخرة بيضاء من الخندق
مروية ، فكسرت حديدنا ، وشقت علينا حتى ما نحيك فيها قليلا أو كثيرا ،
فمرنا فيها بأمرك ، فإننا لا نحب أن نجاوز خطك .

فهبط رسول الله مع سلمان في الخندق ، فأخذ المعول منه ، فضرب
الصخرة ضربة صدعتها وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتى المدينة حتى
لكأن مصباحا أضاء في جوف بيت مظلم ، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح ،
وكبر المسلمون ، ثم ضربها الثانية فصدعها ، وبرقت منها برقة أضاءت
كالأولى ، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة فتح ، وكبر المسلمون ، ثم ضربها الثالثة
فكسرها ، وبرقت منها برقة شديدة ، فكبر النبي ﷺ تكبيرة فتح ، ثم كبر
المسلمون ، ثم أخذ بيد سلمان ففرق ، فقال سلمان :

— بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد رأيت شيئا ما رأيته قط .

فالتفت رسول الله ﷺ إلى النبي وقال :

— هل رأيتم ما يقول سلمان ؟

— نعم يا رسول الله ، بأبينا أنت وأمنا ، رأيناك تضرب فيخرج برق

كالموج ، فرأيناك تكبر فنكبر ، ولا نرى شيئا غير ذلك .

— صدقتم ، ضربت ضربتي الأولى ، أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن

كسرى كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرني جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ، ثم ضربت الثانية ، فبرق الذى رأيتم ، أضاءت لى منها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرني جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ، ثم ضربت ضربتى الثالثة فبرق منها الذى رأيتم ، أضاءت لى منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرني جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ، فأبشروا يبلغهم النصر ، وأبشروا يبلغهم النصر ، وأبشروا يبلغهم النصر .

فاستبشر المسلمون وقالوا :

— الحمد لله ، موعد صادق بار ، وعدنا النصر بعد الحصر .

وقال المنافقون والذين فى قلوبهم مرض :

— ألا تعجبون ؟ يحدثكم ويمنيكم ويعدكم الباطل ، ويخبركم أنه يبصر فى يثرب قصور الحيرة ، ومدائن كسرى ، وأنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق ، ولا تستطيعون أن تبرزوا ، وما وعدنا رسول الله إلا غرورا ! ولو اخترقت أبصارهم حجب الغيب القريب ، لأيقنوا أن ما وعدهم الله ورسوله حق وصدق ، وأن قصور الحيرة ، ومدائن كسرى ستفتح قريبا ، وسيفتحها واحد منهم يحمل التراب على عاتقه غير متبرم ، وما زاده قول الرسول إلا إيمانا وتسليما .

واستمر العمل فى الخندق ، ولما تم حفره هدأت النفوس واطمأنت القلوب ، وعسكر المسلمون فيه ينتظرون لقاء عدوهم بجنان ثابت .

وأقبلت جموع العرب لقتال المسلمين واستئصال شافتهم ، ولكنهم لما رأوا ما أعده المسلمون للقائهم أحسوا خيبة أمل . وأصبحوا فى كمد ، فما دار بخلداهم أن يفعل المسلمون هذا ، وما كان حفر الخنادق من أساليبهم فى القتال . وحاول الكفار اجتياز الخندق مرارا ، ولكن سهام المسلمين التى كانت

تصوب إليهم كانت تردهم على أعقابهم ، فلم يبق أمامهم إلا أن يضربوا الحصار على المدينة .

استمر الحصار ، وكان صناديد المسلمين يخرجون للمبارزة والقتال ثم يعودون ، وقد خرج سعد مرارا ، وبارز وطعن وقتل بين هتاف المسلمين المتصاعد : ﴿ حم ، لا ينصرون ﴾ .

وتصرم شهر ولم ينشب حرب بين الفريقين إلا رميا بالنبل والحصار ، وفي يوم دعا رسول الله على الأحزاب :

— اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم .

الليل شديد البرد ، والريح تصفر ، والمسلمون يخيمون بالخندق ، يدخلون خيامهم ، ثم تشتد الرياح فتضير صر صرا عاتية ، تقتلع خيام الكفار ، وتطرح آيتهم ، فتدب الفوضى في معسكرهم ، ويحاولون الالتجاء إلى مأوى يحميهم من غضب السماء ، ولكن يعز المأوى ، ويشتد الكرب فتضعف نفوسهم ، وتخور عزائمهم ، ويتمنون أن تكف الرياح عن زئيرها ، وأن تلتطف من ثورتها ليعودوا إلى مكة ، فلقد تحالفت الطبيعة مع المسلمين عليهم ، فماذا يستطيعون أن يفعلوا ؟ حصار لا طائل تحته ، ورياح لا قدرة لهم على الصمود في وجهها ، فليعودوا ، وإن كان الفشل في ركابتهم .

وهدأت الريح ، وهدأ معسكر الكافرين كقبر مهجور . فراح المسلمون يتساءلون : ما دهى القوم ، وما بال معسكرهم يخيم عليه السكون ؟ وقال النبي ﷺ :

— من يأتينا بخبر القوم ؟

فقال الزبير بن العوام :

— أنا .

وخرج الزبير إلى المعسكر المهجور ، فلم يجد إلا قدورا انكفأت ، وفوضى
ضاربة أطناها ، وهدوءاً يلف كل شيء ، فعاد إلى إخوانه وهتف :
— رحلوا ... رحلوا .

فشاع الفرح والسرور ، وهتف سعد مع الهاتفين :
— لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب
وحده ، فلا شيء بعده .

ومد سعد بصره إلى الأفق البعيد ، كأنما يحاول أن يمزق ببصره حجب
الغيب ليرى ما يخبئه لهم من أحداث ، فاقترب النبي منه وقال :
— الآن نغزوهم ولا يغزوننا ؛ نحن نسير إليهم .

الفصل السادس

رجل من أهل الجنة

(يا سعد إن كنت للجنة خلقت فما طال عمرك أو
حسن من عملك فهو خير لك) .
(حديث شريف)

شهد سعد المشاهد كلها مع النبي ، فكان البطل الذي لا يشق له غبار ، لا
يخشى عدواً ولا يهاب موتاً ، واشتد ساعد المسلمين ، وتوطد سلطانهم ،
وانتشر دينهم ، فباتت قريش تخشى بأسهم ، وراحت تخطب ودهم ، لتدفع
خطرهم ، فعقدت معهم صلح الحديبية ، ولكنها ما لبثت أن فجرت في عهدتها ،
فما كان من النبي إلا أن أعد جيشاً لفتح مكة ، ودفع إلى سعد إحدى رايات
المهاجرين الثلاث ، وتم الفتح المبين ، والنصر العظيم ، فدخل سعد مكة في
رابعة النهار ، رافع الرأس ، منشرح الصدر ، مطمئن الفؤاد بعد أن خرج منها
طريداً ، معذباً ، مطأطئ الرأس ، دامع العين ، يتستر بالليل .
دخل سعد مكة الوطن الحبيب ، مهوى الفؤاد ، فأسرع إلى داره ليضم إلى
صدره أهله وخلاته ، ليطفىء نار الشوق ، وليمتع العين برؤية الأحبة الذين طال
البعد عنهم .

فرح المسلمون المهاجرون لعودتهم إلى ديارهم ، وفرح النبي بفتح الله
المبين ويتحطم الأصنام المنصوبة في جوف الكعبة ، وأوجس الأنصار خيفة أن

يتركهم الرسول ويبقى بين أهله وعشيرته ، وراحوا يتهايمسون ويسأل بعضهم بعضا : « أترون رسول الله إذ فتح الله عليه أرضه وبلده لمقيم بها ؟ » ، وبلغ هذا التهامس رسول الله ، فجمعهم وقال لهم : « معاذ الله ! المحيا محياكم ، والممات مماتكم » .

وعلم سعد أن رسول الله ﷺ سيعود إلى يثرب ، فلم يفكر لحظة في ترك النبي والبقاء في داره بين أهله وأصحابه ، بل عقد العزم على مصاحبته ، فما مكة ! وما الأهل والصحاب ، إن كان بعيداً عن النبي الحبيب !؟ وعاد المهاجرون إلى يثرب واستأنفوا حياتهم ، وفي يوم جلس النبي وأنس ابن مالك ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأناس آخرون ، وأخذوا بأطراف الحديث ، وأقبل سعد فانضم إليهم ، ثم قام النبي والتفت عبد الله بن عمرو إلى سعد وقال :

— إني غاضبت أئى فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاث ليال ، فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى يحل يمينى فعلت .
فقال سعد :

— على الرحب والسعة .

واستأنفوا حديثهم حتى خيم الظلام ، فصحب سعد عبد الله وعادا إلى الدار ، ونام سعد وبات عبد الله معه ، ولكن لم تغمض له عين ، وراح يرقب سعدا ويعد حركاته وسكناته ، فألفاه يغط في نومه ، لا يقوم ليله ، ولكنه كان إذا ما تقلب في فراشه ذكر الله وكبر ، وانقضى الليل ، وقام سعد مع الفجر ، وأسبغ الوضوء ثم صلى المكتوبة وأصبح مفطرا ، فاستأذن عبد الله وانصرف وهو يعجب من أمر سعد . وفي الليلة الثانية نام عبد الله معه واستأنف مراقبته ، فلم يجده يفعل أكثر مما فعل في الليلة الأولى ، فانصرف وقد ازداد عجبه ،

(سعد بن أبى وقاص)

ومرت الليلة الثالثة كما مرت سابقتها ، فالتفت عبد الله بن عمرو إلى سعد وقال له :

— لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر ، ولكني سمعت رسول الله قال ثلاث مرات في مجالس ثلاثة : « يطلع عليكم رجل من أهل الجنة » فطلعت أنت أولئك المرات الثلاث ؛ فأردت أن آوى إليك حتى أنظر ما عملك ، فأقتدى بك لأنال ما نلت ، فلم أرك تعمل كثير عمل .. ما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ؟

فقال سعد :

— ما هو إلا الذي رأيت .

فأدار عبد الله ظهره ، وهم بالانصراف ، وهو يحتقر عمل سعد فدعا به حين ولى وقال :

— ما هو إلا ما رأيت ، غير أنى لا أجد في نفسى سوءا لأحد من المسلمين ، ولا أنوى له شرا ، ولا أقوله .

— هذه التى بلغت بك ، وهى التى لا أطيق .

ونخرج سعد وعبد الله إلى المسجد فألفيا رسول الله وبعض أصحابه جالسين فجلسا ، وأخذ النبي يذكرهم بيوم الوعيد ، ويرققهم ، فبان على سعد التأثر ، واستمر النبي في حديثه ، فترقق الدمع في عيني سعد ، ثم بكى وأكثر البكاء ، وقال بصوت متهدج :

— ليتنى مت .

فقال رسول الله ﷺ :

— « يا سعد إن كنت للجنة خلقت ، فما طال عمرك أو حسن من عملك

فهو خير لك » .

الفصل السابع

الحج

(إن تدر ذريتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة
يتكفون الناس).

(حديث شريف)

أذن النبي بالحج ، فأقبلت الوفود على المدينة أفواجا من كل فج عميق ، وضربت الخيام حول المدينة لمائة ألف أو يريدون ينتظرون الانطلاق مع الرسول إلى بيت الله العتيق ، ليؤدوا مناسك الحج كاملة . وفي الخامس والعشرين من ذى القعدة من السنة العاشرة للهجرة ، تجهز الناس للرحيل ، وأقبل سعد ابن أبي وقاص وزوجته وابنته ، وراحوا ينتظرون مع الناس حضور النبي ، واستوت الشمس في كبد السماء ، فأقبل الرسول الكريم ومعه نساؤه جميعا كل في محفتها ، ثم أذن بلال فأم النبي القوم وصلى الظهر أربعاً ، ولما قضيت الصلاة ركب ناقته القصواء وانطلق ، فانطلق الناس خلفه ، وتلفت سعد حوله فرأى جمعا زاخراً ملاً عينه ، وغمر قلبه ، وخلب فكره ، وبهر لبه ، فتذكر يوم خرجوا مضطهدين متسللين ووجوههم بواسر ، ورأى كيف يتجهون اليوم إلى مكة عزيزى الجانب ، باسمى الثغور ، مشرق الوجوه ، فشكر ربه ، الذى أيدهم ونصرهم ، فصدق وعده .

وبلغ الحجيح وادى العقيق فنزلوا بذى الحليفة ، وصلوا بها العصر راكعين

خلف النبي ، ثم راحوا يتأهبون لقضاء ليلتهم بها ، وانقضى الليل ، ولاحت في الأفق البعيد تباشير الصباح ، فنهض سعد واتجه إلى النبي فسمعه يقول : أتاني الليلة آت من ربي ، فقال : صل في هذا الوادي المبارك وقل عمرة وحج . وقضيت الصلاة ، وركب النبي حتى استوت به راحلته على البداء ، فالتفت إلى الناس وقال :

— جاءني جبريل فقال : يا محمد ، مر أصحابك فليرفعوا أصواتهم بالتلبية فإنها شعار الحج .
ونادى محمد ملياً .

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إن الحمد والنعمة لك ، والمملك لك ، لا شريك لك .

فارتفعت أصوات المسلمين بالتلبية خلفه ، وتجاوب الفضاء بالنداء ، وراح الكون يناجى ربه . واستمر موكب المسلمين ، حتى بانت أرباض مكة ، فراح الموكب يغد في السير ليدخل أم القرى وليطوف بالبيت العتيق . وأحس سعد ألماً في رأسه ، ولكنه كان في غمرة حماسة يهتف من كل قلبه « لبيك اللهم لبيك » فنسى ألمه . وفي اليوم الرابع من ذى الحجة دخل المسلمون مكة ، فاتجهوا إلى الكعبة ، واستلم سعد الحجر الأسود وقبله ، ثم أخذ يطوف بالبيت وراح يهرول ولكنه أحس بألم رأسه يشتد ، وانتهى الطواف فأحس بخدر وبساقيه لا تقويان على حمله ، ولكنه تجلد وخرج خلف النبي من الباب إلى الصفا ، فسمع النبي يقرأ : (إن الصفا والمروة من شعائر الإسلام) ابدأ بما بدأ الله به ، فبدأ سعد بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة وهتف :

— لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل

شيء قدير . لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ثم نزل حتى إذا انصببت قدماه في الوادي رمل ، حتى إذا صعد مشى ، فلما أتى المروة ورقى عليها سمع النبي يهتف :

— اسعوا إن الله كتب عليكم السعى .

ونظر سعد إلى البيت ، فرأى دنيا تتراقص ، وأحس كأن الأرض تميد به ، فأغمض عينيه وطأ طأ رأسه وراح يلتقط أنفاسه ، وبقي على ذلك مدة ، ثم اتجه إلى خيمته وتمدد ، وطاف به ملاك النوم فراح في سبات عميق .

وفي يوم التروية تحرك الحجاج إلى منى ، وذهب سعد معهم وقد نال منه المرض ، ثم نزل خيمته ينتظر يوم الحج ، وطلع فجر اليوم المرقوب ، فخرج إلى عرفات وراح يرتقى الجبل ويهتف بصوت خفيض بتلاشي بين أصوات التلبية المدوية : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك » .

وانقضى النهار في دعاء ، ومالت الشمس نحو المغرب ، ولما ابتلعها الأفق البعيد امتطى رسول الله ناقته القصواء ثم سار حتى أتى بطن الوادي ، فخطب بخطبة الوداع ، ثم نزل عن ناقته ، وأقام حتى صلى الظهر والعصر ، ثم ركبها حتى بلغ الصخرات ، وتلا النبي الحبيب على الناس : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ .

أتم سعد مناسك الحج الأكبر ، وقد نال منه المرض كل منال ، فاتجه إلى داره محموماً ، وثقل عليه المرض حتى أشفى على الموت ، وأقبل النبي يعودده ، ففتح سعد عينيه ، فلما رأى النبي همس :

— يا رسول الله ، بلغني من الوجد ما ترى ، وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة لي واحدة ، أفأتصدق بثلثي مالي ؟

— لا .

— أفأتصدق بشطره ؟

— لا . الثالث يا سعد ، والثالث كثير ، إنك إن تذر ذريتك أغنياء خير من أن تذرهم عائلة يتكففون الناس . وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها ، حتى اللقمة التي تضعها في فم امرأتك .

وصمت النبي ﷺ قليلا ثم قال :

— اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ، ولا تردهم على أعقابهم ، لكن البائس سعد بن خولة يرثي له رسول الله إن مات بمكة .

ووضع النبي يده على جبهة سعد ، فمسح وجهه وصدره وبطنه وقال :
— اللهم اشف سعدا وأتم له هجرته .

الفصل الثامن

وفاة الرسول

﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل
أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على
عقبه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين ﴾ .
(قرآن كريم)

أبل سعد من مرضه ، وسمع لغطا وجلبة في الخارج ، فنهض وخرج لينظر ما
هناك ، فألفى مكة تغص بالناس ، وكل قبيلة تتأهب للانطلاق إلى ديارها ،
فانطلق يجيل الطرف فيما حوله ينقب عن الرسول وصحبه ، فوجده يتأهب
للعودة إلى يثرب ، فسلم عليه ، وبان السرور في وجه النبي لإبلاله ، ثم عاد
سعد إلى داره ، وحمل زوجته وابنته وانضم إلى إخوانه المنطلقين إلى يثرب .
عاد سعد إلى يثرب واستأنف حياته بها ، وفي يوم بلغ الدار فعلم أن زوجته
قد جاءها المخاض ، وأن بعض النساء عندها ، فراح يقطع الغرفة ذهابا ورجوعا ،
وتصرم الوقت ، وارتفع صياح المولود فهز أوتار قلبه ، وأسرع يستفسر فعلم
أن الله قد رزقه مولودا ، فحمد الله وسماه عمر .

وخرج سعد فرحان ، ولكن لم يدم فرحه ، فقد علم أن النبي مرض ،
فخشى عليه لأنه لم يشك مرضا قبل اليوم ، وذهب ليستفسر عنه ، فقابل مولاه
أبا مويهبة فسأله :

— كيف حال الرسول ؟

— أرق الليلة .

— وما فعل ؟

— خرج يسير حول المدينة .

— وأين ذهب ؟

— إلى مقابر المسلمين .

— وما فعل هناك ؟

— استغفر لأهل المقابر ...

ودخل سعد على النبي فآلفى الحمى قد ازدادت به ، فأطرق مكتئبا ، وخرج حزينا وقد أفلقتة الهواجس ، وراحت الأفكار تتزاحم في رأسه ، واحتلت واحدة فكره : أيقضى الرسول كما يقضى الناس ، وحاول أن يطرد هذه الفكرة البغيضة التي سيطرت عليه وأفلقتة ، فكان كلما طردها من ذهنه عادت إليه ، فتعوذ بالله من الشيطان ، وراح يقرأ ما تيسر من القرآن فهدأت نفسه ، واطمأن قلبه .

مرت أيام والنبي في داره لا يخرج إلا للصلاة بالناس ، وفي يوم خرج إليهم معصوب الرأس ، واتجه إلى المنبر وجلس عليه ، وحمد الله ثم صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم ، وأكثر من الصلاة عليهم ، ثم قال : (أيها الناس أنفذوا جيش أسامة ، إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبله . وأيم الله إنه كان خليقا بالإمارة ، وأيم الله إنه لمن أحب الناس إلى بعده) وصمت النبي ، فخيم السكون على المكان حتى لم يعد يسمع فيه لاغية ، ثم استأنف النبي حديثه فقال : (إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده ، فاختر ما عند الله) . وصمت النبي ثانية وصمت الناس ، ولكن أبا بكر أحس



وامتنع خروج النبي إلى المسجد

أن النبي ينعى إليهم نفسه ، فبكى وقال : (بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا يا رسول الله) . وراح النبي يوصي المهاجرين بالأنصار ، ثم دخل بيت عائشة وقد ازدادت عليه وطأة المرض بعد ذلك المجهود الذي بذله وهو مريض ، وقد أهرق عليه سبع قرب من ماء قبل أن يخرج إلى الناس .

وامتنع خروج النبي إلى المسجد ، وراح سعد يستفسر عنه كل يوم ، وفي يوم من الأيام ، وقف المسلمون خلف أبي بكر لصلاة الصبح ولحقوا النبي مقبلا معتمدا على علي بن أبي طالب والفضل بن العباس ، ففرحوا لرؤيته ، وسرى السرور بينهم لإبلال نبيهم من مرضه ، وأحس أبو بكر حركة بين الصفوف ، فعلم أن النبي قد أقبل ، فنكص عن مصلاه ليخليه لرسول الله ، ولكن النبي دفعه في ظهره وجلس عن يمينه وصلى قاعدا .

وقضيت الصلاة فأسرع سعد إلى النبي ، وقد شاع البشر في وجهه ، وانجفل الناس إليه والسرور يهزهم ، والفرح يكتنفهم ، وعاد النبي إلى داره وانصرف الناس إلى شئونهم والغبطة تملأ قلوبهم ، وانطلق سعد إلى داره مسرورا .

لم يدم فرح سعد كثيرا ، فما كاد يستقر في داره حتى بلغه الخبر الفاجع ، والرزاء الفادح ؛ بلغه أن رسول الله قضى ، فما صدق الناعي ، وأسرع إلى المسجد يتنازعه الرجاء واليأس ، ولما اقترب منه سمع بكاء ونحيبا ، فأحس كأن قلبه يغوص ، ودخل المسجد فألقى المسلمين يمجون بعضهم في بعض فراح يسأل :

— « أ مات رسول الله حقا ؟ » وما كان في حاجة إلى أن يسأل أو ينتظر جوابا ، فقد كان الجميع يبكون ، فظهر الجزع عليه ، وأحس رغبة في البكاء ، ولكن تحجر الدمع في عينيه ، وجثم الحزن على صدره فضاقت أنفاسه ، وأحس

جفافا في حلقه ، وأخذ يلقط أنفاسا متلاحقة ، وأجال بصره الشارد في المسجد فرأى عمر يجهش بالبكاء ويتحب بصوت عال ، فاتجه إليه وتلاقت العيون ، فغامت عينا سعد بالدمع ، ثم انهمر غزيرا ، وراح سعد ينشج بصوت مرتفع .

تم جهاز الرسول ، ووضع على سريره ، وفتحت الأبواب للمسلمين ليدخلوا من ناحية المسجد ليلقوا على نبيهم الكريم نظرة الوداع الأخيرة ، فدخل الرجال وقد غشى وجوههم الأظلام ، وارتسم عليها الأسى والحزن العميق . ودخل سعد بوجه باسر ، مطأطئ الرأس ، كسير القلب ، ولما وقع نظره على النبي المسجى في فراشه ، ترقق الدمع في عينيه ، ووقف يصلى عليه في خشوع . وساد المكان صمت رهيب ، ولما أتم أبو بكر الصلاة على النبي ، قال بصوت خفيض حزين :

— نشهد أن نبي الله ورسوله قد بلغ رسالة ربه ، وجاهد في سبيله حتى أتم الله النصر لدينه .

فرد المسلمون عليه :

— آمين .

— وأنه وفى بوعدده .

— آمين .

— وأمر ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له .

— آمين .

وصمت أبو بكر فخيم السكون ، ثم أخذ الرجال ينصرفون ، وفي نفوسهم حزن ثقیل ، فهذا آخر عهدهم بالنبي الكريم ، الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور ، وهداهم سواء السبيل .

الفصل التاسع

مانعو الزكاة

« والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه » .

(أبو بكر)

انفض كبار الصحابة من عند أبي بكر خليفة رسول الله ، لما عسعس الليل ، وهجع السكون ، وانطلق سعد إلى داره ، وفي الطريق أطلق لخياله العنان ، فأخذت حوادث الأيام الأخيرة تمر أمامه متتابعة متلاحقة ، فهذه وفود القبائل مقبلة كالبحر الزاخر ، بعد أن بلغها موت النبي . وها هي تقابل خليفة رسول الله ، وتعرض عليه أن يقيموا الصلاة وألا يؤتوا الزكاة . وها هم كبار الصحابة يطلبون منه أن يتألف القوم ، وألا يثيرهم عليه ، حتى لا يميلوا على المدينة ، وينقضوا عليها ، وليس بها من يذب عنها ، وقد خرج جل المسلمين في جيش أسامة ، المنطلق إلى بلاد قضاة . وها هو أبو بكر يرفض هذا العرض الذليل ، ويقول القول الفصل : « والله لو منعوني عناقا (عنزا) كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه » وها هي الوفود تعود إلى باعثيها ، وقد بان الغدر في وجوههم ، وغمغم سعد : « ترى ما نفعل لو انقضت هذه الأقوام علينا ، وليس بالمدينة من يحميها ؟ » واستمر في تفكره حتى بلغ داره فدخلها وأفكاره معه ، وأخذ يبدى ويعيد حتى غلبه النوم فأراحه .

ولما تجلى الصبح ، أقبل رجل على سعد يخبره أن أبا بكر يدعو إليه ، فأسرع بالخروج ، حتى إذا ما أتاه ألفى عليا ، والزبير ، وطلحة ، وعبد الله بن مسعود عنده ، فانضم إليهم ، وراحوا يتذاكرون ما كان من أمر الوفود ، فقال أبو بكر : — إن الأرض كافرة ، وقد رأى وفدهم قلة ، وإنكم لا تدرون أليلا تؤتون أم نهارا ، وأدناهم منكم على بريد ، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم ، وقد أبينا عليهم ، ونبذنا عهدهم ، فاستعدوا وأعدوا .

وخرج المسلمون يستعدون للذود عن مدينة الرسول ، فلبسوا عدة القتال . وخرج علي ، والزبير ، وسعد ، وطلحة ، وعبد الله بن مسعود ، ونفر من المسلمين لحماية مشارف المدينة ، وبقي باقي المسلمين في المسجد مدججين بالسلاح ، على استعداد للقتال إذا فكر أحد في مدهمتهم .

مر يوم ، واثنان ، وثلاثة ؛ وعلي ، وطلحة ، وسعد وأصحابهم عند مداخل المدينة ساهرون ، يرسلون العسس مستطلعين . وما كادت شمس اليوم الثالث تغيب ، حتى أقبل بعض العسس مهطعين معلنين أن القبائل المجاورة قد تحركت قاصدة المدينة ، فبعث علي وسعد والزبير إلى أبي بكر رسولا ينبئه بالخبر ، فأجابهم أن ألزموا أماكنكم .

استل سعد سيفه ، ووقف كالأسد متحفزا للوثوب ، ومد بصره إلى الأفق مستطلعا ، ولكن الليل كان حالكا ، فما كان بصره ليخترق طيات الظلام المتراكمة بعضها فوق بعض ، فأصاخ السمع فلم يبلغ أذنيه إلا صوت النسيم السارى في سكون الليل ، فقد كان الكون نائما ، ولم يك هناك من يقظان إلا هؤلاء البواسل الذين هبوا للذب عن حياضهم . وأرهفت منه الحواس جميعا ، إن القوم لمقبلون لإرغامهم على التجاوز عن فرض من فروض الإسلام ، ولكن هيهات ، فقد عقدوا العزم على منافحة من توسوس لهم نفوسهم بالهجوم

عليهم ، بل لقد عزموا على أن يقاتلوهم حتى يرغموهم على أن يؤتوا الزكاة عن يد وهم صاغرون .

وصك أذن سعد رغاء إبل ، فتلفت حوله ، فرأى جموعا مقبلة من المدينة ، فأسرع نحوها فإذا أبو بكر في أهل المسجد على الإبل قد نفروا للذود عن مهجر الرسول .

واجتمع كبار الصحابة ، وتشاوروا في الأمر ، فرأى أبو بكر مفاجأة العدو في غسق الليل ، وأنخذه على غرة منه . فامتطى المسلمون رواحلهم ، وراحوا يضربون في جوف الليل البهيم ، حتى بلغوا معسكر الأعداء ، فانقضوا عليهم ، فأخذوا وولوا الأدبار . فاقتفى المسلمون أثرهم حتى ذا حسا ، وكان الأعداء قد تركوا هناك مددا من الرجال ليشد أزهرهم عند الحاجة ، فانضم المدد إلى فلول الفارين ، ووقفوا في وجه المسلمين المغيرين . وراح سعد يضرب في عماية الليل ، ويشد على الأعداء . ودار القتال شديدا رهيبا ، وأحس سعد راحلته تجفل ، فشذ زمامها ووجهها صوب العدو ، فإذا بها تجفل ثانية ؛ وكان كلما حاول أن يندفع بها جفلت . ترى ما دهاها ؟ . جاء الأعداء بأوعية من جلود نفخوها وربطوها بالحبال ، وضربوها بأرجلهم في وجوه إبل أهل المدينة ، فنفرت الإبل ، واستمرت في ارتدادها حتى دخلت يثرب .

نام الأعداء تلك الليلة ملء الجفون ، ولم لا ينامون مطمئنين بعد أن لاح لهم النصر ، وأمسى الفوز في ركا بهم ، فما هو إلا أن تبرغ الشمس ، حتى يميلوا على المدينة بأسيا فهم ، ويرغموا أهلها على التسليم لهم بعدم إيتاء الزكاة .

أما المسلمون أهل يثرب ، فلم يذوقوا للنوم طعما ، وراحوا يتأهبون لمعاودة الهجوم قبل أن يتنفس الصبح . فلما كان الثلث الأخير من الليل ، خرجوا متسللين دون أن يسمع لهم زكر ، وبلغوا الأعداء مع الفجر ،

فداهموهم وأعملوا سيوفهم فيهم ، فهبوا من نومهم مذعورين ، يدافعون عن أنفسهم ، ولكن المنايا أطلت من أسياف أهل يثرب فراحت تحصدهم حصدا ، فلم يسع القوم إلا الفرار مدحورين مهزومين .

جاء المسلمون بعد هذا النصر من مختلف القبائل إلى المدينة يحملون الزكاة ، وفي هذه الأثناء عاد جيش أسامة مظفرا منتصرا ، فشد أزر أهل يثرب ، فرأى أبو بكر محاربة الذين ارتدوا بعد موت النبي ، فعقد أحد عشر لواء لقتال المرتدين ؛ فخرجت جيوش المسلمين لقتال مدعى النبوة وأتباعهم ، ولفع الراية الإسلامية على بلاد العرب جميعا ، كما كانت مرفوعة موفورة الكرامة قبل موت الرسول .

الفصل العاشر

المثنى بن حارثة الشيباني

﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ .
(قرآن كريم)

دارت المعارك بين المسلمين والمرتدين ، وكان المسلمون ينتقلون من ظفر إلى ظفر ، وكادت حركة المرتدين يقضى عليها ، وفي يوم جلس أبو بكر وعمر وسعد وعلي وكبار الصحابة في المسجد ، وأقبل رجل عليهم ، وأخذ يقص عليهم ما فعله العلاء بن الحضرمي في مقاتلة المرتدين في البحرين ، وكيف انضم إليه المثنى بن حارثة ، وكيف سار المثنى شمالا ، حتى وضع يده على القطيف وهجر ، وأنه بلغ مصب دجلة والفرات^(١) ، وراح الرجل يقص عن المثنى الشيء الكثير ، فسأل أبو بكر :

— ومن هو المثنى هذا ؟

فقال أحد الحاضرين :

— هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد ،

هذا المثنى بن حارثة الشيباني !

— ومن أى قبيلة هو ؟

(١) ذكرت هذه الحوادث وما بعدها تمهيدا للقادسية .

— من بنى بكر بن وائل .

وراح أبو بكر يتأمل فيما سمع ، إن معنى سير المثنى حتى الفرات مناجزة
الفرس ومن يدري ؟ لعل في ذلك خيرا للإسلام ، ولعل في ذلك انصراف
المسلمين عن ثاراتهم الأولى وثورتهم بسلطان المدينة ، واستمر أبو بكر في
تفكيره وتأمله حتى قدم المثنى إلى المدينة ، وقابل خليفة رسول الله ، وراح
يقص عليه ما تلاقيه قبائل العرب التي نزلت بدلتا الدجلة والفرات من ظلم
وجور الدهاقين ، وإن هذا الظلم يجعلهم كمرجل يغلى بالملت لهم ، فإذا ما
هاجم المسلمون العراق ، ثار العرب النازلين به للتخلص من جور الدهاقين ،
فكانوا عوناً للمسلمين ، واستمر المثنى يدلى بحججه ، فأطرق أبو بكر ساعة ،
وساد الصمت بين الرجلين ، وأخيرا قال المثنى :

— أمرني على من قبلي من قومي أقابل من يليني من أهل فارس وأكفك
ناحيتي .

— سأشاور أصحابي في الأمر .

وأرسل أبو بكر إلى عمر وعلي وعثمان وسعد والزبير وكبار الصحابة
يدعوهم إليه ، فلما التأم عقدهم ، دارت قداح الرأي بينهم ، فأروا جميعا
ضرورة استشارة خالد في الأمر ، فبعث أبو بكر إليه رسولا ، فجاء على
عجل ، ولما عرف ما جاء المثنى فيه ، رأى ضرورة أن يعد الخليفة للحرب
عدتها ، وأن يعتبر ما قام به المثنى من قبل طليعة فتح يلقي إليه المسلمون
بأجنادهم .

أمر أبو بكر المثنى على من قبله ، وراح المثنى يحارب الفرس ، يناجزهم على
العراق ، وجعل الفرس يجمعون الجموع ، وخشى أبو بكر أن ينتصروا على
المثنى فأرسل إلى خالد ومن معه من المهاجرين والأنصار ، أن يسيروا إلى

(سعد بن أبي وقاص)

العراق لنجدة المثنى ، فانطلق خالد ومعه عشرة آلاف مقاتل من اليمامة إلى العراق ، فلما بلغ حدوده ألفى المثنى في انتظاره ، فقسم الجيش إلى ثلاث فرق ، انطلقت كل فرقة في طريق ، على أن يلتقوا جميعا بالحفير .

دارت معارك رهيبة بين جيوش خالد وجيوش الفرس ، انتصر فيها المسلمون انتصارا مبينا ، فزادت حميتهم ، وراح الفرس يتقهقرون والمثنى يجد في أثرهم معللا النفس بدخول المدائن عاصمة دولتهم ، وفيما هو يتعقبهم إذ بلغته الأنباء بأن جيشا عظيما من الفرس قد خرج من المدائن لملاقاة خالد ، فكتب إلى خالد بهذا ، ورأى من الحكمة ألا يقابل هذه القوة الهائلة ، فأنحرف بجيشه ونزل بالمدار ينتظر قضاء الله . أقبلت جيوش الفرس ، ورأت جيوش المثنى ، فوجدت الفرصة سانحة لغسل ما لحقها من عار الاندحار ، ها هي جيوش المسلمين في قبضتهم ، هجوم واحد ثم ينتهى كل شيء ، وشنوا هجومهم ، وقبل أن تدور المعركة ، ظهرت جند خالد مهللة مكبرة ، فشد ذلك من أزر المثنى وجنوده ، فانقلبوا أسودا كواسر ، ودارت رحى معركة شديدة فغرت فيها المنايا أفواهاها ، وأطاحت رعوس الفرس ، وانجلت المعركة عن نصر مبين للمسلمين .

تقدمت جيوش المسلمين . وأخذت البلاد تسقط في أيديهم بلدا بعد آخر ، وفي يوم جاء أمر الخليفة إلى خالد بالتوجه إلى الشام ، فخرج المثنى لتوديعه ، ثم عاد إلى الحيرة لينظم الدفاع عن البلاد التي فتحها المسلمون بما بقى له من قوات بعد الذين ارتحلوا مع خالد .

علم الفرس بسفر خالد فحسبوها فرصة سانحة للقضاء على المثنى ومن معه ، فوجهوا جاذويه في عشرة آلاف لمحاربته ، فلما ترامت الأنباء إلى المثنى خرج لملاقاة العدو ، وبينما كان في الطريق إذ وصلتته رسالة من شهر بازان

عاهل الفرس يقول له فيها : « إني قد بعثت إليك جندا من أهل فارس ، وإنما هم رعاة الدجاج والخنازير ، ولست أقاتلك إلا بهم » . فرد على هذه الرسالة مع نفس الرسول برسالة جاء فيها : « من المثني إلى شهربازان ، إنما أنت أحد رحلين ، إما باغ فذلك شر لك وخير لنا ، وإما كاذب فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله وفي الناس الملوك ، وأما الذي يدلنا عليه الرأي فإنكم إنما اضطررتم إليهم ، فالحمد لله الذي رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير » .

نزل المثني على خمسين ميلا من المدائن ، وأقبل جاذويه وجنده يتقدمهم الفيل ، وراح الفريقان يتأهبان للنزال وابتدأت المعركة ، فأخذ الفيل يضرب المسلمين بخرطوميه فيفرق صفوفهم ، فرأى المثني ضرورة القضاء على الفيل ، فشد وجماعة من رجاله عليه وجعلوا يطعنونه حتى أردوه قتيلا ، ثم شددوا النكير على الفرس ، واشتد الطعن والقتال ، فمزقوهم شر ممزق ، وحاقت الهزيمة بالفرس ففروا والمسلمون يتبعونهم ، حتى وقفوا على أبواب المدائن يطرقون بابها .

بلغت أنباء الهزيمة الماحقة شهربازان ، فمات كمدا ، ووقفت جيوش المسلمين على أبواب المدائن ، وفكر المثني في أمره ، أيهجم على المدائن بما معه من الجند ؟ إن نفسه لتصبو إلى فتحها ، ولكن فتحها بمن معه فقط ضرب من المحال ، فرأى أن يطلب من خليفة رسول الله مددا يعينه عليها ، فكتب إليه يخبره بانتصاراته ، وب حاجته إلى مدد يعاونه على فتح المدائن ، وطال انتظاره ، وأبطأ رد الخليفة ، وترامت الأنباء إليه أن أهل فارس قد اختلفوا فيمن يولونه خلفا لعاهلهم ، وأخيرا أجمعوا أمرهم على تولية دخت زنان ابنته ، فتولت الملك ، ولكن لم يسمع لها ، ولم ينفذ لها أمر ، فتآمروا عليها وخلعوها ، وتولى سابور بن شهربازان الملك ، ولكنه كان حدثا فقام بأمره الفرخزاد ، وتقدم

الفرخزاد إلى سابور يسأله أن يزوجه آزر ميدخت ابنة كسرى ، فقبل ولكن آزر ميدخت رأت في هذا امتها لكرامتها ، فقالت لسابور :
« يا بن عمى : أتزوجنى عبدى ؟ » فقال لها : « لا تقولى هذا إنه زوجك »
فكتمتها فى نفسها وبعثت إلى بعض أعوانها ودبرت معهم أمرا ، وفى ليلة العرس تم ما دبرت ، فقتل العريس الفرخزاد ، وتملكت آزر ميدخت . علم المثنى كل هذا فتيقن أن الفرصة مواتية لفتح المدائن ، فأسرع إلى المدينة لمقابلة الصديق وإقناعه بضرورة إرسال مدد له ليتم للمسلمين وضع يدهم على حاضرة الدولة العظيمة .

راح المثنى يجد فى السير ، حتى بلغ المدينة ، وعلم أن خليفة رسول الله مريض ، وأنه قد أشرف على الموت ، فلم يشنه ذلك عن عزمه ، بل طلب الإذن بالدخول . فأذن له ، ولما دخل راح يقص على أبى بكر الممدد فى فراشه ما فعله مع الفرس ، وكيف أن الفرس مختلفون فيما بينهم ، وأن فى هذا الاختلاف فرصة طيبة للمسلمين ، واستمر يدافع عن رأيه حتى اقتنع أبو بكر ، فأرسل إلى عمر ، فلما جاء قال له : « اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به ، إنى لأرجو أن أموت فى يومى هذا ، فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ، ولا تشغلکم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم » .

ومات أبو بكر . وفى صبيحة الليلة التى قبر فيها . وقف عمر ينتدب الناس لقصد العراق ، فلم ينتدب له أحد ، فقد كان المسلمون يخشون فارس لشدة سلطانهم وشوكتهم وقهرهم الممالك ، وتصرم اليوم الأول ، وأقبل اليوم الثانى من خلافة عمر ، ووقف ينتدب الناس فلم يتقدم أحد ، وفى اليوم الثالث قام

المثنى مهونا على المسلمين أمر الفرس : « أيها الناس ، لا يعظمن عليكم هذا الوجه فأنا قد تبجحنا ريف فارس ، وغلبناهم على خير شقى السواد ، وشاطرناهم ، ونلنا منهم ، واجترأ ما قبلنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها » .
وقام عمر يخطب الناس : « إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك ، سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ والله مظهر دينه ، ومعز ناصره ، ومولى أهله مواريث الأمم . أين عباد الله الصالحون ؟

وتلفت المسلمون بعضهم إلى بعض ، وتقدم أبو عبيد بن مسعود الثقفي ، فلما رأى سعد بن عبيد ذلك تقدم هو الآخر ، ورأى سليط بن قيس تقدم أبي عبيد وسعد بن عبيد فتقدم ، فسرت موجة حماسة بين الموجودين ، فراحوا ينضمون إلى المسلمين الخارجين لملاقاة فارس .

اجتمع كبار المهاجرين والأنصار بعمر وقالوا له :
— أمر عليهم رجلا من المهاجرين أو من الأنصار .

فأبى عمر وقال :

— إن من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء أولى بالرياسة .
وأمر أبا عبيد الثقفي على الجيش ، والتفت إلى سعد بن أبي وقاص وأمره أن يستعد للخروج إلى هوازن لجمع الزكاة والعشور .

استعد الجيش للخروج ، واستعد سعد للانطلاق إلى هوازن ، وخرج مع عمر لتوديع الجيش ، ولما بلغا مكان الجيش التفت عمر إلى أبي عبيد وقال :
— اسمع من أصحاب النبي ﷺ ، وأشر كههم في الأمر ، ولا تجتهد مسرعا

حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي لا يعرف الفرصة والكف ، ولم يمنعني أو أؤمر سليطا إلا سرعته إلى الحرب ، وفي التسرع إلى الحرب ضياع إلا عن بيان ، والله لولا سرعته لأمرته ، ولكن الحرب لا يصلحها إلا المكيث .

وتحرك الجيش في رعاية الله ، وخرج من المدينة قاصدا الفرس لإعلاء كلمة الحق ، وفي نفس الوقت خرج سعد لجمع أموال هوازن ، وما دار يخلده أبدا أن القدر قد ربط بينه وبين الجيش الخارج بأوثق رباط .

الفصل الحادى عشر

موقعة الجسر

﴿ ومن يؤلم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو
متحيزا إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، وماؤاهم جهنم
وبئس المصير ﴾ .

(قرآن كريم)

انطلق جيش المسلمين يقطع الفياض والقفار ، قاصدا العراق ، وسار المثنى
بجيوشه حتى بلغ الخيرة ، فانتظر هناك ، وترامت الأنباء إليه أن أمر فارس قد
استقر لبوران ، وأنها أرسلت إلى رستم واستدعته من خراسان ، وجعلت إليه
حماية البلاد ، وسلمته قيادة الجيوش ، فكتب رستم إلى الدهاقين أن يثوروا ،
وبلغ المثنى أن رستم بعث جندا لقتاله ، فجمع مسالحه ، واجتمع إليه
المسلمون ، فانطلق بهم إلى نخقان ، وأرسل إلى أبى عبيد ليوافيه هناك ، والتأم
جمع المسلمين ، وتأهبوا لملاقاة الفرس .

ثار من الدهاقين أول من ثار جابان فى فرات بادرلى ، فانطلق إليه جيش
المسلمين ، والتقى الجمعان فى الثمارق ، فدارت رحى معركة شديدة ، وكبر
المسلمون ، فزلزلت الأرض ، وصالوا وجالوا ، فكانت رءوس الفرس تطيح ،
وكأنما كانت ثمارا أينعت وحن قطافها ، ورأى جابان ما حل بجيشه فثبت فى
الميدان ، وراح يحث جنوده على الثبات ، ولكن هيهات ، فقد كان الواحد منهم

يسقط مجندلا إثر الآخر تحت ضربات المسلمين ، وراح جابان يذب عن نفسه ، حتى أعياه التعب فوقع أسيرا ، وجيء به إلى أبي عبيد ، فنظر إليه فألفاه في ملابس فاخرة ، فراح يتفحصه ، فقال أحد الجنود :
— إنه الملك .

وقال ثان :

— لا بد من ضرب عنقه ، فقد ألب القوم علينا .

وقال ثالث :

— ليقتلن .

فتقدم أحد الجنود وقال :

— إني أمنتها أيها الأمير .

فقال بعض الواقفين في ثورة وغضب :

— ليقتلن ، لقد أثار القوم علينا .

فأطرق أبو عبيد ساعة ثم رفع رأسه وقال :

— إني أخاف أن أقتله وقد أمنه رجل مسلم ، والمسلمون في التواد

والتناصر كالجسد الواحد ، ما لزم بعضهم فقد لزم كلهم .

فقالوا له :

— إنه الملك ، وإنه الذي حاربنا .

— وإن كان ... لا أغدر . لن أقتله أبدا ...

أدبرت فلول جيش جابان ، وتركت الثمارق ، وأسرعت إلى كسكر لتنضم إلى نرسي القائد الكسروي ، ولما رأى نرسي هزيمة جابان أرسل إلى رستم يطلب منه مددا لوقف خطر العرب الزاحف في كل مكان ، فوعده رستم

بإرسال مدد بقيادة الجالينوس ، ولكن أبا عبيد فاجأ القوم قبل وصول المدد ،
فانهزم الفرس ، وفر نرسى ، فسرّح أبو عبيد جيوشه لإخضاع من حوله من
أهل العراق . خرج المشنى على رأس جيشه لاستخضاع بعض مناطق العراق ،
فرأى زعيمان من الزعماء ألا قبل لهما بدفع هؤلاء الناس الذين يحبون الموت
حبهم للحياة ، فعزما على مصالحتهم ، فانطلقا إلى المشنى وحادثاه فى أمر
الصلح ، فأخذهما إلى أبى عبيد ، فصالحهما على شىء معلوم ، ولما تم الصلح
شاء الزعيمان استرضاء أبى عبيد ، فجاءوا بآنية فيها ألوان من أطعمة فارس
وقدماها إليه وقالوا :

— هذه كرامة أكرمناك بها ، وقربنى لك .

فقال أبو عبيد :

— أألزمتم الجند وقربتموهم مثله ؟

— لم يتيسر ، ونحن فاعلون .

— فلا حاجة لنا فيما لا يسع الجند . بشئ المرء أبو عبيد إن صحب قوما من
بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أو لم يهرقوا ، فاستأثر عليهم بشىء يصيبه .
لا والله ، لا يأكل مما أفاء الله عليهم ، إلا مما يأكل أوساطهم .

رأى الجالينوس ترادف انتصار المسلمين ، فخشى أن يكون ذلك نذير
تقلص ملك الفرس ... فأسرع إلى رستم يستحثه على العمل ، على أن يخضع
من شوكة المسلمين قبل أن يستفحل الأمر ، وأقلق انتصار العرب الشعب
الفارسى ، فتجبهراً أمام القصر الملكى ، وجعل يطلب طرد الغزاة ، وأخرجوا
(الدرفس كايان) وهى راية كسرى وكانت من جلود الثور ، طولها اثنا عشر
ذراعاً ، وعرضها ثمانية أذرع ، وكانت على خشب طوال موصل ، وما كانت
فارس تظهرها إلا فى الأمر الشديد ، وسبب اعتزازهم بهذه الراية ، أن أحد

ملوك الفرس جار على رعيته ، وسامهم سوء العذاب ، واسترسلت حكومته في الظلم والطغيان ، وكممت الأقواه ، وحجرت على الحريات ، فلم يطق حداد ذلك الظلم الشديد ، فهانت نفسه ، فما قيمة الحياة في ذلك الأتون البغيض ! وخرج من حانوته وخلع الجلد الذي يربطه في وسطه ، ورفع على عصا طويلة ، وانطلق في الطريق وحده يهتف : « من لا يطيق الظلم فليتبعني » ، وتشجع بعضهم فانضموا إليه ، وساروا صوب القصر الملكي ، وفي الطريق كانت الجموع تنضم إلى الصارخين بسقوط الظلم والاستبداد ، وبلغ الشعب الثائر القصر فاقتحموه ، وقتلوا الطاغية ورجال دولته المستبدين ، ونصب الحداد ملكا ، وأسس الدولة الكسروية ، فاتخذ ملوكها راية الحداد شعارا لهم ، ثم استبدلت بجلد النمر .

عبثت الجيوش في فارس ، وخرجت على رأسها جاذويه ، والدرفس كايان ترفرف أمامهم ، فتبعث الحمية فيهم ، وانطلقت الجيوش حتى بلغت الفرات فعسكرت على ضفته ، وأقبلت جيوش المسلمين وعسكرت على الضفة الثانية ، ولم يكن هناك من فاصل بين القوتين المتناحرتين ، إلا الفرات السارى في هدوء ، وكأنما المعركة الدامية التى ستجرى فيه وعلى ضفافه لا تعنيه ، ولا تخرجه عن وقاره واتزانه .

أرسل جاذويه إلى أبى عبيد ، إما أن تعبروا إلينا ، وإما أن تدعونا نعبر إليكم ، فاجتمع رؤساء الجيوش وتداولوا فى الأمر ، وكان من رأيهم أن يدعوا الأعداء تعبر إليهم ، ولكن أبا عبيد كان يرى أن يعبر المسلمون فدار الجذب والشد وقال سليط :

— لا نعبر .

وقال أبو عبيد :



إني أخاف الله أن أقتله وقد آمنه رجل مسلم

— بل لا بد أن نعبر .

وأمر أبو عبيد بإنشاء جسر ، فراح الناس يعملون في إنشائه ، ولما تم ، قال أبو عبيد :

— تقدم يا سليط .

— لولا أني أكره خلاف الطاعة لانحزت بالناس ، ولكني أسمع وأطيع ، وإن كنت قد أخطأت وأشركني عمر معك .

— تقدم أيها الرجل .

— أفعل .

وعبر سليط ومن معه ، وعبر المثني وجيوشه ، وعبر أبو عبيد وباقي المسلمين ، والتفت أبو عبيد إلى الجسر وأمر بقطعه ، فأسرع الناس إليه لينعروه ، وقال سلمة بن أسلم :

— أيها الرجل إنه ليس لك علم بما ترى . وأنت تخالفنا ، وسوف تهلك من معك من المسلمين بسوء سياستك ، تأمر بجسر قد عقد أن يقطع فلا يجد المسلمون ملجأ من هذه الصحارى والبرارى ، فلا تريد إلا أن تهلكهم في هذه القطعة .

— يأيها الرجل تقدم فقاتل ، فقد حم ما ترى .

وقال سليط :

— إن العرب لم تلق مثل جمع فارس قط ، ولا كان لهم بقتالهم ، فاجعل لهم ملجأ ومرجعا من هزيمة إن كانت .

— والله لا فعلت . جئت يا سليط ؟

— والله ما جئت ، وأنا أجزأ منك نفسا وقيلا ، ولكن والله أشرت بالرأى .

— تقدم أيها الرجل .. إلى القتال .

— أفعل .

سوى المسلمون صفوفهم ، واستعدوا لملاقاة الأعداء ، وأقبلت جيوش فارس ، أمامها فيل عليه التحافيف ، فرأى المسلمون شيئاً لم يروا مثله قط ، وابتدأ القتال ، فجرى الدم أنهاراً ، وراح أبو عبيد وسليط والمثنى يجولون كأسود كواسر ، وأطل الموت من سيوفهم ، وقتل من الفرس ستة آلاف ، وتقدم الفيل ، وراح يضرب المسلمين بخرطوميه ، فدب الذعر بينهم ، وفروا من أمامه . ولما رأى أبو عبيد ذلك ترجل ورمحه في يده ، واندفع نحو الفيل كالشهاب ، وصوب إلى عينيه ضربة هائلة ، فراح الفيل يضرب بيده ، فضرب أبا عبيد ضربة قاتلة ، فسقط مجندلاً ، يخبط في دمه .

رأى الجند ما حل بقائدهم . فدب الذعر فيهم . وتقهقروا هلعين ، فأخذهم السيف ، وراح بعضهم يلقي بنفسه في النهر . وثبت المثنى وسليط وبعض فرسان المسلمين . وهتف المثنى أن أعيدوا عقد الجسر ، وراح المسلمون يعقدونه ، والمثنى ومن معه يتحملون هجمات الأعداء ، ولما تم عقده هتف ثانية :

— يا أيها الناس أنا دونكم فاعبروا على هيئتكم ، ولا تدهشوا ، فإننا لن نزايل حتى نراكم من ذلك الجانب ، ولا تغرقوا أنفسكم .

واستمرت الحرب الطاحنة بين المثنى ومن معه وبين جيوش الفرس العازمة على استئصال المسلمين ، وأسرع الناس إلى العبور ، ولكنهم وجدوا عبد الله بن مرتد الثقفي عند رأس الجسر شاهراً سيفه ، يمنع الناس من العبور ، وهو يصيح فيهم :

— لن نفر أبدا .. لن نفر أبدا .. موتوا على ما مات عليه أمراؤكم .

فتكاثروا عليه وأخذوه ، وأتوا به المثنى فضربه . وقال له :

— ما حملك على هذا ؟

— ليقاتلوا ويموتوا على ما مات عليه أمراؤهم أو يظفروا .

— اذهب ودعهم .

— ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ، إلا متحرفا لقتال ، أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ .

وابتدأ الناس في عبور الجسر ، وراح المثنى وسليط ومن معهما من فرسان المسلمين يحمون المنسحبين ، وقاتلوا قتال الأبطال ، وهم يتقهقرون صوب الجسر ، وانتدأ من مع المثنى في العبور ، وأخذ المثنى يعبر الجسر ، ووقف سليط وحده على رأسه يحمي المنسحبين ، وكأنما انقلب سليط إلى وحش كاسر ، فراح يضرب ويضرب ، وتفصد العرق منه ونال منه الجهد ، فضربه أحدهم ضربة فسقط مجنولا في نفس اللحظة التي قطع المثنى فيها الجسر خلفه .

وارتمى المثنى على الشاطئ منهوكا ، وفر المسلمون وهاموا على وجوههم ويمم أغلبهم صوب المدينة ، وما بقى مع المثنى إلا نفر قليل ، وأسرت زوجته سلمى إليه تضمد جراحه .

حاول الفرس عبور النهر ومطاردة المسلمين والقضاء عليهم ، وبقي المثنى ومن معه ينتظرون قضاء الله ، بقلوب عامرة بالإيمان ، إن الموت ليقرب منهم ، وما يحول بينهم وبينه إلا ذلك النهر ، فما أيسر أن يعبره الأعداء ، وما أيسر أن يقضوا عليهم ، ومع ذلك لم يرتجفوا ، ولم يرتعدوا فرقا ، بل انتظروا ما يحل بهم بقلوب راضية مطمئنة ، انتظروا قضاء الله صابرين ، فلن ينجيهم مما حاق بهم من خطر داهم إلا معجزة من السماء ، وما ودعهم ربهم وما قلاهم ، بل جاء عونهم سريعا ، فما همت جيوش الفرس بالعبور حتى سرى نبأ بينهم أن الناس في المدائن قد ثاروا برستم ، وانقسموا قسمين ، قسم معه وقسم مع الفيرزان ، فانشغلوا بذلك ، وانسحبوا ، ولما رأى المثنى انسحابهم ، خر ساجدا لله رب العالمين .

الفصل الثاني عشر

سعد الأسد عاديا

« يا سعد بنى وهب لا يغرنك من الله أن قيل خال
رسول الله ، وصاحب رسول الله ، فإن الله عز وجل لا
يمحو الحسن بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن .
(عمر بن الخطاب)

هام الناس على وجوههم عقب هزيمة الجسر ، تاركين المثنى ومن معه
وراحوا يقطعون القفار ، حتى بلغ بعضهم المدينة ، فاختبئوا وتحاشوا مقابلة
عمر ، وأخذ الناس يعيرونهم بفرارهم ويقولون إن مأواهم جهنم وبئس
المصير . فجزع الفارون جزعا شديدا ، واستحيوا من فرارهم ، ولما انتهى خبر
هزيمة الجسر وقتل أبي عبيد إلى عمر شق ذلك عليه . فكتب إلى عماله على
العرب يستحثهم على استنفار العرب وكل من له نجدة وبأس ، وأرسل إلى
سعد كتابا يستحثه على استنفار هوازن ، وانطلقت الرسل بالكتب تدعو
القبائل التي طريقها إلى المدينة بموافاة عمر فيها ، والقبائل التي طريقها إلى
العراق بالانضمام إلى المثنى وشد أزره .

واستمر تعيير القوم للفارين ، فقام عمر وقال : « عباد الله ، إن كل مسلم في
حل منى ، أنا فئة كل مسلم ، يرحم الله أبا عبيد ، لو كان عبر فاعتصم بالحيف
أو تحيز إلينا ولم يستقل لكنا له فئة ، لا تجزعوا يا معشر المسلمين أنا فقتكم ، إنما

انحزتم إلى » . وراح يحث الناس على الجهاد ويدعوهم إلى الاستعداد للخروج ، فاستعد الناس ، وخرج عمر فعسكر على ماء قرب المدينة يدعى ضرارا . والناس لا يعلمون بشيء مما يريد ، واستعمل على مقدمته طلحة بن عبد الله . وعلى ميمنته الزبير بن العوام ، وعلى يسرته عبد الرحمن بن عوف ، وقابله عثمان يسأله عما يريد وعما عزم عليه ، فنادى عمر : « الصلاة جامعة » فاجتمع الناس إليه ، فأخبرهم أنه قد عزم على أن يخرج بنفسه لقتال الفرس ، فهتف الناس :

— سر وسر بنا معك .

— استعدوا وأعدوا ، فإنى سائر إلى أن يجيء رأى هو أمثل من ذلك . وبعث عمر إلى أهل الرأي والمشورة ، ودخل عليه على أول من دخل فالتفت عمر إليه وقال :

— ما ترى يا أبا الحسن ، أسير أم أبعث ؟

— سر بنفسك فإنه أهيب للعدو وأرهب له .

وخرج على من عنده ، ودخل العباس فى جل مشيخة قريش فسألهم عمر :

— أسير أم أبعث ؟

فقالوا :

— أقم وأبعث غيرك ليكون للمسلمين أن انهزموا فئة .

وخرجوا فدخل إليه عبد الرحمن بن عوف فسأله ، فقال عبد الرحمن :

— فديت أبى وأمى ، أقم وأبعث فإنه إن انهزم جيشك فليس ذلك

كهزيمتك ، وإنك إن تهزم أو تقتل يكفر المسلمون ، ولا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبدا .

وخرج عبد الرحمن ، فدخل عثمان فقال عمر :

— يا أبا عبد الله ، أشر على أسير أم أقيم ؟
— أقم يا أمير المؤمنين وابعث الجيوش ، فإنى لا آمن إن أتى عليك آت أن
ترجع العرب عن الإسلام ، ولكن ابعث الجيوش وذاركها بعضها على بعض ،
وابعث رجلا له تجربة بالحرب ومضربها .

— ومن هو ؟

— على بن أبى طالب .

— فآلقه وكلمه وذاكره ذلك ، فهل تراه مسرعا إليه أولا ؟
وخرج عثمان وقابل عليا ، فذاكره ذلك ، ولكن عليا أبى ذلك وكرهه ،
فعاد عثمان وأبلغ عمر رفض على ، فقال عمر :

— ومن ترى ؟

— سعيد بن زيد بن عمرو .

— ليس بصاحب ذلك .

— طلحة بن عبد الله .

فأطرق عمر ولم يجب . ثم خرجا وقد عزم عمر على أن يقيم وأن يبعث
وراح يفكر فيمن يبعثه . ولما بلغ الناس خطب فيهم :
« أما بعد ، إن الله عز وجل ، قد جمع على الإسلام أهله ، فألف بين
القلوب ، وجعلهم فيه إخوانا ، والمسلمون فيما بينهم كالجسد ، لا يخلو منه
شئ من شئ أصاب غيره ، كذلك يحق على المسلمين أن يكونوا أمرهم
شورى بينهم وبين ذوى الرأى منهم ، فالتاس تبع لمن قام بهذا الأمر ، ما
اجتمعوا عليه ورضوا به ، لزم الناس وكانوا فيه تبعا لهم ، ومن قام بهذا الأمر
تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم . يأيها الناس إني إنما كنت كرجل
منكم حتى صرفنى ذو الرأى منكم عن الخروج ، فقد رأيت أن أقيم وأبعث

(سعد بن أبى وقاص)

رجلا ، وقد أحضرت هذا الأمر من قدمت ومن خلفت .
 واجتمع أهل الرأي ثانية يبحثون فيمن يؤمرونه على حرب الفرس ، وفيما
 كانوا يتداولون قداح الرأي بينهم ، وافى عمر كتاب سعد بن أبي وقاص بمن
 انتخبه له من أهل النجدة لحرب الفرس ، وهم ألف فارس ، فقال بعض
 الحاضرين :

— قد وجدته .

فقال عمر :

— فمن ؟

— الأسد عاديا .

— من هو ؟

— سعد .

— أعلم أن سعدا رجل شجاع ، ولكنى أخشى ألا يكون له معرفة بتدبير
 الحرب .

فقال عبد الرحمن بن عوف :

— هو على ما تصف من الشجاعة ، وقد صاحب رسول الله ﷺ ، وشهد
 بدرا ، فاعهد إليه عهدا ، وشاوره فيما أردت أن تحدث إليه ، فإنه لن يخالف
 أمرك .

فقال عمر :

— إنه رجل شجاع ، ضروب بالسيف ، رام بالنبل ، ولكنى أخشى ألا
 تكون له معرفة بتدبير الحرب .

فقال عثمان :

— هو صاحب ذاك ، ولكنه غائب في عمل .

— أرى أن أبعث إليه .

فقال عثمان :

— ومرة فليشاور قوما من أهل التجربة والتبصر بالحرب ، ولا يقطع الأمور حتى يشاورهم .

وانفض الجمع وقد اتفقوا على تأمير سعد ، وخرج عمر فألفى جرير بن عبد الله قدم إلى المدينة ، وقد اجتمعت إليه بجيلة ، فاتفق عمر معه على ريع لهم ، وسرحهم إلى العراق لشد أزر المشي .

بلغ رسول عمر هوازن ، وقابل سعدا ، وطلب منه الشخصوص من فوره إلى المدينة لمقابلة أمير المؤمنين : فشد سعد الرحيل ، ولما بلغ المدينة اتجه إلى عمر وقابله ، فأخبره عمر أنه أصبح أمير الجيوش المقاتلة في فارس ، وقال له يوصيه : — يا سعد بنى وهب ، لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ، وصاحب رسول الله ، فإن الله عز وجل لا يمحو الحسن بالسيئ ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن ، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه ، فإنه الأمر . هذه عظتي إياك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك ، وكنت من الخاسرين .

وخرج سعد من عنده يتأهب للانطلاق إلى العراق ، ولما تم تجهيز كل شيء ، وحن أوان الخروج ، دعاه عمر وقال له :

— إني قد وليتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتي ، فإنك تقدم على أمر شديد كربه ، لا يخلص منه إلا الحق ، فعود نفسك ومن معك الخير ، واستفتح به ، واعلم أن لكل عادة عتادا ، فعتاد الخير الصبر ، فالصبر الصبر على ما أصابك أو نابك تجتمع لك خشية الله ، واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين :

في طاعته ، واجتناب معصيته ، وإنما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة ، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة ، وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاءً ، منها السر ومنها العلانية ، فأما العلانية ، فإن تكون حامده ذامه في الحق سواء ، أما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه ، بمحبة الناس ، فلا تزهّد التحبب ، فإن النبيين قد سألوا محبتهم ، وإن الله إذا أحب عبداً حبه إلى خلقه ، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس ، واعلم أن مالك عند الله مثل ما للناس عندك .

خرج سعد ومعه أربعة آلاف مقاتل ، منهم ثلاثة آلاف من اليمن ، وألف من غيرهم ، وكان فيهم من السراة وزعماء العرب عدد وافر منهم عمرو بن معد يكرب . وسار الجيش وسار عمر معهم حتى بلغوا الأعوص ، فوقف عمر يودع الجيش فخطبهم :

— إن الله تعالى ضرب لكم الأمثال ، وصرف لكم القول ليحيى به القلوب ، فإن القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله . من علم شيئاً فلينتفع به ، وإن للعدل إمارات وتباشير ؛ فأما الإمارات فالحياء والسخاء واللين ؛ وأما التباشير فالرحمة . وقد جعل الله لكل أمر باباً ، ويسر لكل باب مفتاحاً ؛ فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد ، والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات ، والاستعداد له بتقديم الأعمال ، والزهد أخذ الحق من كل أحد قبله حق . وتأدية الحق إلى كل أحد له حق ، ولا تصانع في ذلك أحداً . واكتف بما يكفي من الكفاف ، فإن من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء . إني بينكم وبين الله ، وليس بيني وبينه أحد ، وإن الله قد ألزمني رفع الدعاء عنه ، فأنهاؤا شكاتكم إلينا ، فمن لم يستطع فإلى من يبلغناها ، نأخذ له الحق غير متعتع .

وانطلق جيش سعد ليخوض غمار أعظم المعارك هولا في التاريخ الإسلامي ، وقفل عمر عائداً إلى المدينة .

الفصل الثالث عشر

أقول النجم

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ،
بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ،
وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى
بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ،
وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

(قرآن كريم)

انسحبت جيوش الفرس بعد أن بلغها خبر إنقسام الناس في المدائن ، قسم
مع رستم ، وقسم مع الفيرزان ، فساعد ذلك المشى على أن يستجمع وأن يجمع
شئات جيشه ، وخرج يستنفر القبائل التي حولته فنجح في ضم نخلق كثير
إليه ، وبذلك جمع جيشا يستطيع أن يصمد إلى أن يبلغه مدد المدينة .

وانطلق جرير من المدينة قاصدا العراق ، فمر بناحية الأبله ، ثم صعد بناحية
المدائن ، وعلم مرزبان المدائن بمقدمه ، فأعد جيشا لملاقاته من عشرة آلاف
مقاتل ، وبلغ جرير في زحفه الدجلة ، فقال له من معه :

— اعبر الدجلة إلى المدائن .

— ليس ذلك بالرأى ، وقد مضى لكم في ذلك عبرة من مقتل إخوانكم يوم
الجسر ، ولكن أمهلوا القوم فإن جمعهم كثير حتى يعبروا إليكم ، فإن فعلوا

فهو الظفر إن شاء الله تعالى .

ومرت أيام ولم تخرج جيوش الفرس من المدائن . ثم خرجت وأخذت في عبور النهر ، فلما عبر منهم النصف أو نحوه ، حمل عليهم جرير ومن معه ، ودار القتال رهيبا لا هوادة فيه ولا لين ، واستمرت الكفتان متساويتين حتى قتل المرزبان ، فرجحت كفة المسلمين ، وأخذ الفرس السيف من كل جانب ، فتقهقروا مهزومين ، وسقط خلق كثير منهم في النهر فكان الدجلة مشواهم الأخير ، وتم نصر المسلمين ، فأخذوا ما كان في معسكر الأعداء ، ثم استأنفوا زحفهم ليلحقوا بالمشنى .

التقى جرير والمشنى بالبخلة ، وأحس الفرس اجتماع العرب وكثرة من جاء من النجدة للمثنى ، ورأى رستم والفيروزان الاتفاق ، ونبذ الأحقاد ، والتكاتف في سبيل إنقاذ الوطن المهدد بالزوال ، فجمعا كلمتهما واتجها إلى بوران ، وأخبراها أنهما عقدا العزم على أن يرسلأ مهران في جيش كثيف لقتال المسلمين ، وخرج مهران في جيش لجب ونزل من دون الفرات ، وعسكر المثنى وجنده في البويب شاطئ الفرات الآخر ، وأقبل أنس بن هلال الثمري مددأله في أناس من نصارى الثمر ، وقدم عبد الله بن كليب التغلبي في أناس من نصارى تغلب ، فلما رأى نزول العرب بالعجم ، قال نقاتل مع قومنا ، وانضم ومن معه إلى جند المسلمين .

تأهب العرب والفرس للنزال ، فبعث مروان إلى المثنى ؛ إما أن تعبروا إلينا ، وإما أن نعبر إليكم . فقال المسلمون : اعبروا إلينا .

فأخذ الفرس في العبور ، وارتفع ضجيجهم ، وصحب عبورهم جلبة شديدة ، فالتفت المثنى إلى المسلمين وقال لهم :

— إن الذى تسمعون فشل ، فالزموا الصمت .

وراح المثنى يتعهد صفوف المسلمين ، ويحثهم ، ويأمرهم بأمره ويهزمهم بأحسن ما فيهم ، وقال لهم فيما قال :

— إني لأرجو ألا تؤتى العرب اليوم قبلكم ، والله ما يسرنى اليوم لنفسي شيء إلا وهو يسرنى لعامتكم .

ثم أردف :

— شدوا عند التكبيرة الرابعة .

وكبر المثنى التكبيرة الأولى ، واستعد المسلمون لسماع التكبيرة الرابعة للهجوم ، ولكن الفرس لم يمهلوهم ، بل عاجلوهم ، وخالطوهم فالتحم الفريقان ، وشد جرير على مروان قائد الجيوش الفارسية وشد حسان بن المنذر عليه ، فطعنه حسان وضربه جرير ، فسقط مهران يخبط في دمه .

رأى الفرس ما حل بقائدهم فتضعضوا ، فشد عليهم المثنى ، فانهزموا ، فأسرع المثنى إلى الجسر لينع مرورهم ، فهربوا مصعدين ومصوبين والسيوف تحصدهم حصدا .

رأى من حضروا واقعة الجسر مع أبي عبيد الفرصة سائحة للقصاص لما نالهم من هزيمة نكراء ، فراحوا يصولون ويجولون ، وتم انهزام الفرس في البويب ، فانتدب المثنى جرير بن عبد الله لعبور الفرات وتتبع الفارين ، وانتدب معه من شهدوا واقعة الجسر ، فراحوا يجدون في أثر العدو ، ثم عادوا بالأسلاب الوفيرة ، والأغنام الكثيرة .

واجتمع المسلمون بعد المعركة يتذكرون ما فعلوه ، فقال جرير : قد قتلت مهران ، سلبت منطقته :

فبلغ ذلك حسان فقال :

ألم ترفى خالست مهران نفسه بأسمر فيه كالخلخال طرير
فخر صريعا والتقاني برجله فبادر في رأسى الهمام جرير
فقال قتيلى والحوادث جمة وكاد جريـر للسرور يطير
فقال أبا عمر وقتلى قتله ومثلى قليل والرجال كثير
فأرسل يمينا أن رمحك ناله وأكرم أن تحلف وأنت أمير
ترامت أنباء الهزائم المترادفة إلى المدائن . فثار الشعب ، وأيقن أن الرؤساء
أس البلاء ، وسبب النكبة العظمى ، فلولا اقتتال رستم والفيروزان وانشقاقهما ،
ما انتصر هؤلاء العرب عليهم ، فاجتمع الناس وشخصوا إليهما ، وقالوا لهما :
— لم يرح بكما الاختلاف حتى وهنتم أهل فارس ، وأطمعتم فيهم عدوهم ،
وإنه لم يبلغ من خطر كما أن تقر كما فارس على هذا رأى ، وأن تعرضاها
للهلكة ، ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن ، والله لتجتمعان أو لنبدأن
بكما قبل أن يشمت بنا شامت ، والله ما جر علينا هذا الوهن غير كم يا معشر
الرؤساء ، لقد فرقتم بين أهل فارس وثبطوهم عن عدوهم ، ولولا أن فى قتلكم هلاكنا
لعجلنا لكم القتل الساعة ، ولئن لم تنتهوا لنهلكنكم ثم نهلك وقد اشتفينا منكم .
سمع رستم والفيروزان ما سمعا من الشعب الثائر ، فتنباها من غفلتهما ، وخشيا
هلاكهما ، فبحثا مع القوم عن رجل من آل كسرى يولونه الملك ، ويجعلونه
رمزا لهم ، ومعقد آمالهم ، ويجمعون عليه كلمة الناس فوجدوا يزدجرد بن
شهريار ، وكان فى الحادية والعشرين من عمره ، فملكوه عليهم ، والتف
الرؤساء حوله ، وراحوا يتنافسون فى معونته ، فرتبوا المسالح والجنود ،
وشحنوا الثغور بالمقاتلة ، وأعدوا العدة والعديد لقتال المسلمين .
بلغ المشنى اجتماع الفرس على يزدجرد ، وتجهزهم لحرب المسلمين ، فكتب
إلى عمر بذلك يطلب منه مددا ، وبينما كان فى انتظار رد أمير المؤمنين ، تمكن

الفرس من بث دسائسهم بين أهل العراق فكفروا بالعهد ، ونقضوا ما أبرموه بينهم وبين المسلمين ، فخرج المثنى على حامية حتى نزل بذي قار وجاء كتاب عمر وفيه : « أما بعد ، فاخرجوا من بين ظهري الأعاجم ، وتفرقوا في المياه التي تلى الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم ، ولا تدعوا في ربيعة أحدا ، ولا مضر ولا حلفائهم أحدا من أهل النجدات ، ولا فارسا إلا أجلبتموه ، فإن جاء طائعا وإلا حشرتموه ، احملوا العرب على الجدد إذا جد العجم ، فلتلقوا جدهم بجذكم » .

اهتم المثنى بأمر عمر ، ففرق الجند على خط واحد ، فكانوا في العراق من أولها إلى آخرها مسلح بعضهم ينظر إلى بعض ، ويقى بعضهم بعضا ، فصاروا كحصن واحد منيع ، بعيد المنال ، وأعاد الفرس تنظيم مسلحهم ، وشحنوا ثغورهم بالجنود . واستعد الطرفان لحرب يشيب من هولها الوليد .

أحس المثنى آلاما شديدة مبرحة من أثر ما أصابه من جراح بالغة في يوم الجسر وغيره ، فاعتكف بشراف ، وكان يسأل عما إذا كان سعد بن أبي وقاص قد وصل ، واشتد به الألم ، فاستدعى أخاه المعنى بن حارثة ، وأوصاه بوجه سلمى خيرا ، وراح يذكر له وصيته لسعد ، وطلب منه أن يبلغها إليه ، وبلغ الوجع منتهاه فوهن المثنى ، وتقطعت منه الأنفاس ، ثم لفظ النفس الأخير ، فحزن الناس عليه ، فقد هوى نجم طالما تلالأ ، ونحبت شعلة طالما أنارت وبددت دياجير الخطوب .

مات المثنى دون المدائن ، ولم يتمم ما بدأه ، ولم يحقق حلمه الذهبي ، ولكن فليطمئن في سمائه ، فسيتم سعد كل شيء ، وسيحقق الحلم الجميل .

الفصل الرابع عشر

الرسائل

« الصبر الصبر ، فإن المعونة تأتي من الله على قدر النية » .

(عمر بن الخطاب)

انطلق جيش سعد يغذ في السير حتى نزل بالقرب من نهر زرود من أرض العرب مما يلي العراق ، وراح يتأهب لاستئناف زحفه ، وقبل الرحيل أمدّه عمر بأربعة آلاف مقاتل ، فصار جيشه عظيماً بجنده ، عظيماً بمن فيه من خيرة الصحابة الذين شاركوا النبي ضعفه وقوته ، وشهدوا معه غزواته وانتصاراته . والتفت سعد حوله ، فوقع نظره على سلمان الفارسي فعادت به الذكريات إلى عهد الرسول ، يوم تحالف يهود خيبر وقريش والقبائل العربية القاطنة بضواحي مكة على المسلمين ، وعقدوا العزم على توجيه الضربة القاضية للإسلام ، فخرجوا في عشرة آلاف مقاتل ، فبات أمل المسلمين في النجاة أوهن من بيت العنكبوت ، وراحوا يقلبون وجوه الرأي بينهم ، فاقترح سلمان حفر خندق عميق حول المدينة ، فحفر الخندق ، وبينما كانوا يحفرونه إذ صادفوا كدية شديدة ، استعصت عليهم . فجاءوا النبي فقالوا : هذه كدية عرضت في الخندق ، فقال : أنا نازل ، وتناول معوله وراح يضرب فتطايرت شرارة ، فهتف النبي ، الله أكبر ! وقال : إنه رأى في هذه الشرارة أنه أعطى

مفاتيح سورية ، ثم ضربها ضربة فتطايرت شرارة ، فقال إنه رأى فيها أنه أعطى مفاتيح فارس ، ثم ضربها ضربة ثالثة فصارت رملا لا يتماسك ، فقال النبي : إنه رأى في الشرارة الثالثة أنه أعطى مقاليد اليمن ، مرت هذه الصور جميعها بمخيلة سعد ، فاطمأن قلبه . سينصره الله قريبا ، وسيحقق نبوءة نبيه ، فقد تحقق كل ما تنبأ به . فقد أعطيت مقاليد اليمن للمسلمين ، وفتحت سورية ، ولم يبق إلا ملك كسرى .

وبينا كان سعد في الطريق إذ بلغته رسالة من عمر يقول له فيها : « ابعث إلى فرج (ثغر) الهند رجلا ترضاه ، يكون بحياته ، ويكون ردءا لك من شيء أتاك من تلك التخوم » فنفذ وصية أمير المؤمنين وأنفذ المغيرة ابن شعبة في خمسمائة ، فكان بحيال الأبله من أرض العرب .

أصبحت شراف على مدى البصر ، ولم يبق بين جيش سعد وجيش المشنى إلا اليسير ، فراح الجيش القادم يجد في السير حتى بلغها ونزل بها ، وكان أول ما فعله سعد أن بعث إلى عمر كتابا يبلغه بمنزله ، فجاءه كتاب عمر وفيه : « إذا جاءك كتابي هذا فعشر الناس ، وعرف عليهم ، وأمر على أجنادهم ، وعبئهم ومر رؤساء المسلمين فيشهدوا ، وقدرهم وهم شهود . ثم وجههم إلى أصحابهم وواعدتهم بالقادسية ، واضمم إليك المغيرة بن شعبة في نخيله ، واكتب إلى بالذى يستقر عليه أمرهم » .

وأرسل سعد إلى رؤساء القبائل ، فوافوه ، فقدر الناس ، وقسمهم إلى أقسام كل قسم مكون من عشرة رجال عليهم عريف ، ثم جعلهم فرقا كل فرقة عليها أمير ، ثم عبأهم تعبئة تدل على مهارة ودربة ، فجعلهم طلائع ومجردات (كشافة) ، وميمنة وميسرة ، وقلبا وساقة وردءا (مددا) ، ورجلا (مشاة) وركبانا .

فرغ سعد من تعبئة جيشه ، ووفد عليه المعنى بن حارثة ، وسلمى زوج أخيه وجنود المثني ، وتقابل المعنى وسعد ، وأخبره بموت أخيه ، وقال له إنه يوصيه بألا يقاتل عدوه من أهل فارس إذا اجتمع أمرهم وملؤهم في عقر دارهم ، وأن يقاتلهم على حدود أرضهم مما يلي أرض العرب . ولما انتهى المعنى من ذكر وصية أخيه ، ترحم سعد على المثني .

وهم المعنى بالخروج ، ولكن سعد استوقفه وأمره على جند أخيه ، وخطب منه سلمى فوافق .

وأرسل سعد إلى عمر يبلغه ما فعله ، وانتظر رد أمير المؤمنين ، وجاء الجواب : « أما بعد ، فتعاهد قلبك ، وحادث جندك بالنية والحسبة ، والصبر الصبر ، فإن المعونة تأتي من الله على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، والحذر الحذر على ما أنت عليه وما أنت بسبيله ، واسألوا الله العافية ، وأكثرُوا من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، واكتب إلى أين بلغك جمعهم ، ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم ، فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتابة به إليك قلة علمي بما همتم عليه ، والذي استقر عليه أمر عدوكم ، فصف لنا منازل المسلمين . والبلد الذي بينكم وبين المدائن ، صفه كما أني أنظر إليها ، واجعلني من أمركم على الجلية ، وخف الله وارجه ، ولا تدل بشيء ، واعلم أن الله قد وعدكم ، وتوكل بهذا الأمر بما خلف له . فاحذر أن تصرفه عنك ويستبدل بكم غيركم » .

تحرك جيش سعد حتى بلغ العذيب ، فنزل بها ووافاه هناك كتاب من عمر ، فنشره وراح يقرأه للجند : « أما بعد ، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحروب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من

المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا إن لم نغلبهم بقوتنا ، واعلموا أن عليكم في مسيركم حفظة من الله يعلمون فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصي الله ، وأنتم في سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدونا شر منا ، فلن يسلط علينا وإن أسأنا ، فرب قوم قد سلط عليهم شر منهم كما سلط على بنى إسرائيل ، لما عملوا بمساخط الله ، كفار الجوس ، ﴿فجاسوا خلال الديار﴾ ، وكان وعدا مفعولا ﴿واسألوا الله العون على أنفسكم﴾ ، كما تسألونه النصر على عدوكم ، أسأل الله ذلك لنا ولكم ، وترفق بالمسلمين في مسيرهم ، ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم ، ولا تقصر بهم . ترفق بهم ، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم ، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم ، حامى الأنفس الكراع (الخيل) ، وأقم بمن معك في كل جمعة يوما وليلة تكون لهم راحة ، يحيون فيها أنفسهم ، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحدا من أهلها شيئا ، فإن لهم حرمة وذمة ابتليت بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولوهم خيرا ، ولا تنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح ، وإذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل العرب من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه ، والغاش عين عليك ، وليس عينا لك ، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث سرايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم ، وتببع الطلائع عوراتهم ، وانتق

للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك ، وتخبر لهم سوابق الخيل ، فإن لقوا
عدوا ، كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السرايا إلى أهل
الجهاد ، والصبر على الجلاء ، لا تخص بها أحدا بهوى ، فتضيع من رأيك
وأمرك أكثر مما حييت به أهل خصتك ، ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه
تتخوف عليها فيه غلبة أو ضيعة ونكاية ، فإذا عاينت العدو ، فاضمم إليك
أقاصيك ، وطلائعك ، وسراياك ، واجمع إليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا
تعاجلهم المنازلة ، ما لم يستكرهك قتال ، حتى تبصر عورة عدوك كصنعه
بك ، ثم أذك أحراسك على عسكريك ، وتيقظ من البيات جهديك ، ولا تؤثني
بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه ، لترهب عدو الله وعدوك . والله ولي
أمرك ، ومن معك ، وولى النصر لكم على عدوكم والله المستعان .

راح سعد يتأهب للانطلاق إلى القادسية ، فخصص جندا لحراسة الحرم ،
وقدم أمامه زهرة بن الحوية . وهم بالمسير إلى القادسية ، وقبل أن يتحرك بعث
عيونه إلى الحيرة ليأتوا له بالخبر ، ولما بلغ القادسية ، لم يجد بها نجبرا ، فراح
يبعث السرايا للغارة والإرهاب ، واتخذ خطة الدفاع كما أمره عمر ، وانتظر
أوبة العيون ، ليرسل إلى عمر بمن ولاة الفرس أمرهم .

نزل القادسية ، فنفر أهل العراق إلى كسرى يزدجرد يستغيثونه . ويخبرونه
بنزول العرب ، وتفرق سراياهم للغارة ، وطلبوا منه النجدة والعون ، وقالوا له :
« إن أبطأ علينا الغياث أعطيناهم بأيدينا » .

أطرق يزدجرد مفكرا فيما يفعل ، فتذكر ما فعلته جيوش العرب بجيوش
فارس في العراق أيام خالد والمثنى ، وانتصارهم المبين في كل مكان ، فأيقن أن
العرب بعد الإسلام ليسوا الغرب قبله ، لقد كانوا قبله رعاة إبل فشاءوا بعده

أن يكونوا رعاة أمم ، إنهم جاءوا ليزلزلوا ملكه ، الذى عاد إليه أخيرا ، ولما يتمتع به ، إنه لن يسمح لهم باغتصابه ، وإنه ليزود عنه حتى آخر نسمة من حياته ، فهب من مجلسه ، وراح يقطع قاعة العرش صاعدا هابطا ، مفكرا ثائرا ، وأخيرا قرأه على استدعاء رستم ، فأرسل فى طلبه .

دخل رستم على يزدجرد ، فحياه ، وأمره يزدجرد أن يجلس بجواره ، فلما جلس قال يزدجرد :

— جاء العرب لنا جزتنا فى عقر دارنا ، وإنى رأيت بصفتك قائد قواد الدولة ، وصاحب الراى فيها أن أوجهك فى هذا الوجه ، فأنت رجل فارس اليوم ، وترى ما حل بالفرس مما لم يأتهم مثله .

فأطرق رستم ، وراح يفكر ، فقد كان يوجس خيفة من هؤلاء المردة ، وكان يحس إحساسا غامضا أن نهايته ستكون على أيديهم ، فرأى أن يقترح على كسرى أن يكون بجواره لتدبير أمور الحرب ، وتستريح الجيوش ، وإقناعه بأن ذلك أجدر من وجوده بساحات الحرب ، فرفع رأسه وقال ليزدجرد بصوت محاول أن ينم عن الإخلاص والنصيحة :

— إن العرب لا تزال تنهب العجم ما لم تضربهم بى ، ولعل الدولة أن تثبت بى إذا لم أحضر الحرب ؛ فنكون قد أصبنا المكيدة ، والراى فى الحرب أنفع من الظفر ، والأناة خير من العجلة ، وإرسال الجيوش بعد الجيوش أشد على العرب من أن يكسروا جيشا كثيفا مرة واحدة .

— بل لا بد من خروجك يا رستم .

— قد اضطررتى تضييع الراى إلى إعظام نفسى وتزكيتها ، ولو أجد من ذلك بدا لم أتكلم به ، فأنشدك فى نفسك وملكك دعنى أقم بعسكرى وأسرح الجالينوس ، فإن تكن لنا فذلك ، وإلا بعثنا غيره ، حتى إذا لم نجد بدا صبرنا

لهم ؛ وقد وهناهم ، ونحن حامون ، فإني لا أزال مرجوا في أهل فارس ما لم
أهزم .

— قد عقدت العزم على خروجك ، وستخرج يا رستم لمحق هؤلاء
المعتدين .

— أمر مولاي .

وراح رستم يستعد لقتال المسلمين ، فجعل على مقدمه الجالينوس في
أربعين ألفا ، وعلى ميمنته الهرمزان ، وعلى ميسرته مهران ، وكتب إلى الرؤساء
بإعداد الحصون ؛ والاستعداد للقتال .

عادت العيون التي بثها سعد إليه لتنبئه بخروج رستم لقتاله ، فكتب إلى عمر
أن الفرس قد جردوا لحربه رستم وأعوانه ، وقال له : « فهم يطلبوننا ، ونحن
نطلبهم ، وأمر الله ماض ، وقضاؤه مسلم إلى ما قدر لنا وعلينا ؛ فنسأل الله خير
القضاء وخير القدر في عافية » .

فبعث إليه عمر : قد جاءني كتابك وفهمته ؛ فإذا لقيت عدوك ، ومنحك
الله أدبارهم ، فإنه قد ألقى في روعي أنكم إذا لقيتم العدو هزتموه ، فاطرحوا
الشك ، وآثروا التقية عليه ؛ فإن لآعب أحد منكم أحدا من العجم بأمان أو
قرفه بإشارة أو بلسان كان لا يدرى الأعجمي ما كلمه به ، وكان عندهم
أمانا ، فأجروا ذلك له مجرى الأمان ، وإياكم والضحك ، فإن الخطأ بالوفاء
بغية ، وإن الخطأ بالقدر هلكة ، وفيها وهنكم ، وقوة عدوكم ، وذهاب
ريحكم ، وإقبال ريحهم ، واعلموا أني أحذركم أن تكونوا شيئا على المسلمين ،
وسببا لتوهينهم » .

وأرسل إليه كتابا آخر : « أما بعد ، لا يكره لك ما يأتيك عنهم ، ولا ما
يأتونك به ، واستعن بالله وتوكل عليه ، وابعث إليه رجالا من أهل النظر

والرأى والجلد يدعونه ، فإن الله جاعل دعاءهم توهينا لهم ، وفلجنا (نصرا وظفرا) عليهم . واكتب إلى في كل يوم » .

وتقدمت جيوش رستم حتى نزلت بساباط بين المدائن والقادسية بمائة ألف مقاتل أو يزيدون ، وراح سعد ينتخب من سيرسلهم إلى يزدجرد ليدعوه إلى الإسلام أو الجزية قبل أن تدور الحرب بينهم ، فانتخب نفرا من قادة المسلمين ، ذوى منظر ورأى ، وعليهم مهابة ، ووقع اختياره على النعمان بن مقرن ، وعمرو بن معد يكرب ، وعاصم بن عمر ، والمغيرة بن شعبة ، والمعنى ابن حارثة ، وآخرين ، وخرج الوفد قاصدا المدائن .

الفصل الخامس

الوفود

« نحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسن الحسن
وقبح القبيح كله » .

(النعمان)

خرج الوفد من المعسكر ، وانطلق حتى بلغ رستم ، فتركوا خيولهم ،
ودخلوا عليه ، وطلبوا منه مقابلة يزدجرد لعرض شروطهم عليه قبل القتال .
ولما كان رستم غير راغب في القتال ، فإنه أرسلهم إلى المدائن ، فساروا في
طرقاتها ، مرفوعي الرؤوس ، ثابتي الجنان ، وخرج الناس ينظرون إلى أشكالهم
وأرديتهم على عواتقهم ، وسياطهم بأيديهم ، والنعال في أرجلهم ، وخيولهم
الضعيفة وخبطها على الأرض بأرجلها ، وجعل الناس يتعجبون منهم غاية
العجب ، ويتساءلون كيف تمكن مثل هؤلاء من قهر جيوشهم مع كثير
عددها وعددها ؟! واستمر الوفد في طريقه حتى بلغ القصر الكسروي ، فلما
علم كسرى بوصولهم ، أمر بحبسهم ريثما يجمع وجوه دولته ويستشيرهم فيما
يجيبهم به .

وجلس الملك على عرشه ، يحوطه خدمه وحشمه ، وأعيان القوم ، وأذن
للوفاة بالمشول ، فدخلوا جميعا شاحخي الأنوف ، وعليهم البرود ، وبأيديهم
السياط ، وجيء بالترجمان ، فقال له يزدجرد :

— سلهم ما جاء بهم وما دعاهم إلى غزونا والولوغ ببلادنا؟ أمن أجل أنا
تشاغلنا عنهم اجترأوا علينا؟

فالتفت النعمان بن مقرن إلى أصحابه وقال لهم :

— إن شئتم تكلمت عنكم ، ومن شاء أثرته .

فقالوا :

— بل تكلم .

فقال النعمان :

— إن الله رحمننا فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ، ويأمرنا به ، ويعرفنا
الشر ، وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة ، فلم يدع إلى ذلك
قبيلة إلا صاروا فرقتين ، فرقة تقاربه ، وفرقة تباعده ، ولا يدخل معه في دينه إلا
الخواص ، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثم أمر أن ينبذ إلى من خالفه من
العرب ، وبدأ بهم وفعل ، فدخلوا معه جميعا على وجهين ، مكره عليه فاغبط ،
وطائع أتاه فازداد ، فعرفنا جميعا فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة
والضيق . ثم أمرنا أن نبدا بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن
ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسن الحسن ، وقبح القبيح كله ، فإن أبيتم فأمر
من الشر هو أهون من آخر شر منه ؛ الجزاء ، فإن أبيتم فالمناجزة ، فإن أجبتم إلى
ديننا خلقنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه ، على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع
عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم ، وإلا قاتلناكم .

فظهر الغضب في وجه يزدجرد ، ولكنه تكلف الهدوء وقال :

— إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ، ولا أسوأ ذات

بين منكم ، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي ، فيكفونناكم ، ولا تغزوكم

فارس ، ولا تطمعون أن تقوموا لهم ، فإن كان عدد لحق فلا يغرنكم منا ، وإن

كان الجهد دعاءكم فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم ،
وكسوناكم ، وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم .

فسكت القوم ساعة ، وساد المكان السكون ، إلى أن قال المغيرة :
— أيها الملك ، إن هؤلاء رعوس العرب ووجوههم ، وهم أشراف
يستحيون من الأشراف ، وإنما يكرم الأشراف الأشراف ، ويعظم حقوق
الأشراف الأشراف ، ويفحم الأشراف الأشراف . وليس كل ما أرسلوا به
جمعوه لك ، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه ، وقد أحسنوا ولا يحسن
بمثلهم إلا ذلك ، فجأوبني لأكون الذي أبلغك ، ويشهدون على ذلك أنك
وصفتنا صفة لم تكن بها عالما . فأما ما ذكرت من سوء الحال ، فما كان أسوأ
حالا منا ، وأما جوعنا فلم يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان
والعقارب والحيات ، فرى ذلك طعامنا . وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض ،
ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل ، وأشعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا
بعضا ، ويغير بعضنا على بعض ، وإن كان أحدا ليدفن ابنته حية ، كراهية أن
تأكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك ، فبعث الله إلينا
رجلا معروفا ، نعرف نسبه ، ونعرف وجهه ومولده ، فأرضه خير أرضنا ،
وحسبه خير أحسابنا ، وبيته أعظم بيوتنا ، وقبيلته خير قبيلتنا ، وهو بنفسه
كان خيرنا ، في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا ، فدعانا إلى أمر فلم يجبه
أحد ، أول من ترب كان له ، وكان الخليفة من بعده ، فقال وقلنا ، وصدق
وكذبنا ، وزاد ونقصنا ، فلم يقل شيئا إلا كان ، فقذف الله في قلوبنا التصديق
له وأتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما
أمرنا فهو أمر الله . فقال لنا إن ربكم يقول إني أنا الله وحدي لا شريك لي ،
كنت إذ لم يكن شيء ، وكل شيء هالك إلا وجهي ، وأنا خلقت كل شيء ،



لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، لا شيء لكم عندي

وإلى بصير كل شيء ، وإن رحمتي أدر كتكم ، فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي ، لأحلكم داري ، دار السلام . فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق ، وقال من تابعكم على هذا فله ما لكم ، وعليه ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ، ثم امنهوه مما تمنعون منه أنفسكم ، ومن أبى فقاتلوه ، فأنا الحكم بينكم ، فمن قتل منكم أدخلته جنتي ، ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناوأه . فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف ؛ أو تسلم فتتحي نفسك . فثار يزدجرد ، وفار الدم في عروقه ، ولم يستطع كبت مواطنيه ، بل قال غاضبا :

— أتستقبلني بمثل هذا ؟

— ما استقبلت إلا من كلمني ، ولو كلمني غيرك لم أستقبلك به .

— لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، لا شيء لكم عندي .

ثم التفت إلى بعض من حوله وقال :

— اثبتوني بوقر تراب .

فجىء بوقر تراب ، فالتفت كسرى إلى من حوله وقال :

— احملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن .

ثم التفت إلى المسلمين وقال والشرر يتطاير من عينيه :

— ارجعوا إلى أصحابكم فاعلموا أني مرسل إليكم رستم حتى يدفنكم

ويدفنه في خندق القادسية ، وينكل به وبكم من بعد ، ثم أورده بلادكم حتى

أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور .

ثم صمت قليلا وأردف :

— من أشرفكم ؟

فطأطأ المسلمون رءوسهم برهة ، ثم تقدم عاصم بن عمرو وقال :
— أنا أشرفهم ، وأنا سيد هؤلاء ، فحملنيه .

— أكذاك ؟

فقالوا جميعا :

— نعم .

حمل عاصم التراب على عنقه ، وخرج به من إيوان كسرى ، وخرج
العرب خلفه ، فضحك الموجودون منه ، وما دار بخلداهم إنه خرج بأرضهم .
وضع عاصم التراب أمامه على دابته ، وقفل الوفد عائدا إلى القادسية ، وما
إن بلغوها حتى أسرعوا بالدخول على سعد ، وما إن وقع نظر عاصم عليه حتى
صاح :

— أبشر ، فقد والله أعطانا الله أقاليد ملكهم .

* * *

عاد رستم إلى ساباط ، وأمر قواده أن يصيبوا له رجلا من العرب ، فخرج
الجالينوس سرية في مائة وانطلق إلى القادسية ، وغافل القوم ، واختطف رجلا
دون القنطرة ، فاستغاث ، فنفر الناس لنجدته ، ولكن الجالينوس راح ينهب
الأرض بجواده ، وجنوده في أثره ، ولم يستطع المسلمون اللحاق بهم ، وبلغوا
عسكرهم ، واقتيد العربى إلى رستم ، فسأله :

— ما جاء بكم وما تطلبون ؟

— جئنا نطلب موعد الله .

— وما هو ؟

— أرضكم وأبناؤكم ودمائكم ، إن أبيتكم أن تسلموا .

— فإن قتلتم قبل ذلك ؟

— فى موعود الله أن من قتل منا قبل ذلك أدخله الجنة ؟ وأنجز لمن بقى منا وعده ، فنحن على يقين .

— قد وضعنا إذن فى أيديكم ؟

— ويحك يا رستم إن أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها ، فلا يغرنك ما ترى حولك ، فإنك لست تجاول الإنس ، إنما تجاول القضاء والقدر .
فظهر الغضب فى وجه رستم ، وصاح بمن حوله :
— اضربوا عنقه .

* * *

تحركت جيوش رستم ، وسارت حتى نزلت بىرس ، فراح جنوده يسلبون الناس أشياءهم ، ويعيشون فى الأرض فسادا ؛ فشربوا الخمر ، وأتوا النساء ، فضج الناس مما يلقون ، وشكوا إليه ما يلقون فى أموالهم وأبنائهم ، فقام فيهم فقال :

— يا معشر أهل فارس ، والله لقد صدق العربى ، والله ما أسلمنا إلا أعمالنا ، والله للعرب فى هؤلاء ، وهم لهم ولنا حرب ، أحسن سيرة منكم . إن الله كان ينصركم على العدو ، ويمكن لكم فى البلاد بحسن السيرة ، وكف الظلم والوفاء بالعهود والإحسان ، فأما إذ تحولتم عن ذلك إلى هذه الأعمال ، فلا أرى الله إلا مغيرا ما بكم ، وما أنا بأمن أن ينزع سلطانه منكم .

وانطلق رستم إلى الحيرة ، فلما بلغها دعا وجوه القوم وقال لهم :

— يا أعداء الله ، فرحتم بدخول العرب علينا بلادنا ، وكنتم عيوننا لهم علينا ، وقويتهم بالأموال .

فصمت القوم ، وساد المكان سكون قاتل ، وأخيرا قال أحدهم :

— أما أنت وقولك أنا فرنا بمجيئهم فماذا فعلوا ، وبأى ذلك من أمورهم

نفرح ؟ إنهم ليزعمون أنا عبيد لهم ، وما هم على ديننا ، وإنهم ليشهدون علينا أنا من أهل النار . وأما قولك إنا كنا عيوننا لهم فما الذى يحوجهم إلى أن نكون عيوننا لهم ، وقد هرب أصحابكم منهم ، واخلوا لهم القرى ، فليس يمنعهم أحد من وجه أرادوه ، إن شاءوا أخذوا يميننا وشمالا . أما قولك أنا قويناهم بالأموال ، فإننا صانعناهم بالأموال عن أنفسنا ، إذ لم تمنعونا ، مخافة أن نسبى ، وأن نحرب ، وتقتل مقاتلتنا ، وقد عجز عنهم من لقيهم منكم ، فكنا نحن أعجز . لعمرى أنتم أحب إلينا منهم ، وأحسن عندنا بلاء فامنعونا منهم نكن لكم أعوانا ، فإننا نحن بمنزلة علوج السواد عبيد من غلب .

نزل رستم النجف ، فأرسل سعد طلائعه ، وأمرهم أن يصيبوا رجلا ليسأله عن أهل فارس . فخرج طليحة فى خمسة ، وخرج عمرو بن معد يكرب فى خمسة ، وانطلق الجميع وكانوا يحسبون أنهم سينطلقون حتى النجف ، وما دروا أن العدو قد فصل منها ، وقطعوا فرسخا واحدا ، وهما بقطع الآخر ، ولكنهم رأوا مسالح العدو ، فقد تحرك العدو ، وأصبح منهم قريبا ، فقال بعضهم :

— ارجعوا إلى أميركم ، فإنه سرحكم وهو يرى أن القوم بالنجف ، فأخبروه الخبر .

وقال بعضهم :

— ارجعوا لا ينذر بكم عدوكم .

فقال عمرو :

— صدقتم .

وقال طليحة :

— كذبتُم ، ما بعثتم لتخبروا عن السرح ، وما بعثتم إلا للخبر .

— فما تريد ؟

— أريد أن أخاطر القوم أو أهلك .

— ارجع بنا .

— لن أرجع ، سأهجم على معسكرهم .

فلم ير القوم بدا من أن ينطلقوا معه ، وبلغ سعد خبرهم ، فبعث قيس بن هبيرة في مائة لإعادتهم ، فراح قيس يغذ في السير حتى بلغهم ، فأمرهم أن يعودوا .

فقال عمرو :

— سنغير على القوم .

— إن الأمير يأمركم بالعودة ، ولكن أين طليحة ؟

— انفصل عنا وراح يشن الغارة وحده .

— إلى العودة .

وعاد الجميع إلى معسكرهم إلا طليحة ، فإنه انطلق حتى دخل عسكر رستم ، وراح يجوسه وينظر ويتوسم . وأقبل الليل ، ولف كل شيء ، وهجع المعسكر ، وقام طليحة ، وراح يدور بعينه في المعسكر ، فرأى فرسا ما رأى مثلها قط ، فانتضى سيفه ، وراح يزحف صوب الفرس ، ولما اقترب منها قطع مقودها وضمه إلى مقود فرسه ، ثم امتطى فرسه ، وراح يعود خارجا من المعسكر ، فتنبه الناس إليه ، وخرجوا في أثره ، وابتدأت المطاردة ، فراح طليحة يطوى الأرض طيا ، وينهبها نهبا ، وثار النقع ، وراحت حوافر الجوادين تضرب الأرض بقوة ، واقترب فارس من الجند منه ، ثم غشيه وبوأ له الرمح ليطعنه ، فعدل طليحة فرسه ، فندر الفارس بين يديه ، فكر عليه طليحة ،

وصوب إليه رمحه ، فقصم ظهره ، واستأنف جريه ، والفرس في أثره . واقترب منه فارس وسدد له رمحه ، ولكنه لحق برفيقه ، وناله ما ناله . واقترب منه ثالث ، وقد رأى مصرع صاحبيه ، وصوب رمحه لينتقم لهما ، ولكن طليحة عدل فرسه ، فنذر الفارس أمامه . وكر عليه طليحة ، ودعاه إلى الإسار . وأيقن الفارس أنه سيقتل ، فاستأسر . فطلب منه طليحة أن يعتلي جواده ، وأن يركض بين يديه ، ففعل . وانطلقا والناس في أثرهما . ولاح معسكر المسلمين ، فلكر طليحة فرسه ، وفرس أسيره ، فدخلا المعسكر ، ولم يجد الناس بدا من أن يتركوا الأسير ، وأن يقفلوا راجعين .

دخل طليحة على سعد ، فقال له سعد :

— ويحك ! ما وراءك ؟

— دخلت عساكرهم ، وجستها منذ الليلة . وقد أخذت أفضلهم توسماً . وما أدري أصبت أم أخطأت . وها هو ذا فاستخبره .

فدعا سعد ترجمانا ، وراح يسأل الأسير عن أحوال الفرس .

فقال الرجل :

— أتؤمنني على دمي إن أصدقتك ؟

— نعم ، الصدق في الحرب ، أحب إلينا من الكذب .

— أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عمن قبلي . باشرت الحروب وغشيتها ، وسمعت بالأبطال ولقيتها ، منذ أنا غلام إلى أن بلغت ما ترى ، ولم أر ولم أسمع بمثل هذا . إن رجلا قطع عسكرين لا يجترئ عليها الأبطال ، إلى عسكر فيه سبعون ألفا يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة إلى ما هو دون ، فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فارس الحند ، وهتك أطناب بيته ، فأنذره فأنذرنا به فطلبناه ، فأدركه الأول فقتله ، وأدركه الثاني فقتله ، ثم أدركته ،

فرأيت الموت فاستأسرت .

ثم صمت الرجل قليلا ، والتفت إلى طليحة ، وبان الإعجاب في عينيه .
وسأله سعد :

— كم عددكم ؟

— الجند عشرون ومائة ألف ، والأتباع مثلهم خدام لهم .

خرج رستم من معسكره ، وسار حتى بلغ قنطرة القادسية ، فتأمل القوم
فرأى عسكرياً كثيراً ، وراح ينظر حوله فرأى جيشاً لجباً ، فأحس ضيقاً ،
وعاد إلى معسكره وهو يفكر في أمر المسلمين وفي أمره . وأقبل الليل ومد في
ردائه الأسود ، فدخل سريره لينام ، ولكن النوم جافاه ، وراح فكره يعمل
وينتقل به من مكان إلى مكان . وانقضى الوقت وتبدأ ، وأخذ رستم يتقلب في
سريره ضجراً ، وأخيراً ترفق به ملاك النوم ، فطوقه بذراعيه .

نام رستم ، ولم يكذ يستغرق في نومه حتى رأى فيما يرى النائم ملكاً
وأعربياً يدخلان عسكر الفرس ، وعلم أن الأعربى هو عمر خليفة
المسلمين ، ثم رأى الملك يتجه إلى سلاح فارس فيختمه ثم يخزمه ، ويدفعه إلى
عمر . فاستيقظ رستم من نومه ، وأحس قلقاً وتبرماً ، وأخذت الأفكار السود
تهاجمه ، وكان يحاول طردها بلا جدوى . وغابه النوم فنام ثانية ، ولكنه ما لبث
أن رأى أعربياً يدخل عليه ويدبحه ذبح الشاة ، فهب من نومه مذعوراً ، وراح
يتحسس رقبتة ، واستوى في سريره وقد طار النوم من عينيه ، وجعل يفكر في
الحرب ، فرأى أن خير ما يفعله الفرس مهادنة العرب .

ولد النهار فخرج رستم من معسكره ، ويم صوب معسكر المسلمين ،
وسار فوق قنطرة القادسية ، وأرسل رجلاً إلى زهرة بن الحوية ، فوافاه فراح
رستم يحادثه ويعرض عليه جعلاً على أن ينصرف عنه ، وقال له :

— أنتم جيراننا ، وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا ، فكنا نحسن جوارهم ، ونكف الأذى عنهم ، ونوليهم المرافق الكثيرة ، ونحفظهم في أهل باديتهم ، فترعيهم مراعيينا ، ونميرهم من بلادنا ، ولا نمنعهم من التجارة في شيء من أرضنا ، وقد كان لهم معاش .

— صدقت ، قد كان ما تذكر ، وليس أمر أولئك ، ولا طلبتنا طلبتهم . إنا لم نأتكم لطلب الدنيا ، إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة . كنا كما ذكرت يدين لكم من ورد عليكم منا ، ويضرع إليكم يطلب ما في أيديكم ، ثم بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولا ، فدعانا إلى ربه فأجبناه ، فقال لنبيه ﷺ : إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدين بديني ، فأنا منتقم بهم ، واجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به ، وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذل ، ولا يعتصم به أحد إلا عز .
— وما هو ؟

— أما عموده الذي لا يصلح منه شيء إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والإقرار بما جاء من عند الله .

— وأى شيء أيضاً ؟

— وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى .

— حسن . وأى شيء أيضاً ؟

— والناس بنو آدم وحواء ، أخوة لأب وأم .

— أرأيت لو أتي رضىت بهذا الأمر ، وأجبتكم إليه ومعى قومى ، كيف يكون أمركم . أترجعون ؟

— أى والله . ثم لا نقرب بلادكم أبداً ، إلا فى تجارة أو حاجة .

جمع رستم أشراف أمته وقواده ، وراحوا يتذاكرون ما يفعلون . فقال لهم رستم : أنه يرى أن يرسل إلى سعد ليعث لهم رجلا من قومه يكلمونه ويكلمهم ، فوافق القوم . وبلغ الرسول معسكر المسلمين ، فرأى سعد أن

يرسل وفدا من ذوى الرأى والنظر ، ولكن ربعى بن عامر قال له :
— إن الأعاجم لهم آراء وآداب ، ومتى نأتهم جميعاً ، يروا أنا قد احتفلنا
بهم ، فلا تزدهم على رجل .

فوافق الجميع على هذا الرأى ، فقال ربعى :

— فسر حوفى .

خرج ربعى إلى معسكر رستم ، فلما بلغ القنطرة ، احتبسه الذين عليها ،
وأرسلوا لرستم أن رسولا من قبل المسلمين قد أقبل ، فجعل رستم يستعد
لملاقاته ، وشاء أن يسلبه لبه بما عنده ، فأمر ببسط البسط والتمارق ، ووضع
سرير الذهب ، وألبس زينته من الأنماط والوسائد المنسوجة بالذهب ، وتمدد
رستم عليه ، ثم أمر بدخول الرسول .

أقبل ربعى على فرس له زباء قصيرة ، ومعه سيف ، كان غمده لفافة ثوب
خلق ، ورمحه معلوب بقد . واستمر على فرسه حتى بلغ أدنى البسط ، فقال له
من كانوا حول رستم :

— انزل .

فاستمر يسير بفرسه حتى وقفت على البساط ، فنزل عنها وتلفت حوله
يبحث عن شيء يربطها به ، فلم يجد إلا وسادتين مزر كشتين ، فشققهما ،
وأدخل الحبل فيهما ، ثم ربط الفرس . ونظر إليهم ، فلم يجد من يحاول أن يمنعه ،
فأيقن أنهم أرادوا أن يروه التهاون ، فهب واقفاً ، وتقدم نحو رستم ، فقالوا له :
— ضع سلاحك .

— إني لم آتكم فأضع سلاحى بأمركم ، وأنتم دعوتموني ، فإن أبيتم أن آتيكم
إلا كما أريد وإلا رجعت .

وبلغ رستم مقالته فقال :

— ائذنوا له ، هل هو إلا رجل واحد ؟

فأقبل ربعى يتوكأ على رمح ، وشاء استحراجهم ، فراح يعمل رمح في النمارق والبسط وهو سائر ، فما ترك لهم نمرقة ولا بساطاً إلا أفسده ، وتركه متهتكاً مخرقاً ، فلما دنا من رستم التف به الحرس ، فجلس على الأرض وركز رمحاً بالبسط . وعرض عليه رستم الجلوس بالقرب منه فقال :

— إنا لا نستحب القعود على زينتك .

— ما جاء بكم ؟

— الله ابتعثنا ، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعواهم إليه ، فمن قبل ذلك منا قبلنا ذلك منه ، ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه يليها دوننا . ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضى إلى موعود الله .

— وما موعود الله ؟

— الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقى .

— قد سمعت مقالتيكم ، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه

وتنظروا ؟

— نعم . كم أحب إليكم . أيوما أم يومين ؟

— لا . بل حتى نكتب أهل رأينا ورؤساء قومنا .

— إن مما سن لنا رسول الله ﷺ ، وعمل به أئمتنا ألا نمكن الأعداء من آذاننا ، ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث ، فنحن مترددون عنكم ثلاثاً ، فانظر في أمرك وأمرهم ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل : اختر الإسلام ، وندعك وأرضك ؛ أو الجزاء فنقبل ونكف عنك ؛ وإن كنت عن نصرنا غنياً تركناك منه ؛ وإن كنت إليه محتاجاً منعناك ؛ أو المنابذة في اليوم الرابع . ولسنا

نبدأك فيما بيننا وبين اليوم إلا أن تبدأنا . أنا كفيل بذلك على أصحابي ، وعلى جميع من ترى .

— أسيدهم أنت ؟

— لا . ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض ، يجير أدناهم على أعلاهم .

فاختلى رستم برؤساء أهل فارس وراح يحادثهم ، ثم عادوا إلى الأعرابي ، وجعل أحدهم يسخر من سيفه ، ومن غمده الخلق . فأخرج سيفه من خرقته كأنه شعلة نار ، ثم غمده ، وقال لهم وهو ينصرف :
— انظروا إلى الأجل .

وخرج وتركهم فاغرى أفواههم من الدهشة .

رأى رستم أن يمد في حبل المفاوضة بينه وبين المسلمين ، لعله يوفق إلى تحاشي حربهم . إنه ليحس إحساساً غامضاً أن الدائرة ستدور عليهم إن قاتلوهم ، وإنه ليفزع كلما تذكر رؤياه التي أقضت من مضجعه . ليته يستطيع أن يمنع هذه الحرب البشعة التي تلوح له بوجهها البغيض بين لحظة وأخرى ، فأرسل إلى سعد أن ابعث إلينا ذلك الرجل ، فبعث إليهم سعد حذيفة بن محصن ، فانطلق حذيفة على جواده حتى بلغ أدنى بساط رستم ، فقبل له :

— انزل .

— ذلك لو جئتم في حاجتي ، فقولوا للملككم أله الحاجة أم لي ، فإن قال لي فقد كذب ، ورجعت وتركتكم ، فإن قال له لم آتكم إلا على ما أحب . وبلغت رسالة حذيفة إلى رستم ، فقال :

— دعوه .

فتقدم بجواده ، حتى أصبح بالقرب من سرير رستم . فالتفت إليه رستم وقال له :

— انزل .

— لا أفعل .

— ما بالك جئت ، ولم يجيء صاحبنا بالأمس .

— إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا في الشدة والرخاء . فهذه نوبتي .

— ما جاء بكم ؟

— الله عز وجل من علينا بدينه ، وأرانا آياته حتى عرفناه وكناله منكرين . ثم أمرنا بدعاء الناس إلى واحدة من ثلاث ، فأبها أجابوا إليها قبلنا : الإسلام وننصرف عنكم ، أو الجزاء ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك ، أو المنابذة .

— أو المصادقة إلى يوم ما ؟

— ثلاثا من أمس .

وتركهم وخرج ، فراح أشراف فارس يتشاورون ، وجعلوا يعجبون من هؤلاء القوم الذين يحادثون رستم كما يحادثون عبداً من العباد . إنهم يعرفون رستم ومكانته ، فما بالهم لا يوقرونه ويبجلونه ؟! إنهم يتحدثون عن النصر تحدثهم عن اليقين ، وإنهم به لمؤمنون ، وكأنهم اطلعوا على الغيب فرأوا فيه نصرهم مسطرا ، وظفرهم أمرا مقدرا لاشية فيه . ومضى الليل على رستم كأسوأ ما يمضي ليل ، وفي الصباح أرسل إلى سعد أن ابعث لنا رجلا ، فأنفذ لهم المغيرة بن شعبة ، وسار المغيرة حتى دخل على القوم ، وكانوا في زيهم عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب ، ورأى رستم جالسا على سرير ، فاتجه إليه وجلس معه على سرير ، فأسرع الحرس إليه وأنزلوه فالتفت إليهم في استخفاف ، وأجال نظره فرأى عبيدا كثيرين ، فقال الداهية ، وكأنما شاء أن ييذر بذور الفتنة بينهم :

(سعد بن أبي وقاص)

— كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوما أسفه منكم . إنا معشر العرب سواء ، لا يستعبد بعضنا بعضا إلا أن يكون محاربا لصاحبه ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نواسي ، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض ، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكن دعوتموني . اليوم علمت أن أمركم مضطحل ، وأنكم مغلوبون ، وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ، ولا على هذه العقول .

فهمهم العبيد برهة ، وراح رؤساء القوم ينظرون بعضهم إلى بعض ، ورأى رستم أن ينقذ الموقف بحصافته ، فمازح المغيرة وقال له :
— إن الحاشية قد تصنع ما لا يوافق الملك .

ثم أردف :

— ما هذه المغازل التي معك ؟

— ما ضر الجمرة (السيف) ألا تكون طويلة .

— وما بال سيفك رثا ؟

— رث الكسوة حديد المضربة .

— كنتم أهل قشف ، ومعيشة سيئة ، لا نراكم شيئا ولا نعدكم ، وكنتم إذا قحطت أرضكم ، وأصابتكم السنة استغثتم بناحية أرضنا ، فنأمر لكم بالشئ من التمر والشعير ثم نردكم ، وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من جهد في بلادكم . فأنا أمر لأمركم بكسوة ونعل وألف درهم ، وأمر لكل رجل منكم بوقر تمر وبثوبين وتنصرفون عنا ، فإني لست أشتهي أن أقتلكم أو أسرکم .

— ليس أمامك إلا الإسلام أو الجزية أو السيف .

فاستشاط غضب رستم ، وأيقن ألا مفر من القتال ، فأقسم :

— والشمس ، لا يرتفع لكم الصبح غدا حتى أقتلكم أجمعين .

الفصل السادس عشر

الإنذار الأخير

« والله لإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم » .

أرسل عمر إلى سعد يستحثه على قتال القوم ، فقد تصرمت الشهور ، ولم يقع قتال بعد ، وأرسل يزيد جرد إلى رستم يأمره بمناجزة القوم ، فتأهب سعد ، وأرسل إلى رستم الإنذار الأخير ، أرسل إليه ثلاثة من ذوى رأى ، فلما دخلوا عليه قالوا له :

— إن أميرنا يقول لك : إن الجوار يحفظ الولاء ، وإنى أدعوك إلى ما هو خير لنا ، ولك العافية أن تقبل ما دعاك الله إليه ، ونرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك ، وبعضنا من بعض ، إلا أن داركم لكم ، وأمركم فيكم ، وما أصبتم مما وراءكم كان زيادة لكم دوننا ، وكنا لكم عوناً على أحد إن أرادكم ، أو قوى عليكم . واثق الله يا رستم ولا يكونن هلاك قومك على يدك ، فإنه ليس بينك وبين أن تغبط به إلا أن تدخل فيه وتطرد به الشيطان عنك .

— إنى قد كلمت منكم نفرا ولو أنهم فهموا عنى ، رجوت أن تكونوا قد فهمتم ، وإن الأمثال أوضح من كثير من البيان ، وسأضرب لكم مثلكم : إن الذباب إذا رأى عسلاً طار ، وقال : من يوصلنى إليه ، وله درهمان ، حتى يدخله ، لا ينه أحد إلا عصاه ، فإذا دخله غرق ونشب وقال : من يخرجنى له أربعة دراهم . وإنما مثلكم مثل ثعلب دخل جحراً وهو مهزول ضعيف إلى كرم ، فكان فيه يأكل ما شاء الله ، فرآه صاحب الكرم ، ورأى ما به فرحمه ،

فلما طال مكثه في الكرم وسمن ، وصلحت حاله ، وذهب ما كان به من هزال ، أشر فجعل يعيث بالكرم ، ويفسد أكثر مما يأكل ، فاشتد على صاحب الكرم ، فقال : لا أصبر على هذا من أمر هذا ، فأخذ له خشبة واستعان عليه غلماناه ، فطلبوه ، وجعل يروغهم في الكرم . فلما رأى أنهم غير مقلعين عنه ، ذهب ليخرج من الجحر الذي دخل منه ، فنشب ، اتسع عليه وهو مهزول ، وضاق عليه وهو سمين ، فجاءه وهو على تلك الحال صاحب الكرم ، فلم يزل يضربه حتى قتله . وقد جئتم وأنتم مهازيل ، وقد سمنت شيئا من سمن ، فانظروا كيف تخرجون .

إن رجلا وضع سلا ، وجعل طعامه فيه ، فأتى الجرذان ، فخرقوا سله فدخلوا فيه ، فأراد سده ، فقبل له : لا تفعل ، إذن يخرقنه ، ولكن انقب بجياله ، ثم اجعل فيهما قصبة مجوفة ، فإذا جاءت الجرذان دخلن من القصبة وخرجن منها ، فكلما طلع عليكم جرذ قتلتموه ، وقد سددت عليكم ، فإياكم أن تقتحموا القصبة ، فلا يخرج منها أحد إلا قتل .

فقال أحد المسلمين :

— والله لإسلامكم أحب إلينا من غنائمكم ، ولقتالكم بعد أحب إلينا من صلحكم ، وأما ما ضربتم لنا من الأمثال ، فإنكم ضربتم للرجال والأمور الجسام وللجد الهزل ، ولكننا سنضرب مثلكم : إنما مثلكم مثل رجل غرس أرضا ، واختار لها الشجر والحب ، وأجرى إليها الأنهار ، وزينها بالقصور ، وأقام فيها فلاحين يسكنون قصورها ، ويقومون على جناتها ، فخلا الفلاحون في القصور على ما لا يحب ، وفي الجنان بمثل ذلك ، فأطال نظرتهم ، فلما لم يستحيوا من تلقاء أنفسهم ، استعتبهم ، فكابروه ، فدعا إليها غيرهم ، وأخرجوهم منها ، فإن ذهبوا عنها تخطفهم الناس ، وإن أقاموا فيها صاروا خولا لهؤلاء يملكونهم ولا يملكون عليهم ، فيسومونهم الخسف أبدا .

الفصل السابع عشر

القادسية

يوم أرمات

﴿ لقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض
يرثها عبادى الصالحون ﴾ .

(قرآن كريم)

أحس سعد بألم شديد ، إن به عرق السبا ، ود سامل تمنعه من الجدرس . إنه لا يستطيع أن يركب أو ينزل إلى أصحابه ، وجاءه رسول رستم بسأله ، إما أن يعبر لهم ، وإما أن يتركهم يعبرون ، فقال سعد له : بل اعبروا أنتم . وخرج الرسول ، وأحس سعد ضيقا ، إنه لن يستطيع أن يشترك في أول معركة بينه وبين الفرس ، إنه ليود أن يقابل المشركين كما يقابل مشركى مكة في بدر وأحد ، وأن يضرب بقوة ، ويصول ويجول كما ضرب وصال وجال في تلك الأيام الخوالى . وعاد الخيال به القهقرى ، فتذكر يوم أحد ، يوم ثبت مع النبى يذب عنه ، ويوم قال له النبى الحبيب : أرم أيها الغلام الحزور فداك أبى وأمى . فثار الدم في عروقه ، وراح يتململ في مرقده . ليته يستطيع أن يقف على قدميه ، إذن لنزل إلى أصحابه ، ولحادثهم ولشاورهم في الأمر . وأرسل إلى خالد بن عرفة ، واستخلفه على الناس .

علم المسلمون أن سعداً لن يشترك في المعركة ، فأخذوا يتنادرون به ، وأعلموا أنه استخلف خالد بن عرفطة ، فاختلفوا عليه . وبلغ سعدا أن الناس يتغامزون عليه ، وأنهم يسخرون به ، وأن الناس اختلفوا على خالد فاستشاط غضبه ، وقال لبعض من حوله : احملوني وأشرفوا بي على الناس فحملوه فأكب مطلعا عليهم من سطح القصر ، فلما رأى الناس ما به من وجع عذروه ، وقال :

— أما والله لولا أن عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالا لغيركم .

فقال جرير :

— أما إني بايعت رسول الله ﷺ على أن أسمع وأطيع لمن ولاه الله الأمر ،

وإن كان عبدا حبشيا ، فقال سعد :

— والله لا يعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم ، ويشاغلهم وهم

بإزائهم إلا سننت به سنة يؤخذ بها من بعدى .

وقلت الفتنة في مهدها ، قبل أن تشتد وتقوى فيستفحل خطرهما ، وراح

سعد يوصي القوم بعد ذلك ، فراح يخطبهم من قصره ، وهو مكب على وجهه :

— إن الله هو الحق لا شريك له في الملك ، وليس لقوله خلف ، قال الله جل

ثناؤه : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى

الصالحون ﴾ . إن هذا ميراثكم وموعد ربكم ، وقد أباحها لكم منذ ثلاث

حجج ، فأنتم تطعمون منها ، وتأكلون منها ، وتقتلون أهلها وتجبنونهم ،

وتسبونهم إلى هذا اليوم بما نال أصحاب الأيام منكم ، وقد جاءكم هذا الجمع

وأنتم وجوه العرب ، وخيار كل قبيلة ، وعز من وراءكم ، فإن تزهدوا في الدنيا ،

وترغبوا في الآخرة ، جمع الله لكم الدنيا والآخرة ، ولا يقرب ذلك أحداً إلى

أجله ، وإن تقعدوا وتهنوا وتضعفوا تذهب ريحكم وتوبقوا آخرتكم .

وثارت حمية الرؤساء ، فقام عاصم بن عمرو بخطب القوم :
— هذه بلاد قد أحل الله لكم أهلها وأنتم تنالون منهم ثلاث سنين ما
لا ينالون منكم ، وأنتم الأعلون ، والله معكم إن صبرتم وصدقتموهم الضرب
والطعن ، فلکم أموالهم ونسأؤهم وبلادهم ، وإن خرتم وفشلتم ، والله لكم من
ذلك جار وحافظ ، لم يبق هذا الجمع منكم باقية ، مخافة أن تعودوا عليهم
بعائدة هلاك . الله الله اذكروا الأيام وما منحكم الله فيها ، أو لا ترون أن
الأرض وراءكم بسابس قفار ليس فيها خمر ولا وزر يعقل إليه ولا يمتنع به ،
اجعلوا همكم الآخرة .

وأرسل سعد إلى ذوى الرأى والنجدة والشعر ، فوافاه المغيرة وحذيفة
وعاصم ، وطليحة وغالب وعمرو بن معد يكرب والخطيئة الشاعر وغيرهم
فلما دخلوا عليه . قال لهم :

— انطلقوا ، فقوموا فى الناس بما يحق عليكم ، ويحق عليهم عند مواطن
الأس ، فإنكم من العرب بالمكان الذى أنتم به ، وأنتم شعراء العرب
ونخطبائهم ، وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم ، فسيروا فى الناس فذكروهم
وحرصوهم على القتال .

فخرجوا من عنده وقد عزموا على إثارة حمية القوم ، وحشهم بأحسن ما
فيهم ، فلما بلغوا الناس ، وقف قيس بن هبيرة بخطب :

— أيها الناس ، احمدا الله على ما هداكم له وأبلاكم يزدكم ، واذكروا آلاء
الله ، وارغبوا إليه فى عاداته . فإن الجنة أو الغنيمة أمامكم وإنه ليس وراء هذا
القصر إلا العراء ، والأرض القفر ، والظراب الخشن والفلوات التى لا يقطعها
الأدلة .

وتقدم غالب وقال :

— أيها الناس ، احمدا الله على ما أبلاكم ، وسلوه يزدكم ، وادعوه يجيبكم . يا
معشر معد ، ما علتكم اليوم ، وأنتم في حصونكم (خيلكم) ، ومعكم من لا
يعصيكم (سيوفكم) . اذكروا حديث الناس في غد ، فإنه بكم غديداً عنده ،
وبمن بعدكم يثنى .

وتقدم ابن الهذيل الأسدي وقال :

— يا معشر معد ، اجعلوا حصونكم السيوف ، وكونوا عليهم كأسود
الأجم ، وتربضوا لهم تربض الثمر ، وادرعوا العجاج ، وثقوا بالله وعضوا
الأبصار ، فإذا كلت السيوف فإنها مأمورة ، فأرسلوا عليهم الجنادل ، فإنها
يؤذن فيما لا يؤذن للحديد فيه .

وتقدم بسر وقال :

— احمدا الله ، وصدقوا قولكم بفعل ، فقد حمدتم الله على ما هداكم له ،
ووحدتموه ولا إله غيره ، وكبرتموه وآمنتم بنبيه ورسله ، فلا تموتن ألا وأنتم
مسلمون . ولا يكونن شيء أهون عليكم من الدنيا . فإنها تأتي من تهاون بها .
ولا تميلوا إليها ، فتهرب منكم لتميل بكم ، انصروا الله ينصركم .

وقام عاصم بن عمرو وقال :

— يا معشر العرب ، إنكم أعيان العرب وقد صمدتم للأعيان من العجم ،
وإنما تخاطرون بالجنة ، ويخاطرون بالدنيا ، فلا يكونن على دنياهم أحوط منكم
على آخرتكم ، لا تحدثوا اليوم أمراً تكونون به شيئاً على العرب غداً .

اهتم يزدجرد بأمر هذه الواقعة اهتماماً عظيماً ، وما كان يطيق أن ينتظر
الأنباء حتى تصل إليه ، بل شاء أن تبلغه أولاً بأول ، فوضع رجلاً على باب
إيوانه ، ووضع آخر بخارج الدار ، ووضع ثالثاً على بعد من الثاني بحيث يسمع

ما يهتف به ، ووضع رابعا وخامسا وسادسا وهكذا حتى بلغ الرجال ميدان القتال ، فلما نزل رستم ، صاح من في الميدان :

— نزل رستم .

فصاح من يليه :

— نزل رستم .

فصاح من بعده :

— نزل رستم .

واستمر هذا الخبر ينتقل من رجل إلى آخر حتى بلغ مسامع يزدجرد ، وراح من في الميدان يصف ما يحدث أمامه ، والرجال يتصايحون بما يصف ، راح يضيح :

— رستم يلبس درعين ومغفرا ، ومعه سلاحه ، إنه يأمر بفرسه ، قد أوتى بها ، رستم يقفز فإذا هو على فرسه لم يمسه ، رستم يضع رجله في الركاب ، رستم يلتفت إلى من حوله ويقول :

— سندقهم دقا .

رستم يتحرك إلى ميدان القتال ... رستم يعبى في القلب ثمانية عشر فيلا عليها الصناديق والرجال .. وفي المجنبتين ثمانية وسبعة عليها الصناديق والرجال . الجالينوس بينه وبين ميمته ، والبيرزان بينه وبين ميسرته ... القنطرة بين خيلين من خيولنا وخيول المسلمين .. الأعداء يأخذون مصافهم .

واستمر من في الميدان يصف ما يحدث أمامه ، فتبلغ الأنباء يزدجرد وهو في إيوانه .

راح سعد يطل على ساحة القتال من قصره وما كان بمسطيع التحرك ، فقد كان منكفئاً على صدره ، وكان القصر مفتوحاً لا باب له . فلو أن المسلمين هزموا ، ودارت عليهم الدوائر لأخذ سعد أخذاً ، ولكنه لم يقم لذلك وزناً ، وكان همه الأعظم أن يدير المعركة من مكانه ، وأن يبذل ما في وسعه حتى ينتصر المسلمون ، فيعوض ما فاتته من الاشتراك في المعركة . وصاح من مكانه :

— الزموا مواقفكم . لا تحركوا شيئاً حتى تصلوا الظهر ، فإذا صليتم الظهر فإني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا ، واعلموا أن التكبير لم يعطه أحد غيركم ، واعلموا أنما أعطيتموه تأييداً لكم ، ثم إذا سمعتم الثانية فكبروا ولتستم عدتكم ، ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشط فرسانكم الناس ليرزوا وليطاردوا ، فإذا كبرت الرابعة ، فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم ، وقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله .

وأرسلت أم إلى أبنائها الأربعة ، الذين كانوا في جيش المسلمين ، فدخلوا عليها وسلموا ، فقالت لهم :

— إنكم أسلمتم فلم تبدلوا ، وهاجرتم فلم تثربوا ، ولم تنب بكم البلاد ، ولم تقحمكم السنة ، ثم جئتم بأمكم عجوز كبيرة ، فوضعتموها بين أيدي أهل فارس ، والله إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، انطلقوا فاشهدوا أول القتال وآخره .

وارتفع صوت المؤذن يؤذن بالظهر ، فخرجوا من عندها ، لينضموا إلى إخوانهم المصلين ، ليسألوا الله نصره وتأييده ، ولما غابوا عنها رفعت يديها إلى السماء . وقالت مبتهلة إلى الله :

— اللهم ادفع عن بني .

وقضيت الصلاة ، وسرى صوت سعد :
— الله أكبر .

فكبر الناس خلفه ، فارتج المكان ، وأسرعوا إلى صفوفهم ، ومرت مدة ثم
هتف سعد :

— الله أكبر .

فتهاى الرجال للنزال ، واستتموا عدتهم ، وانتظروا سماع التكبير الثالثة
ليبرز أهل النجدات . ولم ينقض كبير وقت حتى كبر سعد التكبير الثالثة ،
فكبر الناس خلفه ، وخرج غالب بن عبد الله يطلب الطعن والنزال ، فبرز له
هرمز ، وكان متوجا ، عليه ثياب جياذ ، فدارا كليثين كاسرين ، وتبادلا
الضربات ، وكان كل يتقى ضربات خصمه ، واستمر القتال بينهما وكان
غالب يشد على غريمه ، وبان على هرمز الإعياء ، وحام الموت فوقه ، وأحس
هرمز باقتراب الموت إليه ، فسلم ، فأسره غالب ، فارتفعت أصوات المسلمين
بالتكبير ، وقاد غالب هرمز أمامه حتى بلغ القصر وسلمه إلى سعد ، وعاد إلى
الميدان لاستئناف الضرب والقتال .

وخرج عاصم بن عمرو ، وخرج له رجل من أهل فارس ، وما كادوا
يتبادلان الضربات حتى فر الفارسي ، فجد عاصم في أثره ، واختفى الرجل في
صفوف الأعداء ، ولمح عاصم رجلا معه بغلة ، فمال نحوه ، فلما لمح الرجل
ورأى سيفه يطل منه المنون ، فر منزعجا تارك البغلة وما عليها ، فاستلبها
عاصم ، وعاد بها إلى سعد ، ولما فحص ما تحمل وجد أطعمة فاخرة ، لقد كان
الرجل خباز رستم ، فأمر سعد بتوزيعها على الجند .

وبينا الناس في انتظار التكبير الرابعة ، ليشدوا النواجد على الأضراس ،
ويحملوا على القوم ، كان عمرو بن معد يكرب يحضض الناس بين الصفين .

وبرز رجل من الفرس ، وراح يسدد سهامه صوب المسلمين فما أخطأت سية قوسه وهو متنكبها ، وارتطم سهم من سهامه بدرع عمرو بن معد يكرب ، فثار عمرو ، وخرج إليه ، وانقض عليه انقضاض وحش كاسر ، فاعتنقه ، ثم أخذ بمنطقته فاحتمله بين يديه ، وسار به حتى بلغ صفوف المسلمين ، فوضعه وكسر عنقه ، ثم وضع سيفه على حلقه فذبحه ، ثم ألقاه ، والتفت إلى قومه وقال : — هكذا فاصنعوا بهم .

فقال بعضهم :

— يا أبا ثور من يستطيع أن يصنع كما تصنع ؟
وقفت بجيلة تستعد للقتال ، وراح جرير بن عبد الله البجلي يحرض قومه ، ووجه رستم إليهم ستة عشر فيلا ، عليها التوايت ، وكان على كل فيل عشرون راكبا . وارتفع صوت سعد بالتكبير الرابعة ، ولما صكت آذان المسلمين كبروا خلفه ، وتزاحفوا ليقاتلوا في سبيل الله صفا كأنهم بنيان مرصوص . حمل أصحاب الفيلة على بجيلة ، ففرقت بين الكتائب ، وذعرت الخيل فنفرت ، ودبت الفوضى بينهم ، فراح بعضهم يولى الدبر ، وكان سعد يشرف على المعركة من سطح قصره ، وبجواره سلمى التى تزوجها بعد موت المثنى زوجها ، وأخذوا يشاهدان ما أصاب بجيلة ، فتملعل سعد ، وبان الضيق فى وجهه ، ورأت سلمى فرار الخيل ، فصاحت :
— وامثنياه ولا مثنى للخيل اليوم .

فضاق سعد ذرعاً ، وأحس كأنها لطمته لطمة قاسية ، فما أقعده عن القتال إلا ما به ، فلم يشعر إلا وهو يلطم وجهها ، فظهر الحق فى وجهها ، وشاءت أن تقتص منه ، وأن تنال من كبريائه كما نال من كبريائها ، فقالت له :
— أغيرة وجبنا ؟!

وتركته وانصرفت .

وراح سعد يتطلع إلى القتال الدائر تحت بصره ، فرأى بجيلة تكاد أن تؤكل ، فأرسل إلى بنى أسد :

— ذبيوا عن بجيلة ومن لافها من الناس .

فقام طليحة بن خويلد يستحث قومه ، فصاح :

— يا عشيرتاه ، إن المنوه باسمه الموثوق به ، وأن هذا لو علم أن أحداً أحق بإغاثة هؤلاء منكم استغاثهم ، ابتدئوهم الشدة ، وأقدموا عليهم أقدام الليوث الحربة ، فإنما سميت أسداً لتفعلوا فعله . شدوا ولا تصدوا ، وكروا ولا تفروا . لله در ربعة ، أى فرى يفرون ، وأى قرن يعنون ، هل يوصل إلى موافقهم ، فأغنوا عن موافقكم ، أعانكم الله ، شدوا عليهم باسم الله .

فشد القوم ، وانطلقوا لشد أزر بجيلة ، وراحوا يطعنون الفيلة ، ولكن الفيلة كانت تشيع الفوضى بينهم ، وبرز فارس لطليحة ، فراحا يقتتلان ودار بينهما قتال رهيب بين صهال الخيل النافرة ، وتكبيرات المسلمين المدوية ، وسدد طليحة إليه ضربة قاتلة ، فأرداه مجندلاً يخط في دمه ، وانضم إلى إخوانه ليزب عنهم ، ولكن الفيلة راحت تمزق صفوف المسلمين تمزيقاً .

رأى الأشعث بن قيس ما تفعل الفيلة ببجيلة وبنى أسد ، فشاء تخريض قومه ليهبوا لنصرتهم ، فقام وقال :

— يا معشر كندة ، لله در بنى أسد ، أى فرى يفرون وأى هذ يهذون عن موقفهم . منذ اليوم أغنى كل قوم وما يليهم ، وأنتم تنظرون من يكفيكم البأس . أشهد ما أحسنتم أسوة قومكم العرب منذ اليوم ، وإنهم ليقتلون ، ويقاتلون ، وأنتم جثاة على الركب تنظرون .

فثار الغضب فيهم ، ووثب إليه عدد منهم ، وقالوا محققين :

— عمر الله جددك ، إنك لتؤيسنا جاهدا ، ونحن أحسن الناس موقفا ، فمن أين نخذلنا قومنا العرب وأسأنا أسوتهم ، فيها نحن معك .
فانطلق وانطلقوا معه ، يهاجمون الفيلة ومن عليها ، ورأى الفرس ما تلقى الفيلة من المسلمين ، في هذه الناحية ، فانضم ذو الحاجب والجالينوس بمن معهم إلى هذه الناحية ، فدارت رحي معركة رهيبة ، معركة لا شفقة فيها ولا لين ، فقد عزم المسلمون على إعلاء كلمة الله ، وأخذ الفرس يذبون عن الوطن الحبيب ، عن الأنفس والأهل والديار ؛ واستمرت المعركة قاسية هائلة ، واستمرت الفيلة تعمل عملها الرهيب ، فأحس سعد في مكانه بخطرهما على أصحابه ، وراح يدور بعينه في الميدان يبحث عمن يرسله إليها ليريجع منها ومن أهوالها ، فلم يجد إلا بغى تميم كفوا لها ، فأرسل إلى عاصم بن عمرو يقول له أن يكفه هذه الفيلة ، فوقف عمرو وقال :

— يا معشر بنى تميم ، أستم أصحاب الإبل والخيول ، أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة ؟

— بلى والله .

ونادى قوما من الرماة وقال لهم :

— يا معشر الرماة ذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل ؟

ونادى قوما آخرين وقال لهم :

— استدبروا الفيلة واقطعوا وضيها .

فشد الرماة قسيهم ، وأخذت السهام تتطاير في الجو ، وثبتت في صدور الرجال الراكبين الفيلة ، وتسلى من انتدبهم عمرو حتى أصبحوا خلف الفيلة ، وراحوا يزحفون بحذر حتى اقتربوا منها ، فأخذوا بأذنانها ، وذباذب توابيتها فقطعوا وضيها ، فسقط من في التوابيت ، فارتفع صياحهم ، وراحت

الفيلة تدوس فيمن وقع ، وفرت الفيلة . وشاع الاضطراب في صفوف
الفرس ، وخف الضغط على أسد وبجيلة ، وراح الناس يعتورون القتال ،
ويتبادلون الضرب والطعان ، ويصولون ويجولون ، وسعد في قصره مشرف
على القوم ، يدعو الله أن يؤيد دينه ، ويتم نصره .

مالت الشمس نحو الأفق ، والمعركة ، دائرة على أشدها .. لم يظهر فريق ،
وأخذت الشمس في المغيب ، حتى أغمض الأفق البعيد جفنه عليها ، وأخذت
المعركة تنحف شيئاً فشيئاً ، حتى توقف الفريقان ، وراحا يتأهبان لاستئنافها مع
الصباح .

انتظرت الأم العجوز أوبة أولادها الأربعة ، فلما عتمت الدنيا دخلوا عليها
جميعاً سالمين ، فحمدت الله وراحت تحثهم على استئناف القتال في اليوم التالي
أشد عزيمة ، وأوثق أملاً ؛ واتجهوا ليناموا على أن يهبوا مع الصباح لاستئناف
قتال المشركين .

الفصل الثامن عشر

يوم أغواث

ارتفعت الشمس فهب الإخوة الأربعة من نومهم ، وحملوا سلاحهم وخرجوا لينضموا إلى إخوانهم ، وقبل أن ينطلقوا أخذت أمهم تذكرهم بأحسن ما فيهم ، وتدعوهم لقتال المشركين بعزم صادق ، وقلب ثابت ، فإن ظهروا كان النصر المبين ، وإن ماتوا فإلى جنات النعيم ، مع الشهداء والقديسين . ولما غابوا عن عينيها ، رفعت يديها إلى السماء تبتهل إلى الله ألا يفجعها فيهم ، وأن يعيدهم إليها سالمين .

انطلق الإخوة الأربعة إلى ميدان القتال ، فوجدوا المسلمين على تعبئة ، وكان بعض الرجال ينقلون الشهداء إلى العذيب ، وبعضهم ينقلون الرثيث إلى النساء يقمن عليهم ، فانضم الإخوة إلى كتيبتهم ، واستعدوا السماع الأمر بالزحف ليتزاحفوا ، وبينما كان المسلمون يتأهبون للقتال ، إذ لحوا فارسا يطوى الأرض طيا ، وينهبانها ، وينطلق وينطلق كالشهاب نحوهم ، فتطلعوا إليه ، ولما اقترب منهم ترجل عن فرسه ؛ فصاح بعضهم :

— إنه القعقاع بن عمرو .

وقال آخرون :

— هذا من قال أبو بكر عنه : لا ينهزم جيش فيهم مثل هذا .

وسلم القعقاع على الناس وسأل عن سعد ، فلما علم بمرضه وأنه في القصر ، اتجه إليه ، وصعد فألقى سعدا على بطنه ينظر إلى ميدان القتال

فسلم عليه ، وقال له :

— أرسل عمر إلى أبي عبيدة كتابا بصرف أهل العراق أصحاب خالد مددا لك ، فصرح أبو عبيدة ستة آلاف ، وأمر عليهم ابن أخيك هاشم بن عتبة ، فأمرني هاشم على مقدمته ، فرأيت أن أسرع لأبشركم بالمدد العظيم .

— إنه النصر إن شاء الله .

— قد عاهدت إلى أصحابي الذين معي أن يتقطعوا أعشارا ، وهم ألف ، فكلما بلغ عشرة مدى البصر سرحوا في آثارهم عشرة ، وإني لأمل أنه كلما وصلت جماعة إلى القتال مكبرة ، زلزلت الأعداء زلزالا .

فبان البشر في وجه سعد ، وسرى الأمل الدفء في صدره ، وخرج القعقاع إلى الناس وخطبهم .

— يا أيها الناس ، إني قد جئكم في قوم والله أن لو كانوا مكانكم ثم أحسواكم حسدوكم حظوتها ، وحاولوا أن يطيروا بها دونكم ، فاصنعوا كما أصنع .

وتقدم القعقاع للمبارزة ، وانتشت أفئدة المسلمين ، إن المدد قريب ، وسينضم إليهم ويشد أزركم ، وسيظهرهم الله على عدوه وعدوهم ، وسينصرهم نصرا مؤزرا .

وتقدم القعقاع من صفوف الأعداء وهتف :

— من يبارز ؟

فخرج إليه فارس عليه ثياب موشاة ، تعلوه مهابة ، ويدل مظهره على أنه من وجوه القوم ، فسأله القعقاع :

— من أنت ؟

(سعد بن أبي وقاص)

— أنا بهمن جاذويه .

فصاح القعقاع :

— يا لثارات أبى عبيد ، وسليط ، وأصحاب يوم الجسر .

وانقض عليه ، وضربة ضربة ، ألقاها جاذويه ، وأخذوا يحومان حول بعضهما ويتبادلان الضربات ، ويتفاديانها بحذق ومهارة ، وأخيرا سددهم القعقاع ضربة قاتلة ، فسقط جاذويه قتيلًا ، وبرز القعقاع ثانية وصاح :

— من يبارز ؟

فخرج البيرزان والبندوان ليقتصبا لجاذويه ، وخرج الحارث بن ظبيان لينضم إلى القعقاع ، واتجه القعقاع إلى البيرزان ، والحارث إلى البندوان ، وراح سعد يتطلع إلى هذه المباراة ، وكان اهتمامه بها عظيما ، فلو أن القعقاع والحارث انتصرا لخسر جيش الفرس قائدين عظيمين من قوادهم . ودار القتال ، وثار النقع ، وأخذ صوت تقارع السيوف يقرع الآذان ، فيثير الخوأس جميعا ، ويجعل الحماسة تفور في الصدور ، وكم سعد أنفاسه ، فقد بلغت المباراة أقصاها ، ها هو القعقاع يحمل على البيرزان حملة صادقة ، وها هو سيفه يرتفع في الهواء ثم يهوى على عدوه فيزرى رأسه ، وشد الحارث على غريمه وضربه ضربة انتهى بها كل شيء ، فأحس سعد راحة ، إنها بداية طيبة . ونظر إلى معسكر الأعداء ، فلم يجد الفيلة ، فقد تكسرت توابيتها بالأمس ولم يتم علاجها بعد ، فحمد سعد الله ، وأمر الناس أن يستعدوا للزحف .

وأخذ جرير يحرض قومه ، وعاصم بن عمرو يحضهم بأحسن ما فيهم ، وعمرو بن معد يكرب يحثهم على قتال المشركين ، وقال القعقاع :

— يا معشر المسلمين ، بأشروهم بالسيوف ، فإنما يحصد الناس بها .

وارتفعت تكبيرة سعد تشق الفضاء فتزاحف الناس ، وراح المسلمون

يضرّبون ويضرّبون ، ووردت الجماعة الأولى من خيل القعقاع مكبرة مهللة ، فكبر المسلمون خلفهم ، ودب النشاط فيهم وأخذوا يقاتلون وقد انتعشت نفوسهم ، ووردت الجماعة الثانية والثالثة والرابعة ، واستمر ورود الجماعات طوال اليوم ، فشد ذلك من أزر المسلمين ، وفت في عضد الأعداء ، فأكثر المسلمون فيهم القتل .

بلغ أصحاب القعقاع الميدان وكانوا على إبل ، قد ألبسوها فهى مجللة مبرقة ، وأطافت بهم خيولهم يحمونهم ، وأمرهم القعقاع أن يحملوا على خيلهم بين الصفين ، فحملوا عليهم ، فأخذت خيول الفرس تنفر من الإبل ، كما نفرت خيول المسلمين من الفيلة أمس ، فدبت الفوضى في صفوف الفرس ، ورأى رجل ممن يحمى الإبل رستم ، فشاء أن ينطلق إليه ، وراح يقتل كل من يقف في طريقه ، وأصبح على بعد خطوات منه ، ولكنه سقط قتيلاً دونه .

انقضى النهار ، وأقبل الليل ، ولكن المعركة لم يخب لها أوار ، فقد رأى المسلمون انتصارهم الباهر ، فشاءوا أن يستمر النزال ، حتى يقضى الله أمره ، واستمر سعد مكبا من فوق القصر ينظر ، فرأى رجلا على فرس بحيال الميمنة يكبر ثم يحمل على ميسرة الأعداء يلعب برمح وسلاحه بين الصفين ، ثم يرجع من خلف المسلمين إلى الميسرة ، فيكبر ويحمل على ميمنة القوم يلعب بين الصفين برمح وسلاحه ، وأخذ يقصف الأعداء قصفا منكرا ، فتعجب سعد من أمره ، وتفرس في الفرس وغمغم :

— إنها فرسى البلقاء ولولا محبس أبى محجن لقلت هذا أبو محجن .

وتطلع مدد القعقاع إلى هذا الفارس المغوار ، وقال بعضهم :

— أوائل أصحاب هاشم .

وقال بعضهم :

— بل هاشم نفسه .

واستمر الفارس يصول ويجول ، ويلعب برمح وسلاحه ، والناس به جد معجبين ، فقال أحدهم :

— إن كان الخضر يشهد الحروب لكان صاحب البلقاء الخضر نفسه ،

وقال آخر :

— لولا أن الملائكة لا تباشر القتال لقلنا : ملك من السماء .

واستمرت المعركة رهيبة ، وانتصف الليل ورحاها دائرة ، وقصف السيف يدوى في الليل ، فيمزق سكونه ؛ وانتصبت الأم العجوز في خيمتها ، تبتهل إلى الله أن يعيد إليها أبناءها سالمين ، وأحست قلقا ، وشعرت بالخوف يهزها ، لقد انتصف الليل ولم يعودوا ، ترى ما دهاهم ، هل استشهدوا جميعا ، أم امتدت المعركة دون توقف ؟ واستمرت الهواجس تهجس في صدرها ، وراح الشيطان يوسوس لها ، ويلعب بها كما يلعب القط بغريمه قبل أن يجهز عليه ، ولكنها لم تسترسل في أحلامها ، ولم تترك نفسها فريسة طيعة لشیطانها ، بل تعوذت من الشيطان الرجيم ، ثم ذهبت وتوضأت ، وراحت تصلى لله في هجعة الليل ، فشاعت الطمأنينة في نفسها وعاد إليها هدوؤها ودعتها ، وأتمت صلاتها ، فجعلت تقرأ ما تيسر من القرآن ، وسمعت وقع أقدام في الخارج ، فتطلعت نحو مدخل الخيمة ، فرأت أشباحا أربعة ، يتقدمون منهوكين متعبين ، فهزها السرور . وبانت عليها الغبطة ، فأسرعت إليهم نشطة خفيفة ، كأنما قد عادت إلى العشرين . لقد عادوا إليها جميعا سالمين ، وناموا ليأخذوا قسطهم من الراحة ليهبوا أكثر نشاطا ، وأقوى عزمًا لقتال المشركين .

الفصل التاسع عشر

يوم عمواس

نام الناس جميعاً ، إلا القعقاع ورجاله ، فإنه لما رأى أن جيش هاشم لم يصل بعد خشى أن يفت ذلك في عضد المسلمين ، فراح يسرب أصحابه إلى المكان الذى فارقهم فيه من الأمس ، ثم قال لهم :

— إذا طلعت لكم الشمس ، فأقبلوا مائة مائة ، كلما توارى عنكم مائة فليتبعتها مائة ، فإن جاء هاشم فذاك ، وإلا جددتم للناس رجاء وجدا .

وخرج رجال القعقاع ، واتجه هو ليهجع ويستريح حتى يستطيع أن يستأنف فى الغد قتاله ، وقد دارت نفس الفكرة فى رأس عاصم بن عمرو فأرسل رجاله فى الناحية الأخرى ، وأمرهم أن يقدوا إلى ميدان القتال جماعات ، فيفت ذلك فى عضد الأعداء .

استمر رجال القعقاع فى السير ، وقبل أن يبلغوا مكانهم المقصود ، قابلوا هاشماً وأصحابه ، فأخبروه برأى القعقاع وما صنع ، فعبأ هاشم رجاله سبعين سبعين ، وأمرهم أن يغذوا فى السير ليشدوا أزر إخوانهم .

تجلى النهار ، فأخذ الناس مواقفهم ، وراح سعد يحول فى الميدان بنظره ، فرأى الفيلة قد ظهرت فأوجس خيفة ، وخشى أن تفعل بالمسلمين كما فعلت بهم يوم أرمات ، فراح يفكر فيما يفعل ليؤمن المسلمين خطر الفيلة القاتل ، وفيما هو يفكر ، أخذت زوجته سلمى تقترب منه ، وقد عزمت على

مصالحته ، فقد أساءت إليه ، وهى أعلم الناس أنه ليس بجبان ولا هياب ، وأنه لولا عذره ، لكان بطل الحلبة بلا جدال ، وجلست بجواره ، وظلت صامته برهة ، ثم أخذت تحادثه عن الناس وما فعلوا في أمسهم ، فالتفت سعد إليها وقال :

— رأيت بالأمس شيئاً عجيباً ، رأيت فارساً على البلقاء كأنه مارد أو شيطان ، يضرب كأحسن ما يكون الضرب ، ولولا محبس أى محجن لقلت هذا أبو محجن .

فقالت سلمى :

— صعد إليك أبو محجن أمس حين أمسى ، وطلب منك العفو ، فرفضت فنزل ، فأتاني وقال لى : « يا سلمى بنت آل نخصة ، هل لك إلى خير ؟ » . قلت : « وما ذاك ؟ » . قال : « تخلين عني وتعيريني البلقاء ، فله على أن سلمنى الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلى فى قيدي » . فقلت له : « وما أنا وذاك » فرجع يرسف فى قيوده ، وراح يقول :

كفى حزناً أن تردى الخيل بالقنا	وأترك مشدوداً على وثاقيسا
إذا قممت عنانى الحديد وأغلقت	مصاريع دونى قد تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة	فقد تركونى واحداً لا أخا ليا
ولله عهد لا أخيس بعهدده	لئن فرجت إلا أزور الحوانيسا

فأخذت أفكر فى إطلاقه ، ونزلت إليه وقلت له « إني استخرت الله ورضيت بعهدك » وأطلقته ، فسألنى أن أعيره الفرس ، فقلت له : « أما الفرس فلا أعيرها » ولكنه أخذ الفرس وأخرجها من باب القصر الذى يلى الخندق ، فركبها ثم دب عليها . ولما انتهى من قتاله . أقبل ودخل من حيث خرج ، وأعاد رجله فى قيديه ، وقال :

لقد علمت ثقيف غير فخر بأننا نحن أكرمهم سيوفنا
وأكثرهم دروعا سابغات وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفنا
وأننا وفدهم في كل يوم فإن عميوا فسل بهم عريفنا
وليلة قادم لم يشعروا بي ولم أشعر بمخرجي الزحوفنا
فإن أحبس فذلكم بلائي وإن أترك أذيقهم الخوفنا

فنزلت إليه وسأله : « يا أبا محجن في أى شيء حبسك ؟ » . قال : « والله ما
حبسني بحرام أكلته ولا شربته ، ولكنني كنت صاحب شراب في الجاهلية ،
وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني يبعثه على شفتي أحيانا ، فيساء لذلك
ثنائي ، ولذلك حبسني . قلت :

إذا مت فادفني إلى أصل كرمه تروى عظامي بعد موتي عروقه
ولا تدفني بالفلاة فإنني أخاف إذا ما مت ألا أذوقها
وتروى بخمر الحص لحدي فإنني أسير لها من بعد ما قد أسوقها
واقتربت من سعد وقالت :

— وإني أرى أنه ما قال هذا إلا ليرضى شيطان شعره ، فهلا عفوت عنه ؟ .
فأطرق سعد هنيهة ، ثم قال :
— على به .

وجاء أبو محجن ؛ فقال له سعد :
— اذهب فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله .
فقال أبو محجن :

— لا جرم والله لا أجيب لساني إلى صفة قبيح أبداً .

* * *

طلعت نواصي الخيل ؛ فحسب الناس أن مدد هاشم قد وافى ، ففرحوا ،

وكبر سعد ، وكبر القعقاع خلفه ، وكبر الناس ، وقالوا :

— جاء المدد .

وتقدم الفرسان ، وتكتبت الكتائب ، فاختلف الفريقان الضرب والطعن ؛ واستمر مدد المسلمين متواصلا ، وبلغت المعركة ذروتها ، ووصل هاشم الميدان ، فاتجه إلى القلب ؛ ولما رآه المسلمون ، كبروا فارتج المكان ، وأخذ المسلمون مصافهم ؛ وقال هاشم :

— أول القتال المطاردة ، ثم المراماة .

فأخذ قوسه ، فوضع سهمًا على كبدها ، ثم نزع فيها ؛ فرفعت فرسه رأسها ، فأصاب سهمه أذنًا ، ولم ينطلق ، فضحك وضحك من حوله ، والتفت هاشم إليهم وقال :

— واسوأناه من رمية رجل كل من رأى ينتظره . أين ترون سهمي كان بالغاً ؟ .

— العتيق .

فمشى هاشم وسيفه في يده ، وقد عزم على أن يبلغ ما لم يبلغه سهمه . أقبلت الفيلة معها الرجال يحملونها أن تقطع وضنها ، ومع الرجال فرسان يحملونهم ، إذا أرادوا كتيبة دلفوا لها بفيل وأتباعه لينفروا خيل المسلمين ، ولكن لم يحدث ما حدث يوم أرمات ، لأن الفيل إذا كان وحده ليس معه أحد ، كان أوحش ، وإذا أحاطوا به كان آنس ، فلم تنفر خيل المسلمين ، واستمرت المعركة متعادلة فلم يظهر فريق على فريق ، ولما رأى رجل يزدجرد الذى فى الميدان وصول المدد إلى المسلمين ، راح يصيح بوصولهم :

— وصل مدد للمسلمين .

فصاح الثانى .

— وصل مدد للمسلمين .

فصاح الثالث والرابع وهكذا حتى بلغ الخبر يزدجرد في إيوانه ، فبعث إلى جيشه أهل النجدات ممن بقى عنده .

راح هاشم يلعب برمحه وسلاحه ، ويخترق الصفوف ويتقدم لا يلوى على شيء حتى بلغ العتيق . ذلك المكان الذى لم يبلغه سهمه ، ثم عاد إلى موقفه الأول ، وهو يصول ويجول كأسد ضرغام ، كشر عن أنيابه ، لا يرضى لفريسته إلا المنون .

وراح سعد يتطلع إلى القتال الدائر أمامه فى قلق ، إنه لا يطيق رؤية هذه الفيلة ، فعلى الرغم من أنها لا تعمل ما عملته فى اليوم الأول إلا أنها لا زالت تفرق كتائب المسلمين ، فأرسل إلى بعض الفرس الذين أسلموا ، فلما دخلوا عليه سألهم :

— هذه الفيلة ، هل لها مقاتل ؟

— نعم ، المشافر والعيون ، لا ينتفع بها بعدها .

فأرسل سعد إلى القعقاع وعاصم :

— اكفياى الفيل الأبيض .

وكانت الفيلة الأخرى تتبعه ، وكان فى القلب ، وكان بإزائهما ، وأرسل إلى اثنين آخرين :

— اكفياى الفيل الأجرب .

وعلم المسلمون ما يفعلون بالفيلة ، فدعا عاصم والقعقاع بعض أعوانهما وقال لهما :

— اكتنفوا الفيل لتحيروه .

وتناولوا رمحين أصمين لينين .. وانطلق الجميع نحو الفيل الأبيض والتف

الرجال به فتشاغل بهم ، فحمل عاصم والقعقاع عليه ، ووضعارحيهما معا في عينه ، فنفض رأسه ، فطرح سائسه ، ودلى مشفره ، فقطعه القعقاع ، فوقع الفيل على جنبه ، فهجم المسلمون على من كانوا عليه وجعلوا يقتلونهم قتلا . وفي ذلك الوقت قال عمرو بن معد يكرب لمن حوله :

— إني حامل على الفيل ، فلا تدعوني أكثر من جزر جزور ، فإن تأخرتم عني فقدتم أبا ثور ، فإن أدركتموني وجدتموني وفي يدي السيف . فحمل على فيل كان بإزائهم ، وراح يضرب في الرجال الذين حول الفيل ، فثار النقع ، فحجبه فالتفت الناس بعضهم إلى بعض وقالوا : — ما تنتظرون ؟ ما أنتم بخلقاء أن تدركوه ، وإن فقدتموه ، فقد المسلمون فارسهم .

فحملوا على الأعداء ، ولما اقتربوا منهم ، رأوا عمرا على الأرض والسيف في يده يضاربهم به ، ويذب عن نفسه ، والمشركين حوله ، فشدد المسلمون النكير ، فأفرج المشركون عنه ، فإذا عمرو مطروح وفرسه مطعونة بجواره ، واقترب فرس من عمرو وعليه فارس ، فأخذ عمرو برجل الفرس ، فاضطرب الفارس ، وسقط ، وتلفت حوله فلمح عمرا فاستل سيفه ، واتجه نحوه ليطعنه ، ولكن المسلمون كانوا قد وصلوا إليه ، فطعنوا الرجل فسقط قتلا ، والتفت عمرو إلى أصحابه ، وقال : أحضروا فرسا لي ، فلما أحضرت ، قال لهم :

— فأمكنوني من لجامها .

فأمكنوه منه ، فركبها ،

قام الفيل الأبيض بعد أن طعنه عاصم والقعقاع في عينه ، وبعد قطع مشفرة ، وراح يضرب على غير هدى ، فكان إذا اتجه إلى صفوف المسلمين

نخسوه ، فيعود إلى صفوف الفرس فينخسونه ، فيتجه إلى الناحية الأخرى ، واستمر بين العسكرين ، وأخيرا يمم صوب النهر ، فنزل فيه ، فتبعته الفيلة كلها ، فنزلت في النهر ، وحاول من فوقها أن يعيدوها سيرتها الأولى بلا جدوى ، فقد استمر الفيل الأبيض في عبور النهر ، والفيلة كلها في أثره ، فغرق من الفرس خلق كثير ، وانطلقت الفيلة في طريقها حتى دخلت المدائن .

خلا الميدان من الفيلة ، فتنفس المسلمون الصعداء ، وراحوا يقاتلون قتال الأبطال الصناديد ، ومال الظل فتزاحف المسلمون وأخذ فرسانهم يحمونهم ، والتحم الجيشان ، فتدفقت الدماء أنهارا ، وسقط من المسلمين والفرس خلق كثير ، وأخذت السيوف تحصد الناس حصدا .

وأقبل الليل ، وما دب الفتور في المقاتلين ، بل شاء كل من الفريقين أن يحسم الموقف ، وأن ينهى هذا القتال الدائر بلا هوادة أولين ، وكأنما أقسم المسلمون ألا يضعوا السلاح حتى يتم الله نصرهم ، ويعلى كلمتهم .

وراح سعد ينظر إلى القتال الرهيب ، فأيقن أن المسلمين قد عقدوا العزم على القتال طوال هذه الليلة التي سميت ليلة الهريز ، فأخذ يفحص ميدان القتال بنظره الثاقب ، فألفى مخاضة أسفل من المعسكر ، ورأى من الخير أن يحتلها المسلمون ، فأرسل في طلب طليحة وعمرو بن معد يكرب ، فلما جاءا قال لهما :

— اذهبا إلى هذه المخاضة ، وقوما عليها خشية أن يأتينا القوم منها ، فإن وجدتما القوم سبقوكا إليها ، فانزلا بجياهم ، وإن لم تجداهم علموا بها ، فأقيما حتى يأتكما أمرى .

فخرج عمرو وطليحة ومن معهما ، وانطلقا إلى المخاضة ، فلم يجدا أحدا ، فراح طليحة يجول ببصره في المكان ، وبان عليه التفكير ، وانقضت مدة ساد

خلالها السكون ، ثم قال طليحة :

— لو خضنا فأتينا الأعاجم من خلفهم ؟

فقال عمرو :

— لا ، بل نعبّر أسفل .

— إن الذى أقوله أنفع للناس .

— إنك تدعوني إلى ما لا أطيق .

— لأنطلقن وحدى .

وانطلق طليحة ، وأغذ نحو العسكر من وراء العتيق وحده ، وسفل عمرو فأصحابهما جميعا . أخذ طليحة يغذ فى السير حتى إذا وقف على ردم النهر خلف معسكر الأعداء ، كبر ثلاث تكبيرات ، فارتاع أهل فارس ، وظنوا أن المسلمين يبيتون الغدر لهم ، وتعجب لها المسلمون ، وحسبوا أن الأعاجم فتكروا برجالهم فهم يكبرون مستغيثين ، وأغار عمرو على رجال أسفل المخاضة ، فبات شك الأعاجم يقينا أن المسلمين قد أزمعوا الغدر بهم ولا ريب ، فعلام الانتظار ، فليزحفوا ، فقدموا صفوفهم زاحفين ، ورأى القعقاع ما صنعوا ، فلم ينتظر إذن سعد بالزحف ؛ بل زاحفهم ورأى سعد ما صنع القعقاع فقال :

— اللهم اغفرها له وانصره ؛ فقد أذنت له وإن لم يستأذنى !

واستمر المسلمون على مواقفهم وهم ثلاثة صفوف : صف فيه الرجال أصحاب الرماح والسيوف ؛ وصف فيه المرامية ، وصف فيه الخيول وهم أمام الرجال ؛ وكذلك الميسرة ، وأرسل سعد إلى رجاله :

— إن الأمر الذى صنع القعقاع ، فإذا كبرت ثلاثا فازحفوا .

وأقام قيس بن هبيرة فيمن يليه ، ولم يكن شهد شيئا من ليلالى المعركة

إلا تلك الليلة ، وقال :

— إن عدوكم قد أبى إلا المزاومة ، والرأى رأى أميركم ، وليس بأن تحمل الخيل ليس معها الرجال ، فإن القوم إذا زحفوا ، وطاردتهم عدوهم على الخيل لا رجال معهم ، عقروا بهم ، ولم يطيقوا أن يتقدموا ، فتيسروا للحملة . وراحت نشاب الأعاجم تتطاير وتجاوز صف المسلمين .

والتفت حامل لواء إحدى القبائل إلى أصحابه وقال :

— إن المسلمين قد تهيئوا للمزاومة ، فاستبقوا المسلمين الليلة إلى الله والجهاد ، فإنه لا يسبق الليلة أحد أن كان ثوابه على قدر سبقه ، نافسوه في الشهادة ، وطيبوا بالموت نفسا ، فإنه أنجى من الموت إن كنتم تريدون الحياة ، وإلا فالآخرة ما أردتم .

والتفت آخر إلى قومه وقال :

— يا معشر العرب ، إنه لا ينبغي أن يكون هؤلاء القوم أجراً على الموت ، ولا أسخى نفسا عن الدنيا ، تنافسوا الأزواج والأولاد ، ولا تجزعوا من القتل ، فإنه أمانى الكرام ، ومنايا الشهداء . وترجل وراح يستعد لسماع التكبيرة الثالثة ليزحف ليقاتل ويقتل في سبيل الله .

ثارت حمية القوم ، وانتظروا تكبيرات سعد بصبر نافذ ، ما باله قد تأخر ؟ وصكت التكبيرة الأولى آذانهم ، فازدادت حرارتهم ، ومرت مدة حسبوها دهرا ، وارتفعت تكبيرته الثانية ، فلم يطق الناس صبرا ، ولم ينتظروا تكبيرته الثالثة ، بل تزاحفوا وانطلقوا إلى القعقاع ليشدوا أزره في زحفه ، ولم يبق إلا الرؤساء ينتظرون التكبيرة الثالثة ، ولما بلغت آذانهم ، انطلقوا لينضموا إلى أقوامهم .

راح كل قائد ينتمى إلى قبيلته ، فكانت أصواتهم تجلجل في سماء المعركة ، فهذا يصيح : « واتميامه » وذاك يصيح : « وأأسداه » وثالث يهتف : « وانخعاه » ورابع يهتف : « وابجيلتاه » ، وامتزجت الأصوات بصليل الحديد ، فكان دويها

عظيما هائلا ، وكانت الأصوات تبلغ أذنى سعد ، ولكنه ما كان يستطيع أن يرى شيئا ، فقد مد الليل رداءه الأسود ، فحجب عنه كل شيء ، ولم تغمض له عين طوال الليل ، وراح يدعو الله ، ويتهل إليه أن ينصر دينه ، ويعز ناصره ، واستمر في دعائه طويلا ، حتى بلغه تصايح شديد ، فراح يبحث عن من يستفسر منه عما يدور في الميدان ، فلم يجد أحدا بالقرب منه فقد خرج الجميع ليضعوا حدا لهذه المعارك التي لم يظهر فيها فريق على فريق ، ووجد غلاما بالقرب منه فأنفذه إلى الصف ليرى ما يدور ويعلمه به ، فانطلق الغلام حتى بلغ الصف فرأى قتالا أذهله ، فجعل ينظر فاغرا فاه ، رأى رءوسا تطيح ، ودماء تتدفق ، كأنها نهر يفيض ، ورجالا تصول صولة الأسود ، وكاد ينسى نفسه وما أرسل له ، وراح يتبع الفرسان وهم يلعبون بالسلاح ، ويضربون بالرماح . وكادت ضربة من الضربات الطائشة تصيبه ، فأفاق من دهشته ، وتذكر ما أرسل له ، فقفل عائدا إلى سعد ليذكر له ما رأى . وما أن رآه سعد حتى سأله بلهفة :

— ما رأيت أى بنى ؟

فأخذ الغلام يقص ما وقع أمام عينيه .

وفي سكون الليل ، كانت الأم العجوز قلقة أرقه ، منزعة مضطربة ، فما دأبناؤها وقد تصرم الليل ثلثاه ، ولم يبق على طلوع النهار إلا قليل ، أمن المعقول أن تكون المعركة قد استمرت آناء النهار ، وآناء الليل ؟ أم ترى قتلوا جميعا ولم يبق لها من أبنائها الأربعة أحد ؟ وأحست رهبة وأوجست خيفة ، ولعلمهم استشهدوا جميعا ، واستمرت الهواجس تنتابها ، وراحت الأفكار تهاجمها ، فوقعت فريسة لها . وأخذت تدعو الله دعاء حارا أن ينصر المسلمين ، وأن يعيد إليها أبنائها سالمين .

الفصل العشرون

نصر مبین

لاحت تباشير الصباح ، ورحى الحرب دائرة ، والناس حسرى لم يغمضوا ليلتهم كلها ، وصناديد المسلمين يلعبون بالسيف ، لم يهنوا ولم يدب الفتور إليهم ، وراح عمرو بن معد يكرب يمر بين الصفوف ويقول :
— لا يكونن هؤلاء أجد في أمر الله منكم ، ولا يكونن هؤلاء لأهل فارس أجراً على الموت منكم ، ولا أسخى أنفساً عن الدنيا .
واستمر القتال رهيباً ، وسار القعقاع في الناس فقال :

— إن الدبرة بعد ساعة لمن بدأ القوم ، فاصبروا ساعة واحملوا ، فإن النصر مع الصبر .

واجتمع إليه جماعة من الرؤساء ، وشدوا على الأعداء ، وابتدأ الوهن يدب في جيش رستم ، وكان هدف القعقاع طيارة رستم ، إنه يعمل جاداً على قتله ، فلو ناله بسيفه لدبت الهزيمة في أوصال الجيش جميعه ، واستمر الضغط على جيش الفرس ، وأخذ يتزايد ، وكان ضغط المسلمين على جناحي الأعداء شديداً ، فتقهقر الهرمزان والبيرزان ، وهبت الرياح ، واشتد هبوبها ، فقلعت طيارة رستم عن سريره ، واستمرت الرياح تدفعها حتى بلغت العقيق فهوت فيه ، وبان سرير رستم ، فأخذ الجميع يشدون نحوه ، ولما رأى رستم انكشاف سريره ، قام عنه إلى بغال قد قدمت عليه بمال يومئذ ، واستظل في ظل بغل وحمله .

واستمر القعقاع ومن معه يشددون النكير على الأعداء ، وينطلقون قدماً حتى بلغوا سرير رستم ولكنهم لم يعثروا له على أثر ، فراحوا يستأنفون القتال ، ورأى هلال بن علفة بغلا محملاً ، فضرب الحمل بسيفه ، وكان الحمل الذى انتظر رستم فى ظله ، فسقط عليه فانتفض مذعوراً ، ورأى نفسه أمام هلال وجهاً لوجه والموت يطل من سيفه ، ففر ، وانطلق هلال فى أثره ، واستمر رستم يجرد فى الفرار وهلال خلفه حتى بلغ رستم العقيق فألقى بنفسه فيه وابتدأ يسبح ، فاقتحم هلال النهر ، وأمسك برستم الذى قاوم ودافع عن حياته دفاع اليائس المستميت ، ولكن أين المفر ؟ فقد أطبق هلال عليه ذراعين فولاذيتين ، وخرج به إلى الشاطئ ، ثم تناول سيفاً وضرب جبينه به ، حتى قتله ثم جملة بين يديه حتى بلغ سرير فوضعه فوقه ، ثم صاح :

— إلى .. إلى ! قتلت رستم ورب الكعبة .. قتلت رستم ..

فتدافع الناس نحوه ، وارتفع تكبيرهم حتى شق الجوزاء ، وبلغ عنان السماء ، ودبت الحماسة فى قلوبهم ، وانخلعت قلوب الأعاجم ، وراحوا يتقهقرون وما يدرون ما يفعلون ، ولمح ضرار بن الخطاب الدرفس كايان فى يد حامل لوائهم فانقض عليه وعاجله بضربة قاتلة ، فسقط مجذلاً ، وأخذ ضرار راية كسرى العظيمة .

رأى الفرس ما حل برستم ، وما حل برايته ، فدب الذعر بينهم وانهزموا ، وقام الجالينوس على الردم ونادى أهل فارس إلى العبور ، فراحوا يعبرون وسيوف المسلمين تعمل فى رقابهم ، ورأى سعد انسحاب الأعداء ، فنادى زهرة وأمره أن يتبعهم ، فسار فى أثرهم ، وانطلق حتى رأى الجالينوس بجمع شتات الفارين فهجم عليه وغافله وضربه ضربة كانت القاضية ، ففرق شملهم وأمعنوا فى الفرار ، فلم يجد زهرة فائدة من تعقبهم ففعل عائداً إلى سعد .



وخرج به إلى الشاطئ ، ثم تناول سيفاً وضرب جبينه به حتى قتله

بلغ النساء أن قد فرغ من الناس ، فشددن عليهن ثيابهن وأخذن الهراوى ،
ثم انطلقن ، وخرجت الأم العجوز تبحث عن أبنائها ، وراحت النساء يسقين
الجرحى ويضمدن جروحهم . وعثرت الأم العجوز على أحد أبنائها جريحاً ،
فناولته جرعة ماء وضمدت له جرحه ؛ وقام يستند على ذراعها وراحا يدبان
ويبحثان وينقبان حتى عثرت الأم على أبنائها جميعاً سالمين ، فغامت عيناها
بدموع الفرح ، وراحت تغمغم شاكرة الله بصوت خفيض ، كله حرارة
وامتنان وعرفان للجميل .

وأقبل زهرة ومن معه ، وكان زهرة يومئذ على فرس له ، ما عنانها إلا حبل
مضفور كالمقود ، وحزامها شعر منسوج ، ولكنه تدرع ما كان على
الجالينوس ، ولبس لبسه ، واتجه إلى سعد وكان عنده أسارى فى الفرس ، فلما
رأوا ما يلبس زهرة قالوا :
— هذا سلب الجالينوس .

وأقبل زهرة على سعد يقص عليه نبأ مقتل الجالينوس ، ولما فرغ من قصته
سأله سعد :

— هل أعانك عليه أحد ؟

— نعم .

— من ؟

— الله .

— قد نفلتك سلبه .

وكان سعد قد أرسل رجلاً لينظر له فى القتل ، وليسمى له رءوسهم ، فأتاه
وأعلمه أنه لم ير رستم فى مكانه ، فدعا هلالاً وسأله :

— ألم تبلغنى أنك قتلت رستم ؟

— بلى .

فما صنعت به ؟

— ألقيته تحت قوائم الأبل .

— اذهبوا وأتوني به .

فانطلق هلال وبعض نفر إلى الميدان ، وعادوا برستم ، فأعطى سعد هلالا سلبه ، وألقى جسد رستم بالقرب من باب القصر ؛ وجاء نفر من المسلمين فرأوا الجسد فعرفوه ، فأخذوا يتفرون فيه ، فوجدوا الضرب قد شوه وجهه ؛ فلما دخلوا على سعد قالوا له :

— رأينا جسد رستم على باب قصرك وعليه رأس غيره ؛ فضحك سعد ، وكان البشر يشيع في وجهه .

وراح المسلمون يجمعون الغنائم ، فجمعوا شيئا كثيرا ، ما كانوا يحلمون بمثله ، وما كان يدور بخلداهم أن في الدنيا مثله ، وارتفعت الشمس في سمت السماء ، ووافى ميقات صلاة الظهر ، ولكن المؤذن قد أصيب فشاء خلق كثير أن يؤذن كل منهم ، فما أحلى الأذان غب الانتصار ، فتشاح الناس ، وارتفع بينهم الجدل ، حتى كادوا أن يجتلدوا بالسيوف . وبلغ خبرهم مسامع سعد ، فاستدعاهم ، فأقرع بينهم ، وقام من خرج سهمه فأذن ، فاجتمع الناس للصلاة لله رب العالمين ، الذي نصرهم ذلك النصر المبين .

قتل من المسلمين خلق كثير فأصبح في النخع سبعمائة امرأة فارغة وفي بجيلة ألف ، فلم يشأ الناس أن يتركوهن بلا عائل ، فأخذ كل قادر يتزوج منهن ، حتى تزوجن جميعا ، وخطب بكير بن عبد الله الليثي ، وعتبة بن فرقد السلمى ، وسماك بن خرشة الأنصارى أخت زوج القعقاع ، فجاءت إلى أختها وقالت لها :

— استشيرى زوجك أيهم يراه لنا .

فجاءت زوج القعقاع إليه وسألته ، فقال لها :

— سأصفهم فى الشعر فانظري لأختك ، وقال :

إن كنت حاولت الدراهم فانكحى سماكا أخا الأنصارى أو بنى فرقد
وإن كنت حاولت الطعان فيمى بكيرا إذا ما الخيل جالت عن الردى
وكلهم فى ذروة المجد نازل . فشأنكم إن البيان عن الغد
وتكدست الغنائم ، فأخذ سعد فى تقسيمها ، فاحتجز الخمس لعمر ،
وقسم الباقي على الناس ، فنالهم خير كثير ، وأخذ الإخوة الأربعة أنصبتهم ،
فحملوها ؛ وانطلقوا حتى أتوا أمهم العجوز فأعطوها كل ما أخذوا ، فراحت
الأم تقسم الأنصبة بينهم وقد بان البشر فى وجهها ، وكان السرور يهزها ،
رزق كثير ، وأبناء بررة صناديد ، بارك لها الله فيهم ؛ إن فى هذا السعادة كبرى ،
وغبطة ما بعدها غبطة .

الفصل الحادى والعشرون

بعد القادسية

خرجت الشمس من خدرها ، وفي نفس الوقت خرج رجل من داره في يثرب ، وراح يضرب في طرقاتها حتى بلغ خارج المدينة ، فأخذ يمد بصره إلى الأفق البعيد يستكشف الطريق لعله يلمح أحدا قادما . وكان كلما لمح أحدا أسرع إليه ، وأخذ يسأله من أين أتى ؟ وكان غالبا ما يترك القادم عقب سماع رده ، فما كانت الجهة القادم منها لتعنيه ، إنه يسأل عن أخبار جهة بعينها تهمة أخبارها ، حتى كان يخرج يوميا من حين يصبح إلى انتصاف النهار ، يسأل الركبان عن أهل تلك الجهة . واستمر الرجل يتطلع إلى الأفق البعيد ، ولمح شبحا على مدى البصر يتحرك ، فراح يرقبه ، وأخذ الشبح يقترب رويداً رويداً ، إنه رجل على ناقته يغذ في السير صوب يثرب ، فأسرع صاحبا إليه ، فلما بلغه سأله :

— من أين ؟

— من القادسية .

فقال صاحبا بلهفة :

— يا عبد الله حدثنى .

— هزم الله العدو ، وانتصر المسلمون ، وقتل رستم والجالينوس وقواد كثيرون ، وكانت معركة ما شهد العرب مثلها ، وغنمنا غنائم لا حصر لها .

واستمر القادم يصف ما دار في القادسية وهو على ناقته ، والرجل يخب معه ويستخبره ، وبرقت أسارير الرجل لما يسمع ، وانطلقا يتحادثان حتى دخلا المدينة ، فراح الرجل السائر على قدميه يسلم على الناس ، فيرد الناس عليه السلام « وعليك السلام يا أمير المؤمنين » ، فلما رنت « يا أمير المؤمنين » في أذن الراكب ، نزل عن ناقته ، وتقدم من عمر وقال :
— فهلا أخبرتنى ، رحمك الله أنك أمير المؤمنين ؟
— لا عليك يا أخى .

ومد الرجل يده ، وأخرج كتاب سعد ، ودفع به إلى عمر وهو يقول :
— أنا سعد بن عميلة الفزارى ، قد بعثنى سعد إليك بكتاب .
فتناول عمر الكتاب ، وراح يقرأ : « أما بعد ، فإن الله نصرنا على أهل فارس ، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل ، وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الرءاؤون مثل زهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، بل سلبهموه ونقله عنهم إلى المسلمين ، وأتبعهم المسلمون على الأنهار ، وعلى طفوف الآجام وفي الفجاج ، وأصيب من المسلمين فلان وفلان وفلان ، ورجال من المسلمين لا نعلمهم ، الله بهم عالم ، كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دوى النحل ، وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ، ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلا بفضل الشهادة . إذ لم يكتب لهم » .
وانطلق عمر إلى المسجد ، وقام في الناس فقرأ عليهم الفتح ، فسرت في المدينة موجة غبطة وسرور .

* * *

قسم سعد الفىء في الناس ، فكان نصيب الفارس ستة آلاف ، والراجل ألفين ، وجاءه من عمر أن يفضل أهل البلاء ، فأعطى كلا منهم خمسمائة ،

ثم جاءه من عمر : أن « رد على المسلمين الخمس ، وأعط من لحق بك ممن لم يشهد القادسية » ، فراح سعد يوزع على الناس ، وبقي عنده شيء كثير لم يدر ما يصنع به ، فأرسل إلى عمر يستفسر ، فقال له عمر أن يوزع على حملة القرآن ؛ وفيما كان سعد ينفذ أمر أمير المؤمنين ، دخل عليه عمرو بن معد يكرب ، وبشر بن ربيعة ، فالتفت سعد إلى عمرو وقال له :

— ما معك من كتاب الله تعالى ؟

— إني أسلمت باليمن ، ثم غزوت فشغلت عن حفظ القرآن .

فأبى سعد أن يجعل له من مال الحفاظ نصيبا ، والتفت إلى بشر وسأله عما معه من كتاب الله ، فاعتدل بشر وقال :

— بسم الله الرحمن الرحيم ..

وصمت ، فقد كان هذا كل ما يحفظ من القرآن ، فضحك القوم ، ورفض سعد أن يجعل له من هذا المال نصيبا ، فلم يرض عمرو عن هذا القرار ، فكيف يحرم ، وقد أبلى في المعركة بلاء شديدا ؟ فالتفت إلى سعد وقال :

إذا قتلنا ولا ييكى لنا أحد
نعطى السوية من طعن على نقد
وقال بشر :

أنخت بباب القادسية ناقتسى
وسعد أمير خيره دون شره
تذكر هداك الله وقع سيوفنا
عشية ود القوم لو أن بعضهم
وسعد بن وقاص على أمير
وخير أمير بالعراق جريـر
بباب قديس والمكر عسير
يعار جناحى طائر فيطير

فأطرق سعد لما سمع هذا ، إن ما يقولان حق ، فرأى أن يكتب إلى عمر كتابا بأمرهما ، وما دار بينه وبينهما ، فكتب الكتاب وأرسله إلى عمر ، فكتب عمر إليه : أن أعطهما على بلائهما ، فاستدعاهما سعد ، وأعطى كل واحد منهم ألفى درهم ، فشاع الرضا في نفسيهما .

الفصل الثانى والعشرون

بابل

﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾
(قرآن كريم)

تصرم شهران بعد القادسية ، وأبل سعد من مرضه ، وانتظر إذن أمير المؤمنين بالسير ، إنه ليتوق إلى فتح المدائن عاصمة كسرى ، وإنه ليشتااق إلى دخول إيوانه ، ليت إذن أمير المؤمنين عمر يبلغه قريباً ، إذن لانطلق بالناس وهم فى غمرة حماسهم ، وأوج مجدهم وعز نصرهم ، ولاكتسح أمامه كل شىء ، ولطوى ملك كسرى طياً ، ولارتفعت أصوات المؤذنين فى تلك المملكة المترامية معلنة زوال الوثنية ، مؤكدة عبادة الله وحده لا شريك له . وجاء كتاب عمر أن انطلقوا إلى المدائن ، وأمره أن يخلف النساء والعيال بالعتيق ، ويجعل لهم كثفاً من الجند ، وأن يشرّكهم فى كل مغنم ماداموا يخلفون المسلمين فى عيالهم . فترك سعد النساء وعين لهن الحرس وأمر زهرة بن الحوية بالانطلاق إلى الحيرة ، فخرج زهرة ومن معه ، وانطلقوا صوب المدائن ، فلما انتهوا إلى برس ، وجدوا جيشاً من جيوش الفرس ، فدارت معركة بين الجيشين لم تدم طويلاً ، فقد كان المسلمون مسلحين بكل أنواع السلاح والكراع التى غنموها فى القادسية ، فلم يلبث جيش فارس أن فر ليلحق بمن بقى ببابل من جيوشهم .

نزل زهرة في برس ، وجاءه دهقانها ، وأخبره أن الفرس يتجمعون في بابل ، فقد اجتمعت فلال القادسية وبعض جنود يزدجرد ، وعقدوا العزم على مطاولة المسلمين . وخشى زهرة من أن يتمكنوا من لم شعثهم ، فكتب إلى سعد بالخبر ، وأنبأه أنهم تجمعوا حول الفيرزان . فلما بلغ سعد الكتاب ، ولى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص عمل خالد بن عرفطة ، وجعل خالداً على الساقة ، وأمرهم بالانطلاق إلى برس للانضمام إلى زهرة . فخرج الجيش مجهزاً بالعتاد والسلاح ، وذلك السلاح الذي غنموه من الفرس في القادسية ، وانطلقوا ليقاتلوهم بسلاحهم . وعقب خروج هاشم ، خرج سعد ومن معه ، واجتمعوا جميعاً في برس ، وقدم زهرة وأتبعه هاشم . وما أن التقى الجمعان في معركة ، حتى انهزم الفرس ولاذوا بالفرار ، وانطلقوا على وجوههم ، وفر الهرمزان إلى الأهواز ، وسلب كل ما كان يقع في يده ، وخرج معه الفيرزان وانطلقا إلى نهاوند ، وكان بها كنوز كسرى فسلباها وعبرا بهر سير إلى جانب دجلة الآخر ، وقطعا الجسر .

بلغت أنباء انتصارات المسلمين كل مكان ، فحز ذلك في نفوس الفرس ، فاجتمعت كتيبة من كتائبهم تدعى بوران ، وراحوا يقسمون : « والله لا يزول ملك فارس ما عشنا » وراحوا يرددون قسمهم كل يوم ، وثبتوا في مظلم ساباط ، وكان معهم أسد من الأسود التي ألفها كسرى ، فعقدوا العزم على أن يدعوا ذلك الأسد يقابل الأعداء ، وحسبوا أنه سيرعبهم ، وينهاهم عن عزمهم ، وما دروا أن بين المسلمين أسوداً لا تهاب الردى ، بل رجالاً أشجع من الأسود الكواسر .

وترامت أنباء تلك الكتيبة إلى سعد ، فقدم زهرة ، ثم أتبعه هاشما ، فانطلق هاشم حتى بلغ مظلم ساباط فانتظر هناك حتى لحق سعد به ، فانطلق الجميع إلى المعركة التي كانت دائرة بين جيش زهرة وكتيبة بوران . بلغ جيش هاشم وجيش سعد الميدان والمعركة دائرة على أشدها ، ولحق هاشم أسدا يشيع الفوضى في صفوف المسلمين ، ويبادر الناس فينفروا مذعورين فاندفع صوبه ، ولكن حصانه جفل ، فنزل عنه ، واستل سيفه وتقدم نحو الأسد ، ثم ضربه ضربة هائلة فقتله ، فكبر الناس ، فارتج المكان . ودب الذعر في نفوس الفرس ، وخلعت قلوبهم ، فولوا الأدبار مدحورين ، فاتجه سعد إلى هاشم ابن أخيه وقبل رأسه ، لقد وقى المسلمين شر أسد فارس ، ونجاهم من هلاك شديد . ونزل سعد إلى مظلم ساباط ، وراح يتبع بنظره هؤلاء القوم الفارين الذين أقسموا بالله ألا يزول ملك فارس ما عاشوا ، فغمغم : ﴿ أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ؟ ﴾ .

ذهب من الليل هدأة ، ونادى منادى سعد : « إلى بهر سير » فامتطى الناس خيولهم ، وخرجوا إلى بهر سير ضاحية المدائن عاصمة الفرس ، وكان كلما قدمت خيل عليها ؟ كبر الناس ، واستمر تكبير المسلمين حتى نجز آخر من كان مع سعد .

نزل المسلمون على بهر سير ، وكان عليها خنادقها وحرسها ، وعدة الحرب . وراح أهل فارس يرمون المسلمين بالمجانيق ، فاستصنع سعد أحد الفرس المجانيق ، ونصب على أهل الناحية عشرين منجنيقا ، وراح المسلمون يضربون الناحية ، وكان بعض الفرس يخرجون للقتال بين الحين والحين ، وأخيرا خرجوا في رجالة وناشبة وتجردوا للحرب ، وتبايعوا على الصبر . فقاتلهم المسلمون فلم يثبتوا لهم وولوا مدبرين ، ودخلوا حصون المدينة ،

وضرب المسلمون عليهم الحصار ، وطال الحصار ، ونال الجهد من المحاصرين . وفي يوم أشرف رسول ، فتقدم سلمان الفارسي ليكلمه ، فقال الرسول :

— إن الملك يقول لكم : هل لكم في المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة وجبلنا ، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم ، أما شبعتم لا أشبع الله بطونكم ؟

فقال سلمان :

— إني منكم في الأصل ، وأنا أرق لكم ، ولكم في ثلاث أدعوكم إليها : ما يصلحكم أن تسلموا ، فإخواننا لكم ما لنا ، وعليكم ما علينا ، وإلا فالجزية ، وإلا نابذناكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين .

وانتظر المسلمون ثلاثة أيام ، وأبى الفرس أن يجيبوا إلى شيء ، فاستأنف سعد قتاهم ، فلم يجدوا أمامهم إلا الفرار إلى المدائن وترك المدينة .

وأقبل الليل ، وتسور رجل أسوار المدينة ، ثم هبط فيها ، وراح يجوس خلالها ، فلم يجد أحدا ، فناداهم :

— والله ما فيها أحد .

فتدافع المسلمون ودخلوا المدينة ، فإذا هي ساكنة سكون الرموس ، دخلوا بهر سير ضاحية المدائن في جوف الليل البهيم ، وشاء سعد أن يعبر النهر إلى المدائن فورا ، فأسرع إلى الشاطئ ، ولكنه وجد الأعاجم قد ضموا السفن فيما بين البطائح وتكريت ، فوقف ومن معه على الشاطئ ينظرون ، فلاح لهم إيوان كسرى الأبيض في الظلام ، فرأوا شيئا عجبا ، رأوا بنيانا ضخما ما رأوا مثله ، فتطلعوا إليه مدهوشين ، وعقدت الدهشة ألسنتهم مدة ، ولما وجد ضرار بن الخطاب لسانه هتف :

— الله أكبر ! أبيض كسرى ، هذا ما وعد الله ورسوله .
فكبر المسلمون . واستمروا في التكبير ، منشرحى الصدور ، فها هو أبيض
كسرى أمامهم ، وما بينهم وبينه سوى ذلك النهر ، وسيعبرونه ، وسينزلون
بأيوان كسرى محققين نبوءة نبيهم العظيم .

الفصل الثالث والعشرون

كتيبة الأهوال

﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾
(قرآن كريم)

بقى سعد فى بهر سير ، وكان كلما تطلع إلى الضفة الثانية ، ورأى إيوان كسرى الأبيض ، ثارت حماسه ، وراح يفكر فى اقتحام النهر ليضع يده على المدائن حاضرة فارس ، ولكن كان يمنعه الإبقاء على المسلمين . وفى يوم أقبل رئيس من رؤساء فارس ، واستأذن فى مقابلة سعد فأذن له ، ولما تقابلا دار الحديث بينهما ، فراح الرجل يقول له : « ما يقيمك ؟ لا تأتى عليك ثالثة حتى يذهب يزدجرد بكل شىء فى المدائن » . وراح يدلّه على مخاضة فى النهر يسهل اقتحامها ، ولكن سعدا أبى ، فقد خشى أن يكون ذلك مكيدة دبرت للقضاء على المسلمين ، وأقبل الليل ونام الناس ، وهجع سعد ، فرأى فيما يرى النائم أن جيوش المسلمين اقتحمت النهر ، وأن الخيول قد سبحت بمن عليها حتى عبرت إلى الضفة الثانية سالمة ، فهب من نومه منشرح الصدر ، وقد عقد العزم على أن يخوض النهر بجيشه ، وعلى أن ينطلق باسم الله ، وعلى بركة الله . وتنفس الصبح ، فخرج سعد إلى الناس وجمعهم ، وقام وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

... إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلا تخلصون إليه معه ، وهم

يخلصون إليكم إذا شاءوا فينا ، وشونكم في سفنهم ، وليس وراءكم شيء
تخافون أن تؤثروا منه ، فقد كفاكموهم أهل الأيام ، وعطلوا ثغورهم ، وأفنوا
زادتهم ، وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد العدو بذياتكم قبل أن تحصركم
الدنيا ، ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم .

فقالوا جميعا :

— عزم الله لنا ولك ، على الرشد فافعل .

وأخذ سعد ينتدب الناس إلى العبور فقال :

— من يبدأ ويحمي لنا الفراض حتى تتلاحق به الناس لكيلا يمنعوهم من

الخروج ؟

فقال عاصم بن عمرو :

— أنا .

وتقدم من سعد وانتدب بعده ستمائة من أهل النجدات ، فاستعمل سعد
عليهم عاصما ، وبذلك تكونت كتيبة الأهوال ، وسار عاصم وكتيبته حتى
بلغوا شاطئ دجلة ، وكان النهر قد أرغى وأزبد وفاض ، فنظر عاصم إلى من
معه وقال :

— من ينتدب معي لئمنع الفراض من عدوكم ، ولنحميكم حتى تعبروا ؟

فتقدم ستون ، فجعلهم نصفين على خيول إناث وذكورة ، ليكون أسلس
لعموم الخيل ، واقتحم عاصم ومن معه النهر ، فلما رأى الأعاجم الذين كانوا
على الضفة الثانية ما فعل المسلمون ، أرسلوا خيلهم لملاقاة هؤلاء المردة الذين
لم يقف النهر في وجوههم ، ولم يشنهم عن عزمهم ، واقتحمت خيول الفرس
النهر ، فلما رأى عاصم ذلك ، صاح فيمن معه :

— الرماح ! الرماح ! أشرعوها وتوخوا العيون .

واندفع عاصم والستون الذين معه صوب خيول الفرس التي نزلت لملاقاتهم ، ولما رأى بقية كتيبة الأهوال ما يصنع إخوانهم ، اقتحموا النهر واندفعوا ليشتركوا جميعاً في قتال الفرس ؛ وعامت خيول المسلمين واقتربت من الضفة الثانية ، وهناك التقى المسلمون بالأعاجم ، ودارت معركة في البحر أشد هولا مما دارت على الأرض ، وأخذ المسلمون يصبون الرماح إلى عيون الأعداء وإلى عيون الخيل ، فأخذت الخيل تنفر ، وتزلزلت بهم ، وراحت كتيبة الأهوال تنزل بالأعداء ضربات قاصمات ، فأحس الفرس ألا قبل لهم بهذا فقال بعضهم لبعض :

— ما تقاتلون الإنس ، وما تقاتلون إلا الجن .

ودبت روح الهزيمة فيهم فراحوا ينسحبون ، وخرجوا من الماء إلى البر وكتيبة الأهوال في أثرهم ، لا تترك لهم فرصة للراحة أو التجمع ، فاستمر القتال في البر إلى أن صاح صائح في أهل فارس :

— علام تقتلون أنفسكم ، فوالله ما في المدائن أحد .

فزاد ذلك في وهنهم ، وفَت في عضدهم ، فانهزموا وتقهقروا صوب المدائن .

أصبحت كتيبة الأهوال على الضفة الثانية ، لا ينازعها منازع ، ورأى سعد أن عاصما قد زحزح الأعداء ، فقال للناس :

— اقتحموا وقولوا : نستعين بالله ، ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فاقتحم الناس دجلة ، وركبوا اللجة ، واقتربوا ، وساروا يتحدثون كما يتحدثون على الأرض ، وراح سلمان الفارسي يسير سعداً في الماء ، وامتلاً النهر بخيل المسلمين ، حتى لم يعد من اليسير أن يرى الماء من الشاطئ ، والتفت

سعد إلى سلمان وقال :

— والله لينصر الله وليه ، وليظهرن الله دينه ، وليهزم الله عدوه إن لم يكن في الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات .

فقال له سلمان : الإسلام جديد ، ذلت لهم البحور كما ذلل لهم البر ، أما والذي نفس سلمان بيده ، ليخرجن منه أفواجا كما دخلوه أفواجا . واستمر جيش سعد في العبور ، والناس يتحادثون ، وزل رجل عن ظهر فرسه ، فكاد يفرق ؟ ولكن القعقاع لمح ، فثنى عنان فرسه إليه ، وأخذ بيد الرجل ، وراح يجره والتيار يجرفه ، واستمر القعقاع في جره حتى بلغ الشاطئ .

فالتفت الرجل إليه وقال :

— عجزت النساء أن يلدن مثلك يا قعقاع .

ونخرج المسلمون من النهر أفواجا كما دخلوه أفواجا ، فراحت الأفراس تنفض أعرافها وارتفع صهاها ، وكبر المسلمون فزلزل المكان زلزالا ، وحمدوا الله على أن أخرجهم جميعاً من الماء سالمين ، والتفت سعد إلى عاصم وأمره أن ينطلق إلى المدائن ، فانطلق وكتيبة الأهوال خلفه إلى قلب الإمبراطورية الفارسية ليطعنوه ، فتخر الإمبراطورية كلها تحت أقدامهم .

الفصل الرابع والعشرون

سعد في إيوان كسرى

﴿ كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام
كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما
آخرين ﴾

(قرآن كريم)

انطلقت كتيبة الأهوال في سكك المدائن فلم تعثر على أحد ، ولمح رجل
جماعة من الفرس يتلاومون ويقولون : من أى شيء قررنا ، وجعلوا يحمس
بعضهم بعضا ، ودبت الحماسة فيهم ، وهاجوا وماجوا ، فمال الرجل عليه
وضربه بسيفه ففلق هامته ، فلما رأى القوم ما حل بإمامهم تفاروا عنه ، وعاد
الرجل يجد في أثر أصحابه ليلحق بهم .

راحت كتيبة الأهوال تطوى السكك والقفار ، حتى بلغت القصر
الأيض ، فوجدت أناساً يدافعون عنه ، فضربت عليه الحصار ، وجاء سعد
ومن معه ، فحاصر المسلمون القصر من كل جانب ، وتطايرت السهام ،
وتصرم اليوم الأول ، وأقبل اليوم الثانى وسعد في مكانه يدبر أمره ، وفيما هو
يفكر ، أشرف رجل من القصر يطلب من يكلمه ، فأرسل سعد سلمان ،
فمشى سلمان حتى صار قبالة الرجل الذى سأل عن شروط المسلمين ، فقال
سلمان :

— ثلاث تختارون منهن أيتهن شئتم .

— وما هي ؟

— الإسلام ، فإن أسلمتم فلکم ما لنا ، وعليکم ما علينا ، وإن أبيتم فالجزية ، وإن أبيتم فمناجزتکم حتى يقضى الله بيننا وبينکم .

ودخل الرجل ليشاور أصحابه ، واستمر الحصار ، وفي اليوم الثالث أيقن من في القصر ألا قبل لهم على مواجهة هؤلاء المردة الذين قتلوا أبطالهم ، وشتوا جيوشهم ، وجعلوا ملكهم يحمل ما خف حمله من جواهر ، ويترك عرشه ، وترك في الخزائن من الثياب والمتاع والآنية والفضول والألطف والأدهان ما لا تقدر قيمته ، ويفر إلى حلوان مشرداً طريداً ، لا يدري مآله ، ولا يطمئن إلى غده ، فرأوا من الحكمة مصالحة المسلمين فأشرف سفيرهم من القصر ، وتقدم إليه سلمان ليسمع ردهم فقال السفير :

— لا حاجة لنا في الأول ولا في الآخرة ولكن الوسطى

قبل من في القصر دفع الجزية للمسلمين ، وفتحت أبوابه فتقدم سعد والناس حوله ، ودخلوا قصر كسرى العظيم ، وجعلوا يدورون بعيونهم في جنباته ، فامتلكوا دهشة ، رأوا عظمة ما رأوا مثلها قط ، رأوا أعمدة ملساء ضخمة قائمة ، وتمائيل جص دقيقة الصنع ، ونمارق منمقة مزوقة ، وأبسطة فاخرة ، وترفا يأخذ باللب ، جعلهم يمشون مأخوذون فاغرى الأفواه دهشة وعجبا ، واستمروا في طرقات القصر حتى بلغوا إيوان كسرى فزاد عجبهم ، ورأى سعد ما بهر عينه وخلق لبه . فخشع قلبه وجعل يقرأ : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأوزثنائها قوما آخرين ﴾ .

وآن أوان الصلاة وهم في إيوان كسرى ، فأمر سعد المؤذن بالأذان ،

فارتفع صوت المؤذن لأول مرة مجلجلا في إيوان الوثنية :
الله أكبر ! الله أكبر ! الله أكبر ! الله أكبر !

فأطرق الجميع وأحسوا طمأنينة تمتزج برهبة ، وكان صوت المؤذن يداعب أوتار قلوبهم ويسيطر على حواسهم ، فيرفعهم إلى عالم سماوى وجعلهم يخلقون في أجواء من النشوة الروحية ، حتى ليحسوا أنهم على اتصال وثيق بالله رب العالمين .

وأم سعد القوم ، ووقف خلفه المسلمون الصناديد ، الذين ما هابوا أحدا ولا خشوا موتا ، خاشعين يرتجفون خوفا من خشية الله ، وراح سعد يقرأ القرآن فتهتز أفئدتهم فكأنما يسمعون لأول مرة ، وكانوا في صلاتهم ملائكة بررة ، كما كانوا في قتالهم شياطين مردة .

وقضيت الصلاة ، فأمر سعد الناس بجمع ما في القصر والإيوان والدور ، ووكل بالأقباض عمرو بن مقرن ، وراح الناس يجوسون خلال القصر ، وبلغ بعضهم قبابا تركية مملوءة سلالا مختمة بالزصا ص ، فحسبوها طعاما ، ففتحوا السلال فإذا هي آنية الذهب والفضة . فحملوها إلى عمرو بن مقرن ، ووجد بعضهم كافورا فحسبوه ملحاً ، فراحوا يعجنون به ، ولكنهم وجدوا مرارته في الخبز ، واستمرت الغنائم ترد على عمرو بن مقرن وهو يحرصها وتكدس أكواما .

وأمر سعد زهرة أن يجد في أثر القوم الفارين ، فخرج زهرة ومن معه وانطلقوا كالشهاب حتى واتوا جسر النهران فوجدوا الفارين عليه ، فخالطوهم وضاربوهم وزلزلوهم زلزالا شديدا ، وسقط بغل في النهر فأسرع الأعداء إليه وراحوا جميعاً يحاولون إخراجه ، ورأى زهرة اهتمام القوم بالبغل فاتجه إليهم وراح يضربهم بالسيوف ، ولكنهم ظلوا ثابتين لم يفروا وتحملوا

الضغط الشديد فقال زهرة :

— إني أقسم بالله أن لهذا البغل لشأناً ، ما كلب القوم عليه ولا صبروا للسيوف بهذا الموقف الضنك إلا لشيء بعد ما أرادوا تركه .

وحمل عليهم حملة صادقة ، وراح يحصيهم عدداً ، ويقتلهم بدداً ، فلم يبق منهم أحداً ؛ واتجه أصحاب زهرة إلى البغل فأخرجوه ، ثم أمر برده إلى سعد . ولمح القعقاع رجلاً يحاول الفرار ، والناس تحميه ، فانطلق إليه وسيفه في يده فلما اقترب منه ، تبادل الرجلان الضربات وضرب الفارسي القعقاع ضربة شديدة اتقاها بسيفه ، ثم ضربه القعقاع ضربة فحاول الفارسي أن يتلقاها بسيفه ولكنها أطاحت بذراعه وما يحمل ، ثم ضربه الثانية فكانت القاضية ، ووجدت مع المقتول جنيبة عليها عيبتان ، وغلافان في أحدهما خمسة أسياف وفي الآخر ستة أسياف ، وإذا في العيبتين أدرع ، فأخذ الغلافين والعيبتين وعاد إلى سعد .

ووقف صاحب الأقباض يستقبل الرجال ويأخذ منهم ما غنموا ، ووقف أناس ينظرون ويظهرون إعجابهم بما يشاهدون ، وأقبلت الدواب في قطار طويل ، وراح كل يقدم دابته وهو لا يدرى ما تحمل ، وتقدم رجل بالبغل الذي بعث به زهرة ، وترك الرجل البغل وهم بالانصراف ، فالتفت صاحب الأقباض إليه وقال :

— على رسلك حتى ننظر ما معك .

وراح الرجل يحط عن البغل ما يحمل ، فإذا الذي عليه حلية كسرى ؛ ثيابه وخرزاته ، وشاحه ، ودرعه التي كان فيها الجواهر ، والتي كان يلبسها ويجلس فيها للمباهاة والتهيه ، ففغر الناس أفواههم دهشة ، وأقبل رجل يسوق حمارين ، وحط عنهما حملهما ، فإذا تاج كسرى يتلألآ لآلاء ، فكبر الناس وهللوا ،

وبلغ تكبيرهم مسامع سعد ، فأقبل ليرى ما هناك ، وجاء سعد إلى صاحب الأقباض ، فرأى الناس مجتمعين ينظرون مبهوتين ، فنظر إلى ما ينظرون فرأى عجباً ؛ رأى تاجاً يشع ضياء يكاد سناؤه يذهب بالأبصار ، ثم أخرجت ثياب كسرى التى كان يلبس من الدياج المنسوج بالذهب ، المنظوم بالجواهر ، وأقبل القعقاع بن عمر بالعبيتين والغلافين ، وأخرج من العبيتين أدراعا ، فإذا الأدرع درع كسرى ، ودرع هرقل ، ودرع النعمان ، ودرع أخرى للملوك الفرس ، وإذا فى أحد الغلافين خمسة أسياف وفى الآخر ستة أسياف ؛ وكان بين الأسياف سيف كسرى وسيف هرمز وسيف هرقل وسيف النعمان ، فالتفت سعد إلى القعقاع وقال له :

— اختر أحد هذه الأسياف .

فاختار سيف هرقل ، وأعطاه سعد درعا من الدروع ثم قال :

— احبسوا سيف كسرى وتاجه وثيابه وسيف النعمان فى الأنحاس لنبعث بها إلى عمر لتسمع بذلك العرب .

وجاء رجل يقود حمارين ، فتقدم صاحب الأقباض منهما ونظر فيما على أحدهما فإذا سفطان : فى أحدهما فرس من ذهب مسرج بسرج من فضة على لغره الياقوت ، والزمرد منظوم على الفضة ، وعليه فارس من فضة مكلل بالجواهر ، وإذا فى الآخر ناقة من فضة عليها سليل من ذهب وبطان من ذهب ، ولها زمام من ذهب وكل ذلك منظوم بالياقوت ، وإذا عليها رحل من ذهب مكلل بالجواهر ، وأقبل رجل بحق معه ، فدفعه إلى صاحب الأقباض ففتحه ، فرأى شيئاً يأخذ باللب ، لم ير مثله قط ، ونظر الناس بعضهم إلى بعض وقالوا :

— ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه .

والتفت صاحب الأقباض إلى الرجل وقال :

— هل أخذت منه شيئاً ؟

فقال الرجل فى هدوء :

— أما والله لولا الله ما أتيتكم به .

— من أنت ؟

— ولا والله ، لا أخبركم لتحمدوني ، ولا غيركم ليقرظوني ، ولكنى أحمد

الله وأرضى بثوابه .

وانصرف الرجل وقد اشترأت إليه الأعناق ، وراح سعد يجيل عينيه فى

الغنائم المكدسة التى جاء الناس بها وقال :

— والله إن الجيش لذوى أمانة ، ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت وأيم الله على

فضل أهل بدر ، لقد تتبعت من أقوام منهم هنات وهنات فيما أحرزوا ، ما

أحسبها ولا أسمعها من هؤلاء القوم .

ثم جمع الغنائم ، فراح سعد يقسم الفىء ، فاحتجز الخمس ، ثم قسم الباقي

على الناس ، فكان نصيب الفارس اثنى عشر ألفاً ، وكلهم كان فارساً ليس

فيهم رجل ، وقسم الدور وأنزل العيالات ، وجيء بالقطف وهو بساط

واحد ، وهم بتقسيمه ، ولكنه رأى أنه إذا قسم فقد رونقه وقلت قيمته ،

ورأى أن لو أرسل به إلى عمر لرأى الناس شيئاً عجيباً ، فالتفت إلى من عنده

وقال :

— هل لكم فى أن تطيب أنفسنا عن أربعة أخماسه ، فنبعث به إلى عمر

فيضعه حيث يرى ، فإننا لا نراه يتفق قسمته ، وهو بيتنا قليل ، وهو يقع من
أهل المدينة موقعاً .
فقالوا جميعاً :

— نعم .

وجيء بالخمس وفيه ثياب كسرى وحليه وتاجه وسيفه وسيف النعمان
والقطف العظيم ، وحملت هذه الأشياء جميعاً على الرواحل ، وانطلقت القافلة
إلى المدينة تحمل أعجب ما ورد إليها ، وأنفس ما شاهده العرب .

الفصل الخامس عشر

نفائس كسرى فى المدينة

« إن قوما أدوا هذا لأمناء » .

عمر بن الخطاب

انطلقت القافلة التى كانت تحمل نفائس الفرس تخب فى السير قاصدة المدينة ، وبينما كانت القافلة فى طريقها كان حليس الأسدى على ظهر فرسه ينطلق كالصاعقة داخلا المدينة ، ميمما صوب المسجد ، قاصدا أمير المؤمنين ليبشره بفتح المدائن ، وما حدث فى فتحها من أعاجيب .

وبلغ حليس المسجد فترجل عن فرسه ، ودخل فألقى عمر وعنده جمع من أصحابه ، فسلم عليه وراح يقص عليه كيف ركبوا اللجة عند عبور النهر ، وكيف فر الفرس مذعورين ، وكيف دخلوا قصر كسرى الأبيض ، وما وجدوا فيه من تحف رائعات ، وزينات تخطف الأبصار وتأخذ بالألباب ، واستمر حليس يصف ما وقع وما حدث فى بيان رائع وحماسة أخاذة ، فراحوا جميعاً ينظرون إليه مأخوذين واستمر يصف لهم ما وجد المسلمون فى إيوان كسرى ، فقصر خيالهم عن أن يتتبع ما يصف ، أو يتصور ما يقول ، وكيف يتصورون ما لم يروا ، وما لم يخطر لهم على قلب ، وذكر حليس لعمر عن سعد الشئ الكثير ، وكيف أنه نبطى فى جبايته ، يقسم بالسوية ، ويعيدل ، وينقل

إليهم حقهم نقل الذرة ، فأثلج صدر عمر .

مرت أيام ووفدت القافلة بنفائسها على المدينة ، فسرى نبأ وفودها بين الناس ، فخرجوا إلى المسجد ليروا عجائب كسرى التى طالما سمعوا عنها ، والتى طالما حدثهم المحدثون بعظمتها وندرتها ، وها هى عندهم ، وعمّا قليل تصير ملك يمينهم ، فالحمد لله الذى نفلهم هذا .

ووضعت القافلة أحمالها النفيسة ، وراح عمر يفحص الغنائم ، وعلى الرغم مما سمع بعظمتها ، فإنه وجدها أعظم مما قدر وتصور ، وبان على وجوه الناس الدهشة والعجب ، ونشر القطف العظيم ، فإذا هو بساط واحد ، ستون ذراعاً فى ستين ذراعاً ، فيه طرق كالصور ، وفصوص كالأنهار ، وفى حافته كالأرض المزروعة ، والأرض المبقلة بالنبات فى الربيع من الحرير على قضبان الذهب ونواره بالذهب والفضة وأشباه ذلك ، وكانوا يعدونه للشتاء إذا ذهبت الرياحين ، فكانوا إذا أرادوا الشرب شربوا عليه فكأنهم فى رياض ، وما إن وقعت أعين الناس على البساط حتى انبعثت منهم أصوات دهشة وعجب ، فالتفت عمر إلى من حوله وقال :

— إن قوما أدوا هذا لأمناء !

فقال على بن أبى طالب :

— إنك عفت فعفت رعيتك ، ولو رتعت لرتعت .

وأخذ عمر يفحص ثياب كسرى وتاجه وسيفه ودرعه ، ثم قال :

— على بمحلم .

فتقدم رجل ضخيم ، وكان أجسم عربى يومئذ بأرض المدينة ، فألبس تاج كسرى على عمودين من خشب ، وصب عليه أوشحته وقلائده وثيابه وأجلس للناس ، فنظروا إليه فرأوا أمراً عظيماً من أمر الدنيا وفتتها ، وتطلع



.. ومرت أيام ووفدت القافلة بنفائسها على المدينة

عمر إلى الرجل طويلاً ثم رد الطرف وهو يقول :
— أحق بامرئ من المسلمين غرته الدنيا ، هل يبلغن مغرور منها دون هذا
أو مثله ؟

واستمر الناس في فرحهم ولكن عمر أطرق ، وأحس رهبة وخشية من الله
فرفع رأسه إلى السماء وقال :

— اللهم إنك منعت هذا رسولك ونبيك ، وكان أحب إليك مني وأكرم
عليك مني ، ومنعته أبا بكر ، وكان أحب إليك مني ، وأكرم عليك مني ،
وأعطيتني ، فأعوذ أن تكون أعطيتني لتمكري !

ولم يستطع عمر أن يكبت خشيته ، فانخرط في البكاء ، فالتفت إليه عبد
الرحمن بن عوف وقال :

— يرحمك الله يا أمير المؤمنين .

فقال له عمر :

— أقسمت عليك لما بعته ثم قسمته قبل أن تمسي .

وقام عمر وانصرف ، وراح عبد الرحمن يبيع نفائس كسرى .
قسم عمر الفئ بين الناس ، وبقي البساط العظيم لا يدرى ما يفعل به ،
أيقسمه بين الناس ، أم يقيه درة من الدرر ؟ وإذا أبقاه ففي حوزة من يبقى ! إن
بيعه أمر عسير ، على الناس غير يسير ، فلا يقوى على شرائه أحد . وأخيراً عزم
على استشارة الناس ، فقام وحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أشيروا علي في هذا القطف .

فأشار بعضهم بقبضه ، وأشار بعضهم بتفويض الأمر له فقالوا :

— قد جعلنا ذلك فر رأيك .

ولكن علي بن أبي طالب تقدم وقال :

— لم تجعل علمك جهلا ، و يقينك شكاً ، إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت ، أو لبست فأبليت ، أو أكلت فأفانيت . إنك إن تقبله على هذا اليوم ، لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له .

فقال له عمر : صدقتني ونصحتني .

وأمر عمر بتقسيم القطف فقسم ، وأخذ على نصيبه وباعه بعشرين ألفاً .

الفصل السادس والعشرون

جلواء الواقعة

استقر سعد في إيوان كسرى ، وبعث العيون خلف الفرس المنهزمين ،
وتصرمت الأيام ، واستجمعت الجيوش ، وفي يوم عاد عين من العيون ودخل
على سعد في الإيوان ، وراح يقص عليه ما رأى من أهل فارس فقال له :
— انتهى الأعاجم بعد الهرب من المدائن إلى جلواء ، وتفرقت الطرق بهم ،
وهم كل فريق منهم بالتوغل في طريق ، فتذا مروا وقالوا : « إن افترقتم لم تجتمعوا
أبداً ، وهذا مكان يفرق بيننا ، فهلموا فلنجتمع للعرب به ، ولنقاتلهم ، فإن
كانت لنا فهو الذي نريد ، وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذي علينا ،
وأبلىنا عذراً » واجتمعت كلمتهم على النزول بجلواء ، وأقسموا لمهران ألا
يفروا ، وأن يشتوا لنا حتى الموت ، وأمرهم مهرا أن يحفروا خندقا ، فأتموا
حفره ، وأحاطوا به الحسك من الخشب ليكون حائلا بيننا وبين اقتحام
الخندق عليهم ، وقد نزل يزدجرد بجلوان ، وراح يمدهم بالمال والرجال .
فأطرق سعد برهة ، واستأذن الرجل ونخرج ، واستمر سعد في تفكيره ،
وجاء عين آخر وأخبره أن أهل الموصل قد عسكروا بتكريت فرأى سعد أن
يكتب بذلك لعمر ، فكتب له ، وانتظر رده وهو على حذر ، يعد على الأعداء
حركاتهم وسكناتهم . وجاء كتاب عمر يأمره فيه بأن يسرح هاشم بن عتبة
إلى جلواء في اثني عشر ألفا ، فاستدعى سعد هاشما وأمره أن يتأهب للخروج

لقتال الفرس ، وجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو .
تم استعداد جيش المسلمين ، فخرج من المدائن في عدة عظيمة ، على رأسه
هاشم ، وفيه وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب ، وانطلق إلى جلواء ،
فلما رأى هاشم تحصن الأعاجم في الخندق أحاط بهم وحاصرهم وشن عليهم
هجوماً شديداً ولكن لم ينل منهم شيئاً ، فإنهم قد تحصنوا بالخندق ، ورموا
حول الخندق بحسك الخشب ، فما استطاعت الخيل أن تتقدم ، واستمر
الأعاجم في خندقهم يرمون المسلمين بالنبل ، ومرت الأيام ووصل لأهل
فارس مدد من حلوان ، فخرجوا يزاحفون المسلمين في زهاء وأهاويل ،
واقتل الجيشان قتالاً رهيباً . وساعد الخندق أهل فارس على أن يقاتلوا ثم
يرتدوا إلى خندقهم المنيع ، وقام هاشم في الناس وقال :

— هذا المنزل منزل له ما بعده .

واستمر القتال دائراً بلا هوادة أولين ، وأمد سعد هاشماً بالفرسان . ورأى
الأعاجم أن حسك الخشب يعوقهم في حركتهم ، فجعلوا فرضاً مما يليهم
تصعد منه خيلهم ، فأفسدوا حصنهم .
خرج أهل فارس من الخندق لمناجزة المسلمين . فقام هاشم في الناس
وقال :

— أبلوا الله بلاء حسناً يتم لكم عليه الأجر والمغنم .

ثم صاح في أصحابه :

— شدوا .

فانطلق فرسان المسلمين إلى فرسان الأعاجم ، واختلط الجميع ، وارتفع
صليل السيوف ، وتبادل الضرب والطعن وأخذ القعقاع يفتك بالأعداء فتكا
ذريعاً ، ومدت السماء يدها لمعاونة المسلمين فهبت ريح شديدة فلم يستطع

الأعاجم إلا المحاجزة ، فتهافت فرسانهم في الخندق ، وانقض المسلمون عليهم ، ولكنهم راحوا يرمون حول الخندق بحسك الحديد ، فعاق ذلك تقدم خيل المسلمين .

راح من في الخندق يسوون صفوفهم لاستئناف القتال ، فلما تم لهم ما أرادوا خرجوا ثانية في جموع هائلة وقد عزموا على أن يثبتوا للمسلمين ، فقد انقضى ثمانون يوما وهم في خندقهم محاصرون فما هزموا المسلمين ، وما هزمهم المسلمين ، فليكن هذا اليوم يوم الفصل . خرجوا ليقاتلوا أعداءهم الذين هزموهم في ديارهم وشتوا شملهم ، وسبوا نساءهم ، وقد وطنوا عزمهم على الاستماتة في قتالهم عسى أن يزيمحوهم عنهم ، وأن يردوهم على أعقابهم .

ودارت رحى معركة رهيبة شديدة بين الطرفين ، معركة سالت الدماء فيها أنهارا ، وقاتل أهل فارس قتالا ما قاتلوا مثله من قبل ، ونفذ النبل ، ونفذ الشباب ، وقصفت الرماح ، فاستل الناس أسيافهم ، وسقطت أشعة الشمس على الأسياف فكانت تعكس ضياء يخطف الأبصار ، وصال الفرسان وجالوا ، واستمر المنون حاضنا ميدان المعركة . ولما استوت الشمس في كبد السماء وحضرت الصلاة صلى المسلمون إيماء حتى إذا كان بين الصلاتين خنست كتيبة وجاءت أخرى فوقفت مكانها .

نظر القعقاع إلى المسلمين فرأى الإعياء قد بدا عليهم ، فخشى مغبة ذلك ، فالتفت إليهم وقال :

— أهالتكم هذه ؟

— نعم . نحن مكلون ، وهم مريحون ، والمكان يخاف لعجز إلى أن يعقب .

— إنا حاملون عليهم ومجالدوهم ، وغير كافين ولا مقلعين حتى يحكم الله

بيننا ، فاحملوا عليهم حملة رجل واحد حتى تخالطوهم ، ولا يكذبن أحد منكم .

وانطلق القعقاع إلى الأعداء ، فانطلق الناس خلفه ، واستؤنفت المعركة فكانت أشد وأمر ، وأخذ النهار في التصرم ، فتصرمت معه أرواح خلق كثيرين ، وأقبل الليل وألبسهم رواقه فأخذ الأعداء يمنة ويسرة ، ورأى القعقاع أن المسلمين قد تحاجزوا مع الليل ، ولكنه رأى بثاقب نظره أن لو صبر المسلمون قليلا لانتصروا على الأعداء نصرا مؤزرا ، فأوعز إلى أحد أصحابه أن يصيح :

— أين تحاجزون وأميركم في الخندق ؟

صاح الرجل ، وماصك صوته آذان القوم ، حتى ثارت الحماسة فيهم ، فكيف يتحاجرون وأميرهم بين الأعداء ، فاستأنفوا القتال ليبلغوا أميرهم وراح القعقاع يشق طريقه عند مدخل الخندق ، وبينما القتال رهيب يدور ، إذ خلجت أصوات في الفضاء :

الله أكبر ! الله أكبر !

فشد ذلك من أزر المسلمين ، إنه مدد قد جاء ، وزلزل الأعداء زلزالا شديداً ، وتقدم المدد وعلى رأسه عمرو بن معد يكرب ، وراح الناس يشقون طريقهم صوب الخندق حتى بلغوه ، فألفوا القعقاع يقاتل فيه ، فانضموا إليه ، ودار القتال داخل الخندق ، ففر مهران والفيروزان ، وسقط الأعاجم مجذلين تحت ضربات السيوف ، وعقرت دوابهم ، فجعلت القتلى المجال ، وانهمز أهل فارس هزيمة نكراء .

أخذ المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب ، فإذا هي عظيمة لا تقدر ، كثيرة فوق ما كانوا يتصورون ، وعاد الناس بالغنائم إلى هاشم فجمعها

(سعد بن أبي وقاص)

وقسمها ، فحجز الخمس لسعد ، وقسم الباقي بين الناس ، فكان نصيب الفارس تسعة آلاف وتسعة من الدواب ؛ ورجع هاشم بالأخماس إلى سعد . أرسل سعد إلى المدينة خمس الفئ والسبايا في قافلة طويلة ، وكان في القافلة زياد بن أبي سفيان .

فلما بلغت القافلة يثرب ، ورأى عمر جسامة الخمس بان الرضا في وجهه ، وفكر أين يضعه حتى يقسمه ، فالتفت إليه عبد الله بن الأرقم وقال : — اجعلها في بيت المال حتى نقسمها .

فقال عمر :

— والله لا يظلها سقف بيت دون السماء .

فطرح بين صفتي المسجد صفة النساء وصفة الرجال ، وطرح عليها الأنطاع ، وبات عبد الله بن الأرقم وعبد الرحمن بن عوف يحرسان ما أرسله سعد .

وقابل زياد بن أبي سفيان عمر ، وراح يقص عليه ما فعل المسلمون من أعاجيب في قتال الفرس حتى هزموهم في جلولاء ، واستمر يصف له ما حدث بأسلوب أنحاذ وحماسة غالبة ، حتى أسر عمر ، فالتفت إليه عمر وقال : — هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كلمتني به ؟

فقال زياد :

— والله ما على الأرض شخص أهيب في صدرى منك ، فكيف لا أقوى

على هذا من غيرك ؟!

وأصبح الصباح ، وخرج عمر إلى المسجد ، واجتمع الناس وكشف عمر عن نفائس أهل فارس ، فرأى الذهب والفضة ، فظهر عليه التأثر ثم غامت عيناه بالدمع ، ثم انهمر الدمع حتى بل لحيته ، فالتفت إليه عبد الرحمن بن عوف

وقال :

— ما يبكيك يا أمير المؤمنين ، فوالله إن هذا اليوم ليوم شكر ، ويوم فرح وسرور .

فقال عمر :

— لا والله ، ما فتح الله على قوم هذا قط إلا جعل بأسهم بينهم ، وألقت بينهم العداوة والبغضاء .

وقام زياد في الناس ، وراح يصف لهم ما فعل إخوانهم من ضروب البطولة والإقدام ، وهدأ المكان وسكن الجميع كأن على رؤوسهم الطير ، وتدفق زياد فالتفت إليه عمر وقال :

— هذا الخطيب المصقع .

فقال زياد :

— إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا .

أرسل سعد إلى هاشم أن يبقى بجلولاء ، وأن يسرح القعقاع في آثار القوم حتى ينزل بجلوان ، فخرج القعقاع يجد في أثر مهران والفيروزان ، وأدرك جيش المسلمين مؤخرة جيش الأعداء ، فدارت معركة بينهم وأخذ مهران يحض الأعاجم على الاستماتة في القتال ، ولحى القعقاع فاتجه إليه ، وأخذ الخصمان العنيدان يتبادلان الضربات ، فكانا كظبيين في خفتهما ، وكأسدين في بأسهما ، وأخذ كل منهما يتلقى ضربات غريمه ، ودارا حول نفسيهما ، وشد القعقاع على خصمه وضربه ضربة هائلة فتلقاها ، ولكن القعقاع عاجله بضربة ثانية ، فخر مهران مجذلا .

ورأى الفيروزان ما حل بمهران فولى الأدبار ، وانطلق إلى حلوان حتى دخل

على يزدجرد ، فراح يقص عليه ما فعل المسلمون بهم ، والوجل يتملكه ،
والياس مستول عليه ، فانتقل الذعر منه إلى يزدجرد ، فجمع ما يستطيع
جمعه ، وخرج من حلوان فاراً نحو الري ، قبل أن يكون مآل مهران مآله ،
وترك بها خيلاً عليها خسرو ، ولو أنصف لما ترك بها أحداً فلن يعترض سيل
المسلمين شيء ، ولن يقف في سبيله أحد .

سار القعقاع بعد مقتل مهران قاصداً حلوان ، فلما أصبح على بعد فرسخ
منها ، خرج له خسرو ، ودارت معركة بين الجيشين ، وكانت الدائرة على
الفرس ، فدخل القعقاع وجيشه حلوان وغنموا شيئاً كثيراً .
كتب سعد إلى عمر بنزول القعقاع بحلوان ، وطلب منه الإذن في
اتباعهم ، ولكن عمر أبى وأرسل إليه :

— لوددت أن بين السواد وبين الجبل سد ، لا يخلصون إلينا ، ولا نخلص
إليهم ، حسبنا من الريف السواد ، إني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال .

الفصل السابع والعشرون

إلى الكوفة

إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان «

(عمر بن الخطاب)

نزل الناس بالمدائن ، وكان بها ذباب كثير ، وغبار يثور ، فتغير لون الناس ، ونظر حذيفة إلى إخوانه فرأى أجسامهم التي كانت كالرماح المشرعات قد ترهلت ، وعوامل الاعتلال قد بانت عليهم ، فألقى من الخير أن يكتب إلى عمر ، لعل عمر بما عرف عنه من الاهتمام بأمر الناس يجد لذلك الاعتلال علاجاً ، فكتب إليه : « إن العرب قد أترفت بطونها ، وخفت أعضادها ، وتغيرت ألوانها » وبلغت رسالة حذيفة عمر ، وحدث أن جاءت وفود العرب إلى المدينة تحمل أنباء نزول القعقاع حلوان وفتح تكريت والموصل ، فأخذ عمر يتفرس في هؤلاء الذين جاءوا من المدائن ، وقال :

— والله ما هيئتكم بالهيئة التي بدأت بها ، ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن ، وأنهم لكما بدأوا ، وقد انتكيتم ، فما غيركم ؟ .
— وخومة البلاد .

أقلقت هذه الحالة عمر ، فأرسل إلى سعد يسأله : « أنبئني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم ؟ فكان جواب سعد : وخومة البلاد » ، إذن لا بد من ترك المدائن والبحث عن مكان آخر يصلح لسكن هؤلاء الذين اعتادوا جفاف الصحارى ، فكتب إلى سعد : « إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها

من البلدان ، فابعث سلمان رائدا وحذيفة ، فليرتادا منزلا برياً بحرياً ، وليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر .

بعث سعد سلمان وحذيفة يرتادان البلدان ، ويبحثان عن مكان يوافق الناس ، فخرج سلمان وسار في غرب الفرات وانطلق حذيفة في شرق الفرات ، وأخذا يفحصان وينقبان ويستقصيان ، وبلغ سلمان مكان الكوفة ، فأعجبه مناخه ، والتقى الرائدان ، واتفقا على أن هذا المكان هو أصلح مكان في البلدان يوافق العرب ، فصليا به ، ولما انتها من صلاتهما رفعا أيديهما إلى السماء ، وراحا يدعوان :

— اللهم رب السماء وما أظلت ، ورب الأرض وما أقلت ، والريح وما ذرت ، والنجوم وما هوت ، والبحار وما جرت ، والشياطين وما أضلت ، والخصاص وما أجنت ، بارك لنا في هذه الكوفة ، واجعله منزل ثبات .

قدم سلمان وحذيفة على سعد ، وأخبراه عن الكوفة ، فكتب سعد إلى القعقاع أن يوافيه ومن معه في المدائن بعد أن يخلف على حلوان أحداً ؛ فلما توافى الجند بالمدائن ، ارتحل سعد بالناس وانطلقوا حتى وافوا الكوفة ، فعسكروا بها .

نزل الناس بالكوفة فاستردوا هيئتهم ، وثاب إليهم ما كانوا فقدوا ؛ ورأوا من الخير لهم أن يشيدوا بيوتا من القصب ينزلونها بدل الخيام ، فاستشاروا سعداً ، ولكن سعداً ما كان ليقطع بأمر دون أن يرجع إلى أمير المؤمنين ، فأرسل إليه يستأذنه ، فأرسل إليه عمر : « العسكر أجدر لحربكم ، وأذكى لكم ، وما أحب أن أخالفكم ؛ وما القصب ؟ » فأرسل سعد إليه : « العكرش إذا روى قصب فصار قصباً » فأذن لهم سعد ، فابتنوا لهم من القصب بيوتا ، وشبت حريق فالتهمت البيوت ، فعادوا إلى خيامهم ، ولكنهم وجدوا من

العسير عليهم أن يستبدلوا البيوت التي ألفوا الراحة فيها بالخيام ، فاستأذنوا سعداً في أن يبنوا بيوتاً من اللبن ، فأرسل إلى عمر وفداً يسألونه أن يأذن لهم ، فقص الوفد عليه ما فعل الحريق ببيوتهم ، وأخذوا يحدثونه عن منازل اللبن ، فقال لهم :

— افعلوا ، ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ، ولا تطاولوا في البنيان ، والزموا السنة تلزمكم الدولة .

ثم عهد عمر إليهم ألا يرفعوا بنياناً فوق القدر ، فسألوه :

— وما القدر ؟

— ما لا يقربكم من السرف ، ولا يخرجكم من القدر .
وأخذ عمر يذكّر لهم ما يتبعونه في تخطيط الطرق والأزقة ، وعاد الوفد إلى سعد ، وأخبروه خبرهم ، فاستدعى سعد رجاله ، وابتدأ تخطيط الكوفة فبنى أول ما بنى المسجد ، ولما تم المسجد ، وقف رجل شديد النزاع في وسطه ، فرمى عن يمينه ، ومن بين يديه ، ومن خلفه ، وقال سعد :

— من شاء أن يبنى فليبن وراء هذه السهام .

وخططت الطرق ، فكانت المناهج أربعين ذراعاً ، وما يليها ثلاثين ذراعاً ، وما بين ذلك عشرين ، وبالأزقة سبع أذرع ليس دون ذلك شيء .
وبنيت السوق وبنيت دار لسعد عرفت بالقصر ، وجعل فيها بيت المال ، وأنشئ من نقض آخر قصر كان للأسرة في ضواحي الحيرة ، وبنيت المنازل ، ودبت في الكوفة الحياة ، وكان قصر سعد بلا باب ، وكان بجوار الأسواق ، فكانت غوغاء الناس تمنع سعداً الحديث ، فابتنى للقصر باباً ، ونفس بعضهم على سعد ، فانطلقوا إلى المدينة حتى جاءوا عمر وقالوا له :

— ابتنى سعد داراً يقال لها القصر ، واحتجب فيها ، ولم يكتف بذلك بل

جعل لها باباً وقال : « سكن عني الصويت » وراحوا يوغرون صدر عمر عليه ، فأرسل محمد بن مسلمة ، وأمره أن ينطلق إلى الكوفة وقال له :
— اعمد إلى القصر حتى تحرق بابه ، ثم ارجع عودتك على بدئك .
انطلق محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأغذ في السير حتى بلغها ، فاتجه إلى السوق ، ورأى قصر سعد ، فاشترى خطباً ، ثم أتى به القصر ، فأحرق الباب .
علم سعد أن باب قصره قد أحرق ، فقال :
— هذا رسول أرسل لهذا الشأن .

أيقن سعد أن من حرق بابه رسول عمر ، فراح يبحث عنه في الكوفة ويستقصي أخباره ، وبعث أصحابه ليعرف من هو ، وعاد أحد رسله إليه وقال :

— إنه محمد بن مسلمة وهو في الخارج .

— قل له أن يدخل .

وغاب الرسول مدة ثم عاد إلى سعد وقال :

— إنه يأبى .

فنهض سعد وانطلق حتى أتى محمداً عند الباب ، فأراد أن يدخل وينزل عنده ، فأمعن في الرفض ، ثم مد يده بكتاب عمر ، ففضه سعد وأخذ يقرأ :
« بلغني أنك بنيت قصراً ، اتخذته حصناً ، ويسمى قصر سعد ، وجعلت بينك وبين الناس باباً ، فليس بقصرك ، ولكنه قصر الخبال ، انزل منه منزلاً مما يلي بيوت الأموال وأغلقه ، ولا تجعل على القصر باباً يمنع الناس من دخوله ، وتنفيهم به عن حقوقهم ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك إذا خرجت » .
فسكت سعد برهة ثم أخذ يحلف أنه ما قال الذي قالوا ، وهم محمد بن مسلمة بالرجوع ، فعرض عليه سعد أن يتزود ولكنه أبى ، وقفل عائداً ، وقبل

أن يبلغ المدينة ، نقد زاده ، فتبلغ بلحاء من لحاء الشجر ، وبلغ عمر وقد بان عليه الجهد من الجوع ، فسأله عمر عما به ، فقص عليه قصته ، فقال عمر :
— فهلا قبلت من سعد !!

— لو أردت ذلك كتبت لى به ، أو أذنت لى فيه .
لم يشأ محمد أن يأخذ من سعد ما يتزود به ، لأن أمير المؤمنين لم يكتب له بالزاد ، فقال له عمر :

— إن أكمل الرجال رأيا من إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالحزم أو قال به ولم ينكل : وما قال سعد ؟

— أقسم أنه لم يقل ما بلغ أمير المؤمنين .

فبان فى وجه عمر التصديق وقال :

— هو أصدق مما روى عليه وأبلغنى .

الفصل الثامن والعشرون

الهرمزان

بسم الله الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه ، .

(عمر بن الخطاب)

ضاق صدر يزيد جرد بالهزيمة وشاء أن يطلق آخر سهم في جعبته ، فكتب إلى أهل فارس ، يذكرهم الأحقاد ، ويحرك همهم ، ويقول لهم مؤنبا أن قد رضيتم أن قد غلبتكم العرب على السواد وما والاه والأهواز ، ثم لم يرضوا بذلك حتى يوردوكم في بلادكم وعقر داركم .

فراح أهل فارس وأهل الأهواز يتعاقدون ويتواثقون على النصر ، فتجمعوا ، وبلغ عمر خبر تجمعهم ، فأرسل إلى سعد أن ابعث إلى الأهواز بعثا كثيفا مع النعمان بن مقرن معه سويد بن مقرن وجريز بن عبد الله البجلي . خرج النعمان في أهل الكوفة ، فأخذ وسط السواد ، حتى قطع دجلة ، ثم أخذ البر على البغال إلى الأهواز ، ولما جاء سوق الأهواز ، انطلق للملاقاة الهرمزان ، وشاء الهرمزان أن يعاجل المسلمين لعله ينتصر عليهم ، فيرد إلى فارس اعتبارها ، فبادر النعمان الشدة ، واقتتل الجيشان قتالا شديدا ، ودارت الدائرة على الهرمزان ، فلحق بتستر ، وانطلق النعمان في إثره .

بلغ النعمان تستر ، وحاصرها ودار بين رجال الهرمزان ورجال النعمان قتال رهيب ، وأخيرا سقطت المدينة ، واعتصم الهرمزان بقلعة من القلاع ،

وشاهده بعض رجال المسلمين فأسرعوا إليه ، حتى بلغوا مكانا ضيقا من القلعة وأصبحوا أمام الهرمزان وجها لوجه فصاح فيهم :

— ما شئتم ؛ قد ترون ضيق ما أنا فيه وأنتم ، ومعى فى جعبتى مائة نشابة ،
ووالله ما تصلون إلى ما دام معى منها نشابة ، وما يقع لى سهم ، وما خير إسرائى
إذا أصبت منكم مائة بين قتيل وجريح ؟

— فتريد ماذا ؟

— أن أضع يدى فى أيديكم على حكم عمر ، يصنع لى ما شاء .

— فلك ذلك .

فرمى الهرمزان قوسه ، ووقف منتصبا لا يقاوم . فتقدموا منه وشدوه
وثاقا .

أرسل الهرمزان إلى المدينة ، وانطلق الوفد به ، فلما بان لهم أرباض
يثرّب ، أغدوا فى السير ، ولما دخلوها هيئوا الهرمزان فى هيئته ، فألبسوه
كسوة من الديباج الذى فيه الذهب ، ووضعوا على رأسه تاجا مكللا
بالباقوت وعليه حلّيته كيما يراه عمر والمسلمون ، وانطلق الوفد إلى بيت
عمر ، فقبل لهم إنه خرج ، فساروا فى طرقات المدينة والناس حولهم ، ومروا
بغلمان يلعبون ، فسألهم الغلمان : « من تريدون ؟ أمير المؤمنين ؟ » .
— أجل .

— إنه نائم فى ميمنة المسجد .

فانطلق الناس إلى المسجد ، فألفوا رجلا نائما متوسدا برنسه ، ولا أحد فى
المسجد غيره ، فانطلقوا وجلسوا دونه ، فراح الهرمزان يدير عينيه فى
المسجد ، فلا يجد إلا رجلا نائما وفى يده درة معلقة ، فسأل الوفد :

— أين عمر ؟

— هو ذا .

وأشاروا إلى الرجل النائم ، فظهر العجب على وجه الهرمزان ، وارتفعت أصوات الناس ، ولكن الوفد أشاروا إلى الناس أن اسكتوا .
وقال الهرمزان :

— أين حرسه وحجابه ؟

— ليس حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا ديوان .

— فينبغي أن يكون نبيا !

— بل يعمل عمل الأنبياء .

وحدثت جلبة ، وأخذ الناس يموجون بعضهم في بعض ، فاستيقظ عمر وفتح عينيه ، فوقع بصره على رجل أعجم في ملابس فاخرة ، وعلى رأسه تاج يتلأأ ، فاستوى جالسا ، وسأل من حوله :

— الهرمزان ؟

— نعم .

فأخذ عمر يتأمل ويتأمل ما عليه ثم قال :

— أعوذ بالله من النار ، وأستعين الله ، والحمد لله الذي أذل بالإسلام هذا وأشياعه .

ثم التفت إلى الناس وقال :

— يا معشر المسلمين ، تمسكوا بهذا الدين ، واهتدوا بهدى نبيكم ، ولا

تبطرنكم الدنيا فإنها غرارة .

فقال له الوفد :

— هذا ملك الأهواز فكلمه .

— لا . حتى لا يبقى عليه من حليته شيء .

فجردوه من ثيابه إلا ما يستره ، ثم ألبسوه ثوبا صفيقا . وقال له عمر :
— هيه يا هرمزان ، كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله ؟
— يا عمر إنا وإياكم في الجاهلية ، كان الله قد خلى بيننا وبينكم ، فغلبناكم إذ لم
يكن معنا ولا معكم ، فلما كان معكم غلبتمونا .
— إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا .. ما عذرنا وما حاجتك في
انتقاضك مرة بعد مرة ؟

— أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك .
— لا تخف ذلك .
— أريد أن أشرب .
فأتى بماء في قدح غليظ ، فقال الهرمزان :
— لو مت عطشا لم أستطع أن أشرب في مثل هذا .
فأتى بماء في إناء يرضاه ، فتناوله وجعلت يده ترتجف ، ثم التفت إلى عمر
وقال :

— أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء .
فقال عمر :
— لا بأس عليك حتى تشربه .
فألقي الهرمزان بالماء ولم يشربه ، فقال عمر :
— أعيذوا عليه ، ولا تجمعوا عليه القتل والعطش .
— لا حاجة لي في الماء ، إنما أردت أن أستأمن به .
— إني قاتلك .
— قد أمنتني .
— كذبت .

فقال أنس ، وكان واقفاً مع الناس يسمع :

— صدق يا أمير المؤمنين قد أمنتته .

— ويك يا أنس .

— قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني ، وقلت لا بأس عليك حتى تشربه .

وشهد الناس بمثل ذلك ، فأطرق. عمر قليلاً ثم رفع رأسه والتفت إلى

الهرمزان وقال :

— خدعتني ، والله لا أنخدع إلا لمسلم .

. فأسلم الهرمزان ، وفرض له عمر ألفين ، وأنزله المدينة .

الفصل التاسع والعشرون

فتح الفتوح

﴿ قل هل تریصون بنا إلا إحدى الحسنین ونحن
نتریص بکم أن یصیبکم الله بعذاب من عنده أو بأیدینا
فتربصوا إنا معکم متربصون ﴾

(قرآن کریم)

شئت سعد الأعاجم ، واستقر فی الکوفة ، وعلا شأنه ، وأرسل العیون
وراء القوم الفارین خشية أن یتجمعوا ویفاجئوه ، فأکلت الغيرة بعض
القلوب ، فراح الجراح بن سنان الأسدی یجمع بعض نفر من بنی أسد
لینطلقوا إلى عمر فی المدینة ولیؤلبوه علی سعد ، وتمکن الجراح من جمع بعض
نفر ، وراحوا یتحینون الفرصة للخروج من الکوفة إلى المدینة لإنفاذ ما بیتوه
بلیل .

وعلم سعد أن یزدجرد کاتب أهل الجبال من بین الباب والسند وخراسان
وحلوان ، فتحركوا وتکاتبوا ، وركب بعضهم إلى بعض ، فأجمعوا أن یوافوا
إلى نهاوند ، ویرموا فیها أمورهم ، وبلغه أنهم قالوا : إن محمداً الذی جاء
العرب بالدين لم یعرض غرضنا ، ثم ملکهم أبو بکر من بعده ، فلم یعرض
غرض فارس إلا فی غارة تعرض لهم فیها ، وإلا فیما یلی بلادهم من السواد ، ثم
ملك عمر من بعده فطال ملکه وعرض حتی تناولکم وأنتقصکم السواد
والأهواز وأوطأها ، ثم لم یرض حتی أتى أهل فارس والمملکة فی عقر دارهم ،

وهو آتيكم إن لم تأتوه ، فقد أخرب بيت ملككم ، وليس بمنته حتى تخرجوا من في بلادكم من جنوده ، ثم تشغلوه في بلاده ، فأرسل سعد إلى أمير المؤمنين رسولا بالخبر ، وكتب له : « إن أهل الكوفة يستأذنونك في الانسياح إلى أن يبادروهم الشدة » .

خرج رسول سعد ، وخرج أولئك نفر الذين اتفقوا على الشخص إلى أمير المؤمنين للإيقاع بينه وبين سعد ، وأخذ سعد يستعد لاستئناف قتال أهل فارس في عقر دارهم ، إنه يعلم أنهم جاءوا قبل أن يبادروهم الشدة ، ازدادوا جرأة على المسلمين وقوة .

وكان سعد بن أبي وقاص قد استعمل النعمان بن مقرن على كسكر يجبي الخراج ، ولكن النعمان رجل جهاد وقاتل ، فلم يرض بهذا العمل ، ولم يطب به نفسا ، إنه يتوق إلى النزال ، فما لمثله وما لجمع المال ، فكتب إلى عمر : « إني قد تقت إلى الجهاد ، ومثلي ومثل كسكر كمثلي رجل شاب إلى جنبه مومسة تلون له وتعطر ، فأنشذك الله لما عزلتني عن كسكر ، وبعثتني إلى جيش من جيوش المسلمين » .

وصل رسول سعد إلى عمر ، وبلغه كتاب النعمان ، فكتب عمر إلى سعد : « إن النعمان كتب إلى يذكر أنك استعملته على جباية الخراج . وأنه كره ذلك ورغب في الجهاد ، فابعث به إلى أهم وجوهك إلى نهاوند » ؛ وبينما كان سعد يجهز الجيوش التي ستخرج من الكوفة لقتال الأعداء ، كان أولئك نفر الذين خرجوا من الكوفة للإيقاع بسعد عند عمر يحادثونه ويخوضون في سعد ؛ فقال أحدهم :

— إنه لا يقسم بالسوية .

وقال الثاني :

— إنه لا يعدل في الرعية : ولا يغزو في السرية .

وقال الثالث :

— إنه لا يحسن الصلاة .

فأطرق عمر برهة ، ثم رفع رأسه وقال :

— إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في هذا الأمر ، وقد استعد لكم من استعد ، وأيم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم ، وإن نزلوا بكم .

ونادى عمر محمد بن مسلمة ، وأمره أن ينطلق إلى الكوفة للنظر في هذه الشكوى .

بلغ محمد بن مسلمة الكوفة ، وكانت تموج بالناس موجا ، وتعج عجيجا ، وكانت الجيوش تتأهب للخروج ، وانطلق محمد إلى قصر سعد ، فدخل وأعلمه ما جاء به ، ثم أخذه وراح يطوف به على مساجد الكوفة يسأل الناس عنه علنا ، فليست المسألة في السر من شأنهم ، وبلغا مسجداً ، فسأل محمد الناس :

— ما رأيكم في سعد ؟

— لا نعلم إلا خيراً ، ولا نشتهي به بدلا ، ولا نقول فيه ، ولا نعين عليه .

فانطلقا إلى مسجد آخر ، وسأل محمد الناس :

— أنشد بالله رجلا يعلم حقا إلا قال .

فقال رجل :

— إنه ليعدل في القضية ، ويقسم بالسوية .

واستمر الطواف على مساجد الكوفة حتى انتهى إلى بني أسد ، قبيلة الجراح بن سنان ، وسألهم محمد عن سعد ، فقال أحدهم :

(سعد بن أبي وقاص)

— إن الصيد يلهيه .

وقال آخر :

— إنه لا يقسم بالسوية ، ولا يحسن الصلاة ، ولا ينفر في السرية .

فظهر الغضب في وجه سعد وقال :

— إني لأول رجل أهرق دما من المشركين ، ولقد جمع لي رسول الله ﷺ أبويه ، وما جمعهما لأحد قبلي ، ولقد رأيتني خمس الإسلام ، وبنو أسد تزعم أني لا أحسن أصلي ، وأن الصيد يلهيني ؟!

وأمر محمد سعداً أن يتأهب للانطلاق والقوم إلى عمر ليرى رأيه ، فترك عبد الله بن عبد الله بن عتبان خلفاً له على الكوفة ، وخرج تاركاً خلفه الكوفة وجيوش المسلمين المتأهبين للخروج ، وبلغ القوم عمر فقص محمد بن مسلمة عليه ما رأى وما سمع ، فالتفت عمر إلى سعد وقال :

— يا سعد ويحك ! كيف تصلي ؟.

— أطيل الأوليين ، وأحذف الآخرين .

— هكذا الظن بك يا أبا إسحاق .

وخرج سعد بريئاً مما ألصق به ، ولكن عمر شاء أن يبقيه في المدينة فسأله :

— من خليفتك يا سعد على الكوفة ؟

— عبد الله بن عبد الله بن عتبان .

والتفت عمر إلى من حوله وقال :

— من يعذرني من أهل الكوفة ، إن وليت عليهم التقى ضعفوه ، وإن وليت

عليهم القوى فجرّوه .

فقال له المغيرة :

— يا أمير المؤمنين ، إن التقى الضعيف له تقواه وعليك ضعفه ، والقوى

الفاجر لك قوته وعليه فجوره .

فنظر عمر إلى المغيرة وقال :

— صدقت ، فأنت القوى الفاجر ، فاخرج إليهم .

وأخذ سعد يقص على عمر أنباء تجمع الفرس . وعمر مطرق يفكر ،
وانتهى سعد من حديثه فاستأذن وانصرف ، وبقي عمر يفكر في أمر الفرس
وتجمعهم ، وفيما هو في تفكيره ، أقبل رسول من الكوفة يحمل رسالة بأنه قد
تجمع من الفرس خمسون ومائة ألف مقاتل ، وأنه ينبغي مبادرتهم الشدة ؛ فلما
انتهى عمر من قراءة الكتاب ، التفت إلى الرسول وسأله :

— ما اسمك ؟

— قريب .

— ابن من ؟

— ابن ظفر .

فأشرق وجه عمر وقال :

— ظفر قريب إن شاء الله .

وأمر المنادي أن ينادى . « الصلاة جامعة » فأقبل الناس وكان أول من دخل
المسجد سعد بن أبي وقاص ، فلما وقعت عين عمر على سعد تفاعل وقام على
المنبر وخطب الناس وذكر لهم خبر تجمع الفرس واستشارهم ، وقال :

— هذا يوم له ما بعده من الأيام ، ألا وإني قد هممت بأمر وإني عارضه
عليكم فاسمعوه ، ثم أخبروني وأوجزوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ،
ولا تكثرُوا ولا تطيلوا فتفشغ بكم الأمور ، ويلتوى عليكم الرأي ، أفمن
الرأي أن أسير فيمن قبلي ، ومن قدرت عليه حتى أنزل وسطا بين هذين
المصريين ، فاستنفرهم ثم أكون لهم ردءا ، حتى يفتح الله عليهم ويقضى

ما أحب ، فإن فتح الله عليهم أن أضربهم عليهم في بلادهم وليتنازعوا ملكهم .

فقام طلحة بن عبيد الله خطيباً ، فقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، أما بعد يا أمير المؤمنين ، فقد أحكمتك الأمور ، وعجمتك البلايا ، واحتنتك التجارب ، وأنت وشأنك ، وأنت ورأيك ، لا ننبو في يدك ، ولا نكل عليك ، إليك هذا الأمر فمرنا نطع ، وادعنا نجب . واحملنا نركب ، ووفدنا نقد ، وقدنا ننقد ، فإنك ولي هذا الأمر ، وقد بلوت وجربت واختبرت ، فلم ينكشف شيء من عواقب قضاء الله لك إلا عن خيار .

وانتهى طلحة من خطبته فجلس ، وساد المكان سكون وهدوء ، فقال

عمر :

— إن هذا يوم له ما بعده من الأيام فتكلموا .

فقام عثمان بن عفان فتشهد وقال :

— أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شأهم ، وتكتب إلى أهل اليمن ، فيسيروا من يمنهم ، ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين إلى المصرين الكوفة والبصرة ، فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين ، فإنك إذا سرت بمن معك وعندك ، قل في نفسك ما قد تكاثر من عدد القوم ، وكنت أعز عزا وأكثر يا أمير المؤمنين ، إنك لا تستبقى من نفسك بعد العرب باقية ، ولا تمتنع من الدنيا بعزير ، ولا تلوذ منها بحريز ، إن هذا اليوم له ما بعده من الأيام ، فاشهده برأيك وأعوانك ، ولا تغب عنه .

وجلس عثمان وعاد السكون إلى المكان ، فعاد عمر وقال :

— إن هذا يوم له ما بعده من الأيام ، فتكلموا .

فقام علي بن أبي طالب وقال :

— أما بعد يا أمير المؤمنين ، فإنك إن أشخّصت أهل الشام من شأهم ، سارت الروم إلى ذراريهم ، وإنك إن أشخّصت أهل اليمن من يمنهم ، سارت الحبشة إلى ذراريهم ، وإنك إن أشخّصت من هذه الأرض ، انتقضت عليك الأرض من أطرافها وأقطارها ، حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات ، أقرر هؤلاء في أمصارهم ، واكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق ، فلتقم فرقة لهم في حرمهم وذراريهم ، ولتقم فرقة في أهل عهدهم لئلا ينتقضوا عليهم ، ولتسر فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مددا لهم ، إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا : هذا أمير العرب وأصل العرب ، فكان ذلك أشد لطلبهم وألبتهم على نفسك ، وأما ما ذكرت من مسير القوم ، فإن الله هو أكره لمسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما يكره ، وأما ما ذكرت من عددهم فإننا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ، ولكننا كنا نقاتل بالنصر .

وجلس على ، وقام سعد فتطلع الناس إلى قاهر الفرس ، ومزلزل ملكهم ، وأصاخوا السمع ليسمعوا كلام أعلم الناس بحرب فارس ، فقال سعد : — يا أمير المؤمنين خفض عليك ، فإنهم إنما جمعوا لنقمة ، إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه لكثرة ولا قلة ، هو دينه الذي أظهر ، وجنده الذي أعز ، وأيده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ ، فنحن على موعود من الله ، والله منجز وعده ، وناصر جنده .

جلس سعد وقد سرى في نفوس الناس اليقين ، وانصرفوا وكلمات سعد ترن في آذانهم : « نحن على موعود من الله ، والله منجز وعده وناصر جنده » .

أرسل عمر إلى النعمان أن يخرج إلى نهاوند وأمره أن يسير بأمر الله وبعون

الله ، وبنصر الله ، بمن معه من المسلمين ، وكتب إليه : أن رجلا من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار ، وكتب إلى الأمصار أن يسيروا الجند لموافاة النعمان بنهاوند ، وبقي سعد في المدينة يتنسم أخبار المعركة ، ومرت الأيام ، وراح سعد يخرج إلى ظاهر المدينة ، فيتنطس الأخبار ؛ وفي ليلة من الليالي مر به راكب يريد المدينة ، فسأله سعد :

— يا عبد الله من أين أقبلت ؟

— من نهاوند .

— ما الخبر ؟

— خير ، فتح الله على النعمان ، واستشهد ، واقتسم المسلمون في نهاوند ، فأصاب الفارس ستة آلاف .

فأطرق سعد ، وحزن على النعمان ، وغامت عيناه بالدمع ، وراح يقاوم حزنه ، ولكن انهزمت الدموع من عينيه ، فبكى حتى بل لحيته .

الفصل الثلاثون

مفترق الطرق

« ما حمدتها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتي »

(عمر بن الخطاب)

ابتدأ مولد النهار ، واعتلى المؤذن المسجد ، وارتفع صوته بالأذان يدعو الناس إلى صلاة الصبح ، فخرج الناس من دورهم ، وانطلقوا إلى المسجد ليصلوا خلف عمر . انطلقوا بنفوس هادئة ، وما دار بخلداهم أن اليوم يختلف عن سائر الأيام ، وما دروا أنهم بعد قليل سينقلب هدوؤهم صخباً ، وطمانيتهم قلقاً ، ولو اخترقت أبصارهم حجب الغيب القريب لعلموا أن هذا اليوم يوم فاصل بين عهدين ، يوم له ما بعده .

وخرج عمر من داره ، وانطلق إلى المسجد لا يلوى على شيء ، انطلق ليحمل عبء المسلمين في جميع الأمصار ، وما علم أنه عما قليل يوضع عن كاهله ذلك العبء الجسيم ، ودخل المسجد وأم القوم ، وقبل أن يكبر التفت خلفه فرأى المسلمين قد سوا الصفوف ، وسدوا الفرجات ، فطابت نفسه ، وكبر وهم بقراءة القرآن ، ولكن رجلاً دخل في الناس ، وراح يشق الصفوف حتى بلغ عمر ، فراح يطعنه بخنجر معه ، وشاهد الرجل الواقف خلف عمر ، ما يفعل القاتل ، فانقض عليه ، ولكن القاتل عاجله بضربة سقط بعدها الرجل مجداً ، وسقط عمر ، فحدث هرج ، وماج الناس بعضهم في بعض ، وانقضوا على القاتل وأخذوا بتلابيبه ، وراحت دماء عمر تتدفق ، فالتف

الناس حوله ، ولكن عمر سأل :

— أفي الناس عبد الرحمن بن عوف ؟

— نعم يا أمير المؤمنين ، هوذا .

وتقدم عبد الرحمن من عمر الذي قال له :

— تقدم فصل بالناس :

وتقدم عبد الرحمن : جعل يصلي بالناس ، وعمر طريق ينزف دمه ، وخفف

عبد الرحمن في الصلاة ، ولما قضيت أسرع الناس إليه ، وحملوه إلى داره .

انطلق أصحاب عمر به إلى الدار ، وراح الناس يتحدثون عن أبي لؤلؤة

غلام المغيرة بن شعبة قاتل عمر ، فهذا يذكر أصله ، وذلك يحدث عن سبب

حقده على عمر ، وثالث يقول إن عمر خرج يوما يطوف في السوق ، فلقبه أبو

لؤلؤة فقال : « يا أمير المؤمنين أعدنى على المغيرة فإن على خراجا كثيرا » قال

عمر : « وكم خراجك ؟ » قال : « درهمان في كل يوم » قال عمر : « وما

صناعتك ؟ » قال : « نجار نقاش حداد » قال عمر : « فما أرى خراجك بكثير

على ما تصنع من الأعمال ، قد بلغنى أنك تقول لو أردت أن أعمل رحي

تطحن بالريح لفعلت » قال : « نعم » قال عمر : « فاعمل لي رحي » قال : « لئن

سلمت لأعملن لك رحي يتحدث بها من بالمشرق والمغرب » وها هو العبد

ينفذ وعيده ، لقد طعنه طعنات سيتحدث بها من بالمشرق والمغرب .

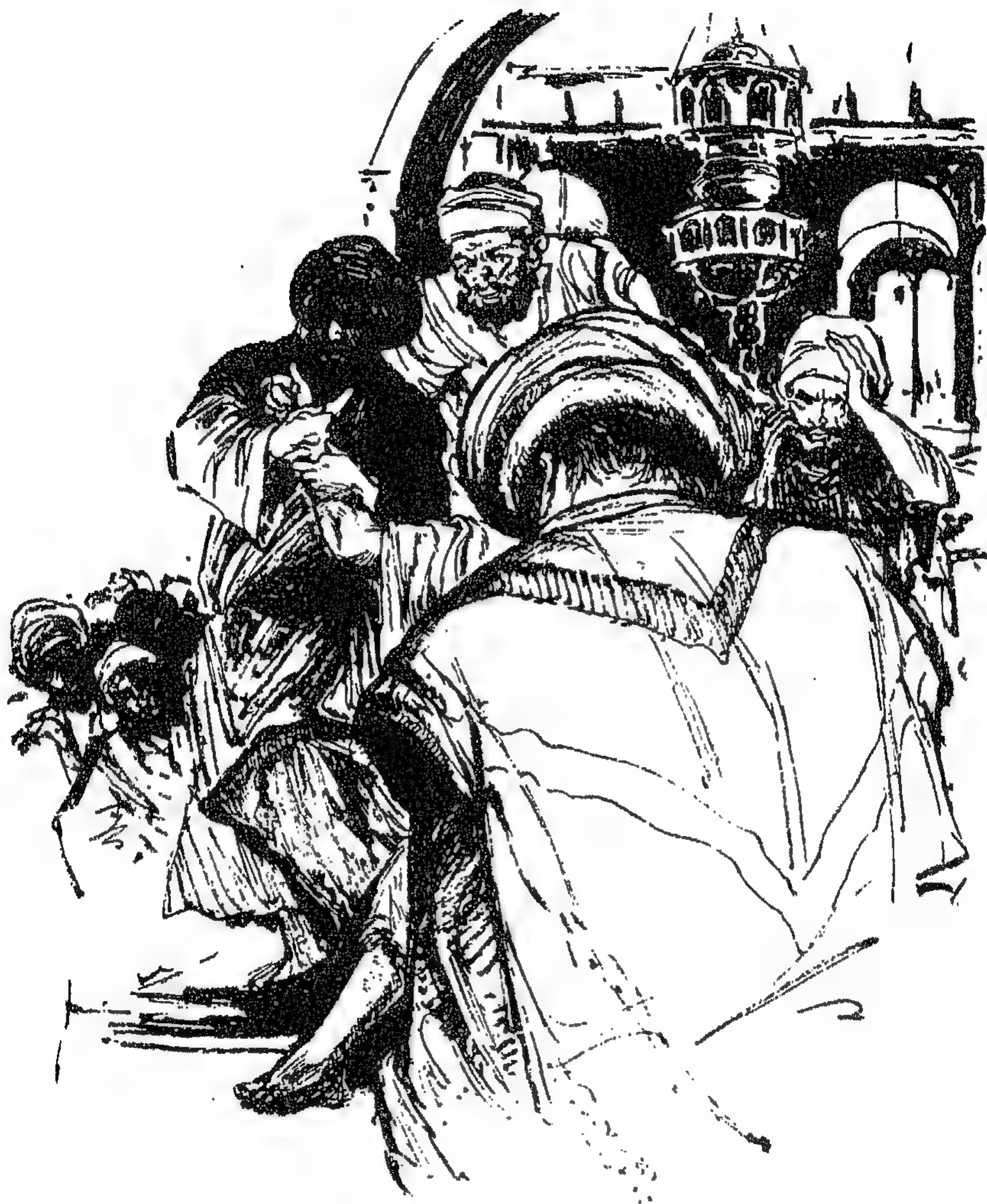
وضع عمر في فراشه ، والدم ينزف منه ، فالتفت إليه من عنده وقالوا له :

— يا أمير المؤمنين لو دعوت الطبيب ؟

— افعلوا .

فأرسلوا في طلب طبيب من بني الحارث فجاء فسقاه نبیذا ، فخرج النبید

مشكلا فقال :



ولما قضيت أسرع الناس إليه وحملوه إلى داره

— اسقوه لبنا .

فسقوه لبناً ، فخرج اللبن أبيض ، وبان الضعف على عمر ، فقال له بعض من عنده :

— يا أمير المؤمنين لو استخلفت ؟

— من أستخلف ، لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا استخلفته ، فإن سألتني ربي قلت : سمعت نبيك يقول : إنه أمين هذه الأمة .

فقال رجل :

— أدلك عليه ، عبد الله بن عمر .

فظهر الضيق في وجه عمر وقال :

— قاتلك الله ، والله ما أردت الله بهذا ، ويحك ! كيف أستخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته ، لا أرب لنا في أموركم ، ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتي ، إن كان خيرا فقد أصبنا منه ، وإن كان شرا فشر عنا آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ، ويسأل عن أمر أمة محمد ، أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي ، وإن نجوت كفافاً ، لا وزر ولا أجر ، إني لسعيد ، وانظر فإن استخلفت فقد استخلف من هو خير مني . وإن أترك فقد ترك من هو خير مني ، ولن يضيع الله دينه .

وخرج الناس من عند عمر ولم يعهد ولم يول أمر المسلمين أحدا ، واشتد الوجع عليه ، ولم يكن يفكر في نفسه ، بل كان يفكر في المسلمين الذين سيتركهم خلفه ، فرأى أن يدعو أصحاب النبي الذين توفى وهو عنهم راض ، فقال لعبد الرحمن بن عوف ، وكان عنده :

— ادع لي علياً وعثمان والزبير وسعدا .

فأرسل عبد الرحمن في طلبهم فلما اكتمل عقدهم ، قال لهم عمر :

— إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض ، إني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم ، فيختلف الناس ، فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذن منها ، فتشاوروا ، واختاروا رجلا منكم .

وهما بالانصراف ، ولكن عمر قال لهم :

— لا تدخلوا حجرة عائشة ، ولكن كونوا قريبا .

ودخلوا حجرة قريبة ، وراحوا يتناجون ، وراح الدم ينزف من عمر ، وارتفعت المناجاة إلى نقاش ، ثم انقلب النقاش الهادئ إلى نقاش حاد ، فتضايق ابن عمر فصاح :

— سبحان الله ، إن أمير المؤمنين لم يمت بعد .

وبلغ صوت عبد الله بن عمر أذن أبيه ، فأشار عمر لهم أن أقبلوا فلما جاءوا قال لهم :

— ألا أعرضوا عن هذا أجمعين ، فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام ، وليصل بالناس صهيب ، ولا يأتين اليوم الرابع ألا وعليكم أمير منكم ، ويحضر عبد الله ابن عمر مشيرا ولا شيء له من الأمر ، وطلحة شريككم في الأمر ، فإن قدم في الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم ، وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم ، ومن لي بطلحة ؟

فقال سعد :

— أنا لك به ولا يخالف إن شاء الله .

— أرجو ألا يخالف إن شاء الله ، وما أظن أن يلي إلا أحد هذين الرجلين ؛ علي أو عثمان ، فإن ولي عثمان ، فرجل فيه لين ، وإن ولي علي ، ففيه دعابة ، وأحر به أن يحملهم على طريق الحق ، وإن تولوا سعداً فأهلها هو ، وإلا فليستعن به

الوالى فإني لم أعزله عن خيانة ولا ضعف ، ونعم ذو الرأى عبد الرحمن بن عوف مسدد رشيد ، له من الله حافظ ، فاسمعوا منه . ودعا عمر صهيياً وأمره أن يصلى بالناس ثلاثاً بعد موته حتى يتفقوا على خليفة من بينهم ، وأرسل إلى عائشة يستأذنها في أن يدفن بجوار صاحبيه الحبيين محمد ﷺ ، وأبى بكر خليفة الرسول ، فأذنت له ، فاطمأنت نفسه ، واشتد به الوجع ، ودب فيه الوهن ، فراح يتمم مستغفراً ربه ، ثم شخص بصره ، وفاضت روحه صاعدة إلى السماء راضية مرضية .

وبلغ الناس النبأ الفاجع ، فغشى وجوههم الإظلام ، وانطلق سعد وعلي وعثمان وعبد الرحمن والزبير إلى داره ليجهزوه ، ونخم الحزن على المدينة ، وأخذت الناس تندبه وتبكيه ، وبكت باكية عليه فقالت :

— وأحرى على عمر حراً انتشر حتى شاع في البشر .

تم جهاز عمر ، فحمله الناس إلى المسجد ، وسار سعد وعلي وعثمان والزبير والناس خلفه ، وقد بان الحزن في وجوههم ، ووضع في المسجد ، وتقدم على ليصلى عليه ، وتقدم عثمان ليصلى عليه ، فالتفت إليهما عبد الرحمن بن عوف وقال :

— لا إله إلا الله ، ما أحرصكما على الإمرة ، أما علمنا أن أمير المؤمنين

قال : « ليصل بالناس صهيب ؟ » .

فتنحى علي وعثمان ، وتقدم صهيب ، وصلى عليه ، ولما انتهى من صلاته تقدم الخمسة ، علي وعثمان وسعد والزبير وعبد الرحمن وحملوه ، ونزلوا به القبر ، قبر عمر ، وخرج الخمسة من قبره ، وراح علي ينفض رأسه ولحيته ثم قال :

— يرحم الله ابن الخطاب ، لقد ذهب بخيرها ونجا من شرها .

وانطلق على وهو لا يشك أن الأمر يصير إليه ، وانطلق سعد يفكر في أمر

هذه الشورى .

الفصل الحادى والثلاثون

رھط الشورى

« أعطنى موثقاً لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى ولا
تخص ذا رحم ، ولا تألو الأمة » .

(على بن أبى طالب)

دفن عمر ، وفرغ الناس لأمر دنياهم ، فراحوا يتساءلون عمن يكون
خليفة بعده ، وسرى فى يثرب قلق ورهبة ، ترى ما يفعل من حصرت الخلافة
فيهم ؟ وأشفق المشفقون على المسلمين أن ينشقوا طوائف وشيعاً ، وأن يدب
الخلاف بينهم ولما يستقر الإسلام بعد فى الأمصار التى فتحوها ، وراح
المخلصون يدعون الله أن يجنبهم فتنة الدنيا .

وأقبل سعد ، وكان شارد الفكر ، يفكر فى أمر الخلافة ، وراح يفكر فى
منافسيه ، فرأى براجح عقله أن هناك من هو أحق بها منه ، وأيقن أنه لو تخلى
وتنازل عن حقه لحصر الخلاف فى نطاق ضيق ، ولجنب المسلمين الانشقاق
والتشاحن ، فراحت فكرة التنازل تراوده ، وتحتل فكره ، وبلغ سعد حجرة
عائشة فدخلها ينتظر أهل الشورى ، وأقبل على وقابل عمه العباس ، والتفت
إليه وقال :

— سعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن صهر عثمان لا
يختلفون ، فيوليا عبد الرحمن عثمان ، أو يوليا عثمان عبد الرحمن ، فلو كان
الآخران معى لم ينفعانى ، بله إنى لا أرجو إلا أحدهما .

فقال له العباس :

— لم أدفعك في شيء إلا رجعت إلى مستأخرا بما أكره ، أشرت عليك عند وفاة رسول الله ﷺ أن تسأله : فيمن هذا الأمر ؟ فأبيت ، وأشرت عليك بعد وفاته أن تعاجل الأمر فأبيت ، وأشرت عليك حين سماك عمر في الشورى ألا تدخل معهم فأبيت ، احفظ عني واحدة ، كلنا عرضوا عليك القوم فقل : لا ، إلا أن يولوك .

ودخل على حجرة عائشة ، ثم أقبل عثمان ، والزبير ، وعبد الرحمن ، ولم يقبل طلحة فقد كان غائبا ، ودخل ابن عمر ، وجاء عمرو بن العاص والمغيرة ابن شعبة فجلسا بالباب ، فلمحهما سعد ، فحصبهما وأقامهما ، وقال لهما : — تريدان أن تقولاً حضرنا وكنا في أهل الشورى .

ودار النقاش بين أهل الشورى ، وتنافس القوم ، وكثر بينهم الأخذ والرد ، والجذب والشد ، وما كان كلامهم ليؤدي إلى نتيجة حاسمة ، فجعل كل منهم يذكر فضله وأحقية بهذا الأمر دون الجميع ، ورأى عبد الرحمن بن عوف أن الأيام الثلاثة التي حددها الخليفة الراحل لاختيار الخليفة الجديد ستنتقضى قبل اختيار أمير المؤمنين لو استمر الأخذ والرد ، والجذب والشد ، فقال :

— أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ؟

فلاذ الجميع بالسكون ، وهم سعد أن يخرج نفسه ، ولكنه أحجم فإنه لا يريد أن يتحمل مسئولية تولية أفضلهم ، وساد السكون برهة ، فقال عبد الرحمن :

— أنا أنخلع منها .

فقال عثمان :

— أنا أول من رضى ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أمين في

الأرض ، أمين في السماء » .

فقال الزبير :

— قد رضينا .

وقال سعد :

— قد رضينا .

وظل على ساكننا لا ينبس ، وتذكر قول العباس له : كلما عرضوا عليك القول قل لا ، إلا أن يولوك ، وهم أن يرفض هذا ، ولكن صوت عبد الرحمن رن في أذنه :

— ما تقول يا أبا الحسن ؟

فقال على :

— أعطني موثقاً لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى ، ولا تخص ذا رحم ، ولا تألو الأمة .

فقال عبد الرحمن :

— أعطوني موثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير ، وأن ترضوا من اخترت لكم على ميثاق الله ألا أخص ذا رحم لرحمه ، ولا آلو المسلمين . فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله ؛ وانصرف الجميع وقد ترك الأمر بين يدي عبد الرحمن بن عوف .

انطلق عبد الرحمن حتى أتى علياً على انفراد ؛ فقال له :

— إنك تقول إني أحق من حضر بالأمر لقرابتك ، وسابقتك ، وحسن أثرك في الدين ؛ ولم تبعد ، ولكن رأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر ؛ من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر ؟

— عثمان .

وانصرف من عند علي وانطلق إلى عثمان وخلا به وقال له :
— تقول شيخ من بني عبد مناف ؛ وصهر رسول الله ﷺ وابن عمه ، لي
سابقة وفضل ، ولم تبعد ، فلم يصرف هذا الأمر عني ؟ ولكن لو لم تحضر فأى
هؤلاء الرهط تراه أحق به ؟

— جـ علي .

وانصرف من عند عثمان وقابل سعداً وحادثه ثم تركه ، وانطلق إلى الزبير ؛
وقابل علي سعداً وكان معه الحسين فقال لسعد :
— اتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ، أسألك
برحم ابني هذا من رسول الله ﷺ ، وبرحم عمى حمزة منك ألا تكون لعبد
الرحمن لعثمان ظهيرا علي ، فإنى أدلى بما لا يدلى به عثمان .
فأطرق سعد ولم يحرج جوابا .

راح عبد الرحمن يدور على أصحاب رسول الله ﷺ ، ومن وافى المدينة
من أمراء الأجناد وأشراف الناس ، يشاورهم ويسألهم عما ينتخبونه خليفة
لهم ، وانقضت الأيام ، ولم تبق إلا الليلة التى ينقضى فى صبيحتها الأجل ، وبلغ
الجهد من عبد الرحمن منتهاه ، إنه لم يذق كثير غمض ، فأرسل فى طلب الزبير
وسعد ، فوافاه الزبير فى المسجد . فسأله عبد الرحمن للمرة الأخيرة ، فقال
الزبير :

— نصيبى لعل .

وأقبل سعد فى سكون الليل ، والناس نيام ، وقابل عبد الرحمن ، وأخذ
بأطراف الحديث ، فقال عبد الرحمن :

— أنا وأنت كلاله ، فاجعل نصيبك لى فأختار .

— إن اخترت نفسك فنعم ، وإن اخترت عثمان فعلى أحب إلى . أيها

الرجل ، بايع نفسك وأرحنا وارفع رءوسنا .

— يا أبا إسحاق إني قد خلعت نفسي منها على أن اختار . لا يقوم مقام أبى بكر وعمر أحد فيرضى الناس .
— فإني أخاف أن يكون الضعف قد أدركك ، فامض لرأيك . فقد عرفت عهد عمر .

أصبح الصباح ، وخرج الناس إلى المسجد زرافات ليروا ما قر عليه رأى رهط الشورى ، وصلى الناس الصبح ثم جمع عبد الرحمن رهط ، وأرسل إلى أمراء الأجناد ، وتوافدت جموع الناس حتى التج المسجد بأهله ، ووقف عبد الرحمن فسكت الجميع كأن على رءوسهم الطير . وأعاروه سمعهم ليسمعوا ما ينطق به حكم القضاء . قال عبد الرحمن :

— أيها الناس : إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم ، وقد علموا من أميرهم .

فصاح أحدهم :

— إنا نراك لها أهلاً .

فقال عبد الرحمن :

— أشيروا على بغير هذا .

فقال عمار :

— إن أردت ألا يختلف المسلمون فبايع علياً .

فصاح المقداد بن الأسود :

— صدق عمار ، إن بايعت علياً قلنا سمعنا وأطعنا .

فصاح ابن أبى سرح :

— إن أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان .

فصاح آخر مؤمناً على هذا القول :

— صدق ، إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا .

فثار عمار وشتم ابن أبي سرح وقال :

— متى كنت تنصح المسلمين ؟

وراح بنو هاشم يعددون مناقبهم ، وأخذ بنو أمية يذكرون فضلهم ، وراح سعد يرقب ما يحدث ، فرأى الفتنة تطل عليهم ، وتأهب لأن تنشب أظافرها فيهم فتمزق ثملهم ، وتفرقهم شيعاً ، وصك أذنيه صوت عمار وهو يصيح :
— أيها الناس : إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه ، وأعزنا بدينه ، فأني تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ؟

وبلغ سمعه قول رجل لعمار :

— لقد عدوت طورك بابن سمية وما أنت وتأمير قريش لأنفسها ؟

فاقترب سعد من عبد الرحمن وقال له :

— يا عبد الرحمن : افرغ قبل أن يفتن الناس .

فأشار عبد الرحمن للناس ، فلاذوا بالصمت فقال :

— إني قد نظرت وشاورت فلا تجعل أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً ،

ودعا علياً فقال :

— عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة

الخليفين من بعده ؟

فسرى الأمل الدفء في صدور أنصار علي ، فعماً قليل ينادى به خليفة

للمسلمين ، وقال علي :

— أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي .

ودعا عبد الرحمن عثمان وقال له :

— عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله ، وسنة رسوله ، وسيرة
الخلايفتين من بعده ؟

— نعم .

— إني أبايعك أميراً للمؤمنين .

فثار أنصار علي ، وأظهروا استيائهم من هذا القرار ، والتفت علي إلى عبد
الرحمن وقال :

— حبوته حبو دهر ، ليس هذا أول يوم تظاهرت فيه علينا ، فصبر جميل ،
والله المستعان علي ما تصفون .

الفصل الثانى والثلاثون

عثمان أمير المؤمنين

﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴾ .
(قرآن كريم)

قال عبد الرحمن بن عوف لعثمان بن عفان :
— إني أبايعك أميراً للمؤمنين .

وسمع الناس مقالة عبد الرحمن فأنجفلوا إلى عثمان ، وراحوا يبايعونه ، وتقدم سعد منه وبايعه ، ثم تقدم الزبير ، وتلكأ على ، ونحشى عبد الرحمن مغبة هذا التلكؤ ، فأسرع إلى على قبل أن يندلع لهيب الفتنة وقال له :
— « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » .

فراح على يشق الناس ، حتى بلغ عثمان الجالس على الدرجة الثانية من المنبر وهو يقول :

— خدعة وأيما خدعة .

. ثم تقدم منه وبايعه ، فاطمأنت القلوب ، فلن يشق أحد عصا المسلمين ، وبايع الناس وانصرف عثمان والناس معه إلى بيت فاطمة ابنة قيس ، وجلس على وسعد وعبد الرحمن والزبير معه ، فقام المغيرة خطيباً ، فقال : يا أبا محمد ، الحمد لله الذى وفقك ، والله ما كان لها غير عثمان .

فقال عبد الرحمن :

— يا ابن الدباغ ، ما أنت وذاك ، والله ما كنت أباع أحداً إلا قلت فيه هذه المقالة .

ونظر عثمان إلى المغيرة وأطرق ، وقد اعتزم في نفسه أمراً ، لقد اعتزم عزله عن الكوفة وتولية سعد بدله .

جلس عثمان في المسجد ، وطلب من سعد أن يوافيه بعبيد الله بن عمر المجهوس في داره ، فانطلق سعد ، وفي الطريق راحت الصور تمر في مخيلته ؛ فرأى عمر والدم يتدفق من جراحه ، ثم رآه وهو يقضى ، ورأى بعين خياله ابنه عبيد الله وقد خرج من الدار بعد موت أبيه ، وقد اشتهل على السيف لا يلوى على شيء ، ومرت بخياله صورة ذلك الذي جاء مسرعاً يخبره أن عبيد الله قد قتل الهرمزان لأنه أعطى أبا لؤلؤة الخنجر الذي قتل به عمر ، ثم جاءه آخر وأنبأه أن عبيد الله قد قتل جفنية ظئره ، وتذكر خروجه مسرعاً ليرى ما حدث ، فوافى عبيد الله والسيف في يده ، وهو يصيح : والله لأقتلن رجالا ممن شرك في دم أبي ، والناس تخشى الاقتراب منه ، فانقض عليه ، ونزع منه السيف ، ولكنه راح يقاوم ويشور ويتوعد ، فجذب شعره حتى أضجعه إلى الأرض ، ثم اقتاده إلى داره وحبسه فيها — تذكر سعد كل ذلك وهو في طريقه إلى الدار ، ولما بلغ الدار ، أخرج عبيد الله وجاء به إلى عثمان ، فالتفت عثمان إلى من عنده وقال :

— أشيروا علي في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق .

فقال علي :

— أرى أن تقتله .

فقال بعض المهاجرين مستكرين :

— قتل عمر أمس ، ويقتل ابنه اليوم ؟
وأدلى عمرو بن العاص بدلوه فقال :
— يا أمير المؤمنين : إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على
المسلمين سلطان ، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك .
فطأطأ عثمان رأسه قليلاً ، ثم رفعها وقال :
— إلى بابن الهرمزان .

فجىء بابن الهرمزان ، ولما مثل بين يدي عثمان قال له :
— يا بني : هذا قاتل أبيك ، وأنت أولى به منا ، فاذهب فاقتله .
فأخذ ابن الهرمزان عبيد الله وانطلق ، وخرج الناس خلفه ، وأخذ بعض
الناس يلتمسون من ابن الهرمزان العفو عنه ، قالتفت إلى الناس وقال :
— إلى قتله ؟

— نعم .

— أفلكم أن تمنعوه ؟

— لا .

— إني أتركه لله ولكم .

وترك ابن الهرمزان عبيد الله ، وأطلق سراحه ، فهجم الناس على ابن
الهرمزان والفرح بهزهم ، واحتملوه على رؤوسهم وأكفهم ، وعادوا به إلى
منزله فرحين .

الفصل الثالث والثلاثون

ولاية سعد الكوفة

« أوصى الخليفة من بعدى أن يستعمل سعد بن أبى وقاص ، فإلى لم أعزله عن سوء » .

(عمر بن الخطاب)

استقر الأمر لعثمان ، فراح يفكر فى أمر العمال . فرأى أن يعزل المغيرة عن الكوفة ، وأن يولى سعدا ، فهو أعلم الناس بها وبأهلها ، فبعث إليه ، وأمره أن يتجهز للخروج إلى الكوفة ، فحمل أزواجه وأولاده وعاد إلى قصر سعد . انقضت سنة وسعد فى الكوفة يقوم بشئونها ، وكان على بيت المال عبد الله ابن مسعود ، وأحس سعد فى يوم من الأيام حاجة إلى المال ، فانطلق إلى بيت المال وسأل ابن مسعود أن يقرضه ما يحتاج إليه ، فأقرضه من بيت المال ، ومرت الأيام ولم يستطع سعد أن يسدد دينه ، فجاءه ابن مسعود وسأله أن يدفع إلى بيت المال ما أخذت ، فاعتذر إليه سعد وطلب منه أن يمهله قليلا ، ولكن ابن مسعود أصر على وجوب السداد فورا ، فأخبره سعد أنه لا يملك ما يوفى الدين ، وأنه إذا خرج عطاؤه سدد ما عليه .

لم ينتظر ابن مسعود طويلا ، بل استعان بأناس وبعثهم إلى سعد يطلبون منه سداد ما أخذ ، فاعتذر إليهم بعدم قدرته على السداد ، ولم يكتف بذلك ، بل بعث إليه أناسا يطلبون منه استنظاره ، ولكن ابن مسعود أبى ، وانتشر خبر دين سعد فى الكوفة ، فانقسم الناس فريقين : فريق مع سعد ، وفريق مع ابن

مسعود ، وارتفع الجدل بين الفريقين ، ونزع الشيطان بينهما وراح كل فريق يلوم الفريق الآخر ، فانتقلت المسألة من دين ومطالبة إلى تحزب بين فريقين .
وفي يوم جلس سعد وابن أخيه هاشم بن عتبة وبعض نفر من المسلمين ، وأقبل ابن مسعود ، فالتفت إلى سعد وقال :
— أَد المال الذى قبلك .

فرفع سعد نظره إليه وقد بان الغضب فى وجهه وقال :
— ما أراك إلا ستلقى شراً . هل أنت إلا ابن مسعود عبد بنى هذيل ؟
فثار غضب ابن مسعود فقال :

— أَجَل والله إني لابن مسعود ، وإنك لابن حمينة .
ورأى هاشم ارتفاع الجدل بينهما ، ونحشى اندلاع لهيب المناقشة الحادة التى يخاف عقباها ، فشاء أن يطفئها فقال :
— أَجَل والله ، إنكما لصاحبا رسول الله ﷺ ينظر إليكما . فخرج ابن مسعود ولكنه كان يعيد الكرة بين الفينة والفينة ، واستمر التحزب بل ازداد على الأيام قوة ، ورأى أحد رسل عثمان ما عليه أهل الكوفة من فرقة ، فعاد إلى عثمان وأنبأه كل شيء ، أنبأه نبأ الخلاف الذى شجر بين سعد وابن مسعود ونبأ افتراق الناس وبعضهم يلوم بعضا ، فغضب عثمان على كل من سعد وابن مسعود فأرسل إلى سعد أنه قد عزله عن ولاية الكوفة ، واستعمل الوليد بن عقبة .

بلغ سعد أن عثمان قد عزله ، فراح يعد حوائجه للعودة إلى المدينة .
وفيما هو يتجهز للعودة ، دخل ابنه عليه ، وسأله ما يفعل ؟ فقال :
— سنعود إلى المدينة .

— ولم ؟

— عزلنا عثمان .

فثار الابن ، وراح يردد : « كيف يفعل عثمان هذا ؟ ونحن الذين جئنا به إلى الخلافة ، واستمر في التحدث عن فضائلهم ، فالتفت أبوه إليه وقال : — يا بني : إياك والكبر ، وليكن فيما تستعين به على تركه علمك بالذي فيه كنت ، والذي إليه تصير ، وكيف الكبر مع النطقة التي منها خلقت ، والرحم التي منها قذفت ، والغذاء الذي به غذيت .
وخرج سعد من الكوفة للمرة الأخيرة ، فلن يشاهدها بعد اليوم ، ولن يعود إليها ، وانطلق إلى المدينة لي شاهد ثورة الأمصار عن كتب .

الفصل الرابع والثلاثون

ثورة الأمصار

﴿ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ .

(قرآن كريم)

عاد سعد إلى المدينة ، ومكث بها مدة ، وخالط أهلها ، فوجد تغيرا وتبدلا ، وجد الناس يتهامسون ويتناقلون أخبار الأمصار ، ويوسعون الأرض إذاعة ، فرأى محادثة أهل الرأى فى ذلك ، فاجتمع بعلى وطلحة والزبير ، فأخذوا يتذاكرون ما يخوض الناس فيه من حديث تدمير الأمصار ، وتأهبهم للانقلاب على عثمان ، فجمعوا رأيهم على مفاتحة عثمان فى ذلك ، فانطلقوا إليه ، واجتمعوا به وقالوا له :

— يا أمير المؤمنين : أيايتك عن الناس الذى يأتينا ؟

— لا والله .

— فإننا قد أتاننا أن الناس فى الأمصار مستاءون من عماهم ، ومتدمرون من سوء تصرفهم ، وأنهم مستعدون للثورة عليك .

فأطرق عثمان برهة ثم رفع رأسه وقال :

— فأنتم شركائى وشهود المؤمنين ، فأشيروا على .

— نشير عليك أن تبعث رجالا ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم .

وأرسل عثمان الرجال وعادوا جميعاً من الأمصار وقد قالوا :
— ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم ، الأمر أمر
المسلمين . ولم يعد عمار بن ياسر الذى أرسل إلى مصر ، فحسب الناس أنه قد
اغتيل ، ولكن عماراً كان فى مصر قد اتصل بالشوار ، وكان يستمع إلى
شكاياتهم حتى اقتنع بها فانضم إليهم .

واستمرت الشائعات ترد إلى المدينة ، فيرفعها أهل الشورى إلى عثمان ،
فكتب عثمان إلى الأمصار : أما بعد ، فإنى آخذ العمال بموافاقى فى كل موسم ،
وقد سلطت الأمة ، منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فلا
يرفع على شيء . ولا على أحد من عمالى إلا أعطيته ، وليس لى لعمالى حق قبل
الرعية إلا متروك لهم ، وقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواماً يشتمون وآخرون
يضربون ، فيا من ضرب سرا ، وشتم سرا ، من ادعى شيئاً من ذلك فليواف
الموسم ، فليأخذ بحقه حيث كان منى أو من عمالى ، أو تصدقوا ، فإن الله
يجزى المتصدقين .

ولم يكتف عثمان بذلك ، بل بعث إلى عمال الأمصار ليوافوه ، وليسمع
منهم ما يسخط الناس ليعمل على إزالة أسباب شكواهم : فوافاه العمال ، فقال
لهم :

— ويحكم ! ما هذه الشكاية وما هذه الإذاعة ؟ إني والله لخائف أن تكونوا
مصدوقاً عليكم ، وما يعصف هذا إلا بى .

— ألم تبعث ؟ ألم ترجع إليك الخبر عن القوم ؟ ألم يرجعوا ولم يشافهم أحد
بشيء ؟ لا والله ما صدقوا ولا بروا .

واستمر الحديث بين عثمان وعماله ، ثم خرج العمال جميعاً وبقي معاوية ،
فأرسل عثمان إلى سعد وعلى والزبير وطلحة ، وقدم سعد ودخل على أمير

المؤمنين ، وانتظر حتى يتم عقد أهل الشورى ، فلما التأم الجمع ، التفت معاوية إليهم وقال :

أنتم أصحاب رسول الله ﷺ وخيرته في الأمة ، وولاة أمر هذه الأمة ، لا يطمع في ذلك أحد غيركم ، اخترتم صاحبكم عن غير غلبة ولا طمع ، وقد كبرت سنه ، وولى عمره ، ولو انتظرتكم به الهرم كان قريبا ، مع أنى أرجو أكرم على الله أن يبلغ به ذلك ، وقد فشلت قالة خفتها عليكم ، فما عبت فيه من شيء فهذه يدى لكم به ، ولا تطمعوا الناس فى أمركم ، فوالله لئن طمعوا فى ذلك لا رأيتم فيها أبدا إلا إدبارا .

فالتفت على إلى معاوية وقال له :

— ومالك وذلك ؟ وما أدراك ؟ لا أم لك .

فقال معاوية فى هدوء :

— دع أسمى مكانها ليست بشر أمهاتكم ، قد أسلمت وبايعت النبى ﷺ ، وأجبنى فيما أقول لك .

فقال عثمان :

— صدق ابن أخى ، إني أخبركم عنى وعمائيت ، إن صاحبى اللذين كانا قبل ظلما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل احتسابا ، وأن رسول الله ﷺ كان يعطى قرابته ، وإنا فى رهط أهل عيلة وقلة معاش ، فبسطت يدى فى شيء من ذلك المال لمكان ما أقوم به فيه ، ورأيت أن ذلك لى ، فإن رأيتم خطأ فردوه ، فأمرى لأمركم تبع .

فقال سعد :

— أعطيت مروان فرده .

وقال الزبير :

— أعطيت عبد الله بن خالد فرده .

فوعدهم عثمان برد ما أعطاهم ، فخرجوا من عنده راضين .
كاتب أهل مصر أشياعهم من أهل الكوفة وأهل البصرة ، وتواعدوا على
اللقاء في المدينة ، فخرج أهل مصر إلى المدينة مدعين الحج ، وخرج أهل
الكوفة والبصرة ، وبالقرب من المدينة سارت الرسل بين جماعات الثوار .
بلغ عثمان مسير الثوار إلى المدينة ، وعلم أن المصريين قد نزلوا بذي قار ،
وكان عثمان يعلم منزلة علي في الناس ، فأرسل إليه وطلب منه أن يخرج للقائهم
وردهم ، وأرسل إلى عمار بن ياسر أن يخرج مع علي ، ولكن عماراً أبى ،
فأرسل عثمان إلى سعد وقال له :

— أرسلت إلى عمار أن يخرج مع علي فأبى ، ألا تأتيه فتكلمه أن يخرج مع
علي ؟

فخرج سعد وانطلق ودخل على عمار وسلم عليه ثم قال :
— يا أبا اليقظان ألا تخرج فيمن يخرج مع علي ، وهذا علي يخرج فخرج
معه ، وردد هؤلاء القوم عن إمامك ، فإني لأحسب أنك لم تتركب مركباً هو
خير لك منه .

— لا .

— اخرج يا عمار مع علي وكلم الناس لعلهم يرجعون عن المدينة .
— والله لا أردهم عنه أبداً .

وأيقن سعد ألا فائدة من طلب عون عمار ، فقد حاول أن يفتله بكل وجه
دون جدوى . فعاد إلى عثمان وأخبره بقول عمار ، ولكن عثمان لم يصدق قول
سعد فأقسم له سعد أنه يناصحه ويقول له الحق .

وعاد علي إلى عثمان وأخبره أنه تمكن من إقناع أهل مصر ، وأنهم قد عادوا

إلى ديارهم ، وسرى هذا النبأ في المدينة فانتعشت ، وحسب أهل يثرب أن الزوبعة قد مرت ، وما دار بخلداهم ، أنها تستجم لتقتلع كل ما يصادفها ، وتخلع ما يقف في طريقها .

انقضى اليوم بسلام ، وأقبل اليوم الثاني ، فجاء مروان عثمان وقال له : — تكلم ، أعلم الناس أن أهل مصر قد رجعوا ، وأن ما بلغهم عن إمامهم كان باطلا ، فإن خطبتك تسير في البلاد ، قبل أن يتحلب الناس عليك من أمصارهم ، فيأتيك من لا تستطيع دفعه .

فأبى عثمان أن يخرج ليخطب ، ولكن مروان لم يزل به حتى خرج ، واعتلى المنبر وقال : « أما بعد ، إن هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلغهم عن إمامهم أمر ، فلما تيقنوا أنه باطل ما بلغهم عنه رجعوا إلى بلادهم » . وكان عمرو بن العاص في المسجد ، وكان عاملا على مصر وقد عزله عثمان فساءه أن تخمد نار الفتنة ، وشاء أن يحركها ويؤجج نارها ويزكيها ، حتى يندلع لهيبها ، فيثار لعزله ، فانتهر الفرصة المواتية فاهتبلها وصاح من ناحية المسجد : — اتق الله يا عثمان ، فإنك قد ركبت نهاير وركبناها معك ، فتب إلى الله نتب .

وهم عثمان أن يرد على عمرو ولكن صوتا آخر نادى من ناحية أخرى : — تب إلى الله وأظهر التوبة يكف الناس عنك .
فرفع عثمان يديه مدا واستقبل القبلة فقال : — اللهم إني أول تائب تاب إليك .

وعاد عثمان إلى داره ، وخرج عمرو بن العاص ليؤلب الناس عليه ، وبينما أهل المدينة في دورهم هادئون ، إذ ارتفعت أصوات بالتكبير ، فارتجت المدينة وخرج الناس يسألون عن الخبر ، وخرج سعد فعلم أن المصريين قد قفلوا

راجعين بعد مسيرهم ، وأنهم حاصروا عثمان ، فانطلق إلى القوم بحادثهم ، فقالوا له :

— من كف يده فهو آمن .

وجاء على فأسرع سعد إلى الثوار فسألهم :

— ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم ؟

— أخذنا مع بريد كتابا بقتلنا .

وأقبل أهل الكوفة والبصرة فسألهم على :

— وأنتم ما جاء بكم ؟

— نحن ننصر إخواننا .

فقال على :

— كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وفد سرتهم

مراحل ، ثم طويتم نحونا ، هذا والله أمر أبرم بالمدينة .

— ضعوه على ما شئتم ، لا حاجة لنا في هذا الرجل ، ليعتزلنا .

واعتزل الناس في دورهم ، وفي يوم اجتمع الناس في المسجد وكان الثوار

جالسين فيه ، وخرج عثمان فسكتوا فكأن على رأسهم الطير ، وساد المسجد

سكوت الرموس ، فخطبهم عثمان وأعطاهم الرضا وبكى واستمر يردد :

« اللهم إني أتوب إليك ، اللهم إني أتوب إليك ، اللهم أني أتوب إليك ، إذا

دخلت منزلي فادخلوا على ، فوالله لا أحتجب منكم ، ولأعطينكم الرضا ،

ولأزيدنكم على الرضا ، ولأنحين مروان وذويه » .

عاد عثمان إلى داره ، وخرج سعد ليزور خليفة رسول الله ، فرأى الناس

يركب بعضهم بعضا ، ثم رأى باب عثمان يفتح ويخرج منه مروان ويقول :

— شاهت الوجوه إلا من أريد ، ارجعوا إلى منازلكم ، فإن يكن لأمر

المؤمنين حاجة بأحد منكم يرسل إليه وإلا قر في بيته .
فعجب سعد كيف يقول مروان ذلك بعد مقالة عثمان ، وكيف يقبل عثمان
أن يكون سيقه لمروان يسوقه حيث شاء ، بعد كبر السن وصحبه الرسول ؟
يا لمروان إنه يقود عثمان إلى الهلاك .

وانطلق سعد وقد عزم على أن يعتب على مروان .
ثار الناس بعد خطاب مروان ، وبات أهل يثرب يوجسون خيفة ، وما
استطاع الناس أن يرحلوا دورهم ، واعتزل عثمان في داره ، وما كان يصلى
بالناس ، ووقف على داره أبناء الصحابة يذبون عنه ، ويمنعون الثوار من
الدخول عليه .

ورأى عثمان ثورة الناس الجامعة ، فأرسل إلى علي ، ولكن علياً ساءه
تصرف عثمان ، ولعب مروان به فصاح بصوت عال مغضب :
— قل له ما أنا بداخل عليك ولا عائد .

وجاء سعد ودخل على عثمان وغاب عنده مدة طويلة ، وخرج من عنده ،
فرأى عند الباب أناساً كثيرين يصيحون يطلبون دمه فاسترجع ، وبانت
الدهشة في وجهه : أبلغت الثورة حد طلب دم خليفة رسول الله ؟ والتفت
حوله فرأى مروان ، فطأطأ رأسه ، وبأن الندم في وجهه . لقد هاجم عثمان بعد
خطبة مروان الأخيرة ، واتهمه بالانصياع إلى مروان والانقياد له ، واقترب
مروان منه وقال :

— الآن تندم ، أنت أشعرتي .

— أستغفر الله ، لم أكن أظن الناس يجترئون هذه الجرأة ، يطلبون دمه ، وقد
دخلت عليه الآن ، فتكلم بكلام لم تحضره أنت ولا أصحابك ، فترع عن كل
ما كره منه وأعطى التوبة وقال لا أتمادى في الهلكة ، إن من تمادى في الجور

كان أبعد من الطريق فأنا أتوب وأنزع .
ورأى سعد الجموع الثائرة ، فاستل سيفه ، وتأهب للدفاع عن عثمان
خليفة المسلمين ، فقال له مروان :

— إن كنت تريد أن تذب عنه فعليك بآبن أبى طالب .
فأطرق سعد مفكراً ، فوجد أن علياً وحده هو الذى يستطيع أن يرد هذه
الجموع الثائرة لمكانته ، ولحبهم إياه ، فانطلق وقد عقد العزم على محادثة على .
خرج سعد حتى أتى علياً فى المسجد وهو بين القبر والمنبر وقال :
— يا أبا الحسن : قم فذاك أبى وأمى ، جئتك والله بخير ما جاء به أحد قط
إلى أحد ، تصل رحم ابن عمك ، وتأخذ بالفضل عليه ، وتحقن دمه ، وترجع
الأمر على ما نحب ، قد أعطى خليفتك من نفسه الرضى .
— تقبل الله منك يا أبا إسحاق ، والله ما زلت أذب عنه حتى إلى لأستحي ،
ولكن مروان ومعاوية وعبد الله بن عامر هم الذين صنعوا به ما ترى ، فإذا
نصحتة ، وأمرته أن ينحيهم استغشنى حتى جاء ما ترى .

— قد تاب .

— أى خير توبته هذه .

وقام على وانصرف وقفل سعد عائداً إلى داره ومكث بها ، وقد قال :
— لا أشهد قتله .

وجاءه خبر قتله ، فأطرق حزينا وغمغم : « الذين ضل سعيهم فى الحياة
الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

الفصل الخامس والثلاثون

الاعتزال

(إن الله يحب العبد الغنى الخفى التقي) .

(حديث شريف)

قتل عثمان ، ونحشى الناس الثوار فاعتكفوا في دورهم ، واستمرت المدينة تموج بالثوار موجا ، وأصبحت لا أمير لها ، وفكر الناس في مبايعة خليفة لهم ، فانطلق المصريون إلى على ، ولكنه اختبأ منهم ، وظلوا يبحثون عنه حتى لقوه ، فباعدهم وظل يتبرأ منهم ومن مقاتلهم ، وانطلق الكوفيون إلى الزبير ، وأرسلوا إليه رسلا لمحدثه في أمر البيعة ، ولكنه باعدهم وتبرأ منهم ، واتمس البصريون طلحة فلقبهم ولم يقبل بيعتهم ، وانقضى اليوم الأول ولم يجد الثوار من يقبل الخلافة ، وبقي عثمان في داره لا يجرؤ أحد على دفنه خشية بطش الثوار به . وطلعت شمس اليوم الثاني ، فراح الثوار يفكرون فيمن يولونه الخلافة غير هؤلاء الذين رفضوها ، فلم يجدوا من أهل الشورى إلا سعدا ، فبعثوا إليه وفدا يكلمه في ذلك : خرج وفد الثوار وجاءوا سعدا وقالوا له : — إنك من أهل الشورى فرأينا فيك مجتمع فأقدم نبايعك . فقال لهم :

— إني وابن عمر خرجنا منها فلا حاجة لي فيها على حال . وصمت قليلا ثم قال :

لا تخلطن خبيثات بطيية واخلع ثيابك منها وانج عريانا

وانقضى اليوم الثانى ولم يهتد الثوار إلى خليفة ، وبقي عثمان فى داره لم يقبر ، وأهل داره يخشون الخروج لدفنه رهبة من الثوار وبطشهم ، وتصرم اليوم الثالث كما تصرم سابقاه ، وجاء الزبير إلى بيت عثمان ، ولما هدا الناس وأرعى الليل سدوله ، خرجوا بعثمان وهم يلتفتون وجلين خشية أن يفاجئهم الثوار فينكلوا بهم ، حتى إذا بلغوا جدارا ، دفنوه وقللوا راجعين مسرعين لا يلوون على شىء ، وهكذا تم دفن عثمان خليفة المسلمين ، وصهر الرسول ، فى هجعة الليل ، وغفلة من الناس .

تلفت المسلمون حولهم ، فوجدوا فوضى ضاربة أطناها ، وجدوا ثوارا يحتلون المدينة ولا أمير عليها ، فانطلق أصحاب الرسول حتى دخلوا منزل على ، فقالوا له :

— إن هذا الرجل قد قتل ، ولا بد للناس من إمام ، ولا نجد اليوم أحدا أحق بهذا الأمر منك ، لا أقدم سابقة ، ولا أقرب من رسول الله ﷺ .

— لا تفعلوا ، فإنى أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً .

— لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك .

— ففى المسجد ، فإن بيعتى لا تكون خفياً ، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين .

وخرج على إلى المسجد وبايعه أصحاب الرسول إلا سعدا فإنه لم يبايعه ، فإنه لم ينس لعل يوم جاءه قبل مقتل عثمان يسأله أن يكفكف الناس عن عثمان ، ورفضه ذلك بحجة أنه كثيرا ما نصحه ولكنه كان يستغشه .

وبايع الناس عليا ، وأصبح خليفة للمسلمين ، وابتدأت الفتن تجر بعضها بعضا ، فقد بايع طلحة والزبير ، وبعض نفر من المسلمين وهم يمينون النفس بمواتاة الفرصة التى ينقلبون فيها على على ، وينتزعون الأمر منه ، وكانت عائشة

أم المؤمنين قد خرجت للحج وعثمان محصور ، فلقىها رجل من أخوالها ، وهى فى طريقها إلى المدينة فقالت :

— ما وراءك ؟

— قتل عثمان ، واجتمع الناس على علي ، والأمر أمر الغوغاء .

— ما أظن ذلك تماما ، ردونى .

وعادت راجعة إلى مكة وكان طلحة والزبير قد استأذنا عليا فى العمرة فأذن لهما ، بلغت عائشة مكة ودخلتها فوافاها عبد الله بن عامر الحضرمى وكان أمير عثمان على مكة فقال :

— ما وراءك يا أم المؤمنين ؟

— ردنى أن عثمان قتل مظلوما ، وأن الأمر لا يستقيم وهذه الغوغاء أمر ، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام .

واجتمع طلحة والزبير بعائشة أم المؤمنين ، واتفقوا على المطالبة بدم عثمان ، فقامت أم المؤمنين تحرض الناس فقالت :

— أيها الناس ، إن هذا حدث عظيم ، وأمر منكر ، فانهضوا فيه إلى إخوانكم من أهل البصرة فأنكروه ، فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم ، لعل الله عز وجل يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم .

وشخصت أم المؤمنين إلى البصرة مع الشاخصين ، وخرج على لقتال شاق عصا الطاعة ، وابتدأت الحروب بين المسلمين ، فاعتكف سعد فى أبله ، ولم يشأ أن ينضم إلى أحد الفريقين ، فكيف يشترك فى حرب يقتل المسلم أخاه المسلم ؟ إنه لا يقر أن يهرق المسلمون دماءهم فى محاربة إخوانهم فى الدين ، إنه امتنع عن مبايعة علي ، ولكنه لا يقر محاربته ، أن لعل فضلته ومنزلته . واستمر معتزلا فى إبله ، وجاء ابنه عمر إليه يوما وقال له :



.. يا بنى إني سمعت رسول الله ﷺ يقول :
إن الله يحب العبد الغنى الخفى التقي

- الناس يتنازعون الإمارة وأنت ها هنا ؟
- فصمت سعد قليلا ، فاستأنف ابنه الحديث :
- اخرج يا أبت فإنك أحق بها من المتنازعين .
- فقال سعد :
- لا . لن أخرج أبدا ، إني قد تركت الإمارة ، لا شأن لي فيها .
- ولم يا أبت ؟
- يا بني ، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يحب العبد الخفي التقي » .
- وخرج ابن سعد ، والناس يتطاحنون في سبيل الإمارة ، وبقي سعد في عزلته ، وجاء هاشم ابن أخيه إليه وقال له :
- يا عم ، ها هنا مائة ألف سيف يرونك أحق الناس بهذا الأمر .
- أريد من المائة ألف سيف سيف واحد ، إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئا ، وإذا ضربت به الكافر قطع .

الفصل السادس والثلاثون

معاوية في مكة

﴿ كذلك وأورثناها قوما آخرين ، .

(قرآن كريم)

دارت عجلة الزمن ، فطوت خلقاً كثيراً في حروب المتقاتلين علي الإمارة ، وطحنت المتطاحنين ، فقتل أحدهم الزبير بن العوام يوم الجمل ، وعاد بسيفه إلى علي ، فلما رأى علي السيف ، طأطأ رأسه وقال :

— سيف طالما جلى الكرب عن وجه رسول الله ﷺ .

وتم النصر لعلّ يوم الجمل ، ولكن لم يتم له الأمر ، فهناك في الشام معاوية بن أبي سفيان يطالب بدم عثمان ، ويناوئ علباً ، فسار على إليه والتقى الجمعان في صفين ، وكاد جيش علي أن ينتصر ، ورأى عمرو بن العاص أن أمر أهل العراق قد اشتد ، ونخاف في ذلك الهلاك ، فالتفت إلى معاوية وقال :

— هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً ولا يزيدهم إلا فرقة ؟
— نعم .

— نرفع المصاحف ثم نقول : ما فيها حكم بيننا وبينكم ، فإن أبي بعضهم أن يقبلها ، وجدت فيهم من يقول بلى ، ينبغي أن نقبل ، فتكون فرقة تقع بينهم ، وإن قالوا بلى نقبل ما فيها ، رفعنا هذا القتال عنا وهذه الحرب إلى أجل أو إلى حين .

ورفعت المصاحف ، فأثرت خدعة عمرو في الناس فقالوا :

— نجيب إلى كتاب الله عز وجل ونسب إليه .

كان سعد معتزلاً ولكنه كان يخرج بين الفينة والفينة ليعلم ما تم بين المتقاتلين ، وفي يوم خرج إلى دومة الجندل يتنسم الأخبار ، فلمح فارساً مقبلاً يثير النقع خلفه ، ولما اقترب الفارس تبينه سعد ، فإذا هو ابنه فسأله :

— ما وراءك يا عمر ؟

— قد حكم الناس أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص ، وقد شهدهم نفر من قريش فاشهدهم ، فإنك صاحب رسول الله ﷺ ، وأحد الشورى ، ولم تدخل في شيء كرهته هذه الأمة ، فاحضر فإنك أحق الناس بالخلافة .
— لا أفعل . إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنه تكون فتنة ، خير الناس فيها الخفي التقى » والله لا أشهد شيئاً من هذا الأمر أبداً .

وانطلق سعد ، وجاء الحكمان إلى دومة الجندل ، وانتظر سعد موافاة ابنه ليخبره ما تم في التحكيم ، وفي يوم وافى عمر أباه وقال له :

— تم الأمر لمعاوية .

— وكيف ؟

— خدع عمرو أبا موسى .

— وكيف تم ذلك ؟

— اتفقا فيما بينهما على أن يخلعا هذين الرجلين ، ويجعلا الأمر شورى بين المسلمين ، فيختاروا لأنفسهم من أحبوا ، فقام أبو موسى وقال : « إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة ، فلم نر أصلح لأمرها ، ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه ، وهو أن نخلع عليا ومعاوية ، وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر ، فيولوا منهم من أحبوا عليهم ؛ وإني قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أمركم ، وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً » . ثم تنحى وأقبل عمرو بن

العاص فقام مقامه وقال : « إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أنخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، فإنه ولي عثمان بن عفان رضى الله عنه ، والمطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه » فقال أبو موسى : « مالك ، لا وفقك الله غدرت وفجرت ، إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث » .

قال عمرو : « إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا » .

* * *

لم يسفر التحكيم عن نتيجة حاسمة ، فما توقف على القتال ، ولا أصبح معاوية خليفة للمسلمين لا ينازعه منازع ، بل استمر القتال بين المسلمين ، فاتفق ثلاثة من الرجال على قتل على ومعاوية وعمرو ، فتعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منهم عن صاحبه الذى توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه ، فأخذوا أسيافهم واتعدوا السبع عشرة تخلو من رمضان أن يشب كل واحد منهم على صاحبه الذى توجه إليه ، وتوجه كل رجل منهم إلى المصر الذى فيه صاحبه الذى يطلب ، ووافى الأجل ، فضرب بن ملجم عليا بالسيف فقتله ، أما معاوية وعمرو فقد نجيا من القتل .

وبويع الحسن بن على خليفة للمسلمين ، ولكن لم يلبث أن تنازل لمعاوية ، فأصبح أمير المؤمنين بلا منازع ، واستتب له الأمر ، وخرج للحج فمر على المدينة ، ودخل بيت سعد ودعاه للحج معه ، وكان سعد آخر من بقى من أهل الشورى ، فخرج مع معاوية معززا مكرما ، ولما بلغا مكة ، طافا معا ، وانتهت مراسيم الحج ، فانصرف معاوية إلى دار الندوة وسعد برفقته . وجلس معاوية على سريرته ، وأجلس سعدا عليه معه ، وأخذوا بأطراف الحديث ، فراحا يتذاكرون ويذكran ما مضى من أحداث . وغر معاوية إقبال سعد عليه فوقع

في علي وشرع في سبه ، فبان الغضب في وجه سعد وقام من علي السرير وقال
لعاوية بصوت فيه حدة ، وفيه غضب :

— أجلسني معك على سريرك ثم شرعت في سب علي ، والله لأن تكون في
خصلة واحدة من خصال كانت لعل أحب إلى من أن يكون لي ما طلعت عليه
الشمس . والله لأن أكون صهراً لرسول الله ﷺ ، لي من الولد ما لعل ، أحب
إلى من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس . والله لأن يكون رسول الله ﷺ
قال لي ما قاله يوم خيبر : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله ويحب الله
ورسوله ، ليس بفرار يفتح الله على يديه » أحب إلى من أن يكون لي ما طلعت
عليه الشمس ، والله لأن يكون رسول الله ﷺ قال لي ما قاله في غزوة تبوك :
« ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » أحب
إلى من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس ، وأيم الله لا دخلت لك داراً ما
بقيت .

وخرج سعد من دار الندوة مغضباً .

الفصل السابع والثلاثون

الفراق

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ،
فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا
تبديلاً ﴾ .

(قرآن كريم)

انسلخت ثمانون سنة من عمر سعد ، شهد خلالها مولد الإسلام ثم نموه ،
حتى إذا ما هم ليقف على قدميه أحاط به أعداؤه من كل جانب فاضطهدوا
المسلمين ؛ اضطهد سعد وعذب وطرده وشرده ، ولكنه احتمل صابراً ، واثقاً
من أن النصر الأخير للإسلام والمسلمين ، واشتد ساعد الإسلام على الرغم من
السيوف المتأرجحة فوق الرقاب ، فراح المسلمون يذبون عن دينهم ،
ويدافعون عن كياناتهم ، فخاض سعد في سبيله معارك هائلة يشيب من هولها
الوليد ، حتى توطدت دعائمه ، ورفعت أعلامه ، ورفرفت على العالمين ،
فقرت عين سعد ، واطمأنت نفسه ، وأخذ الإسلام في الإشراف ، وأخذ سعد
في الغروب ، فسقط أخيراً فريسة للضعف والمرضى ، فلزم داره ، وأخذت
صور الماضي الحبيب تتماثل أمام عينيه ، وراحت ذاكرته تمده بها دون ترتيب أو
نظام ، وكثيراً ما كانت تلك الصور يتداخل بعضها في بعض حتى لتمتزج
وليختلط عليه الأمر ، وكثيراً ما كان خياله يقفز به من مكة إلى المدينة إلى
العراق ؛ رأى نفسه على راحلته يخرج مع النبي للحج ، فيسقط مريضاً عقب

إتمامه مناسكه ، حتى يشرف على الهلاك ، فيدخل محمد الحبيب عليه في مرضه ، ويدعو له : « اللهم امض لأصحابي هجرتهم ، ولا تردهم على أعقابهم ، ولكن البائس سعد بن خولة يرثي له رسول الله إن مات بمكة » ، ثم يقفز به خياله إلى المدينة فيرى نفسه يحفر مع الناس الخندق ، ويحمل التراب على عاتقه فتعرضهم كدية فيخبرون النبي ﷺ خبرها فيضربها بمعوله فتفتت ، وتبرق منها شرارة ، فيقول النبي : « ضربت ضربتي الأولى فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنياب الكلاب ، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها » إنه ليعى هذا الكلام الآن أكثر من أى وقت مضى ، لقد كان القدر آنئذ يشير إليه ، إن هذا هو قاهر الفرس ومحقق نبوة نبيه ، وكر به خياله راجعا إلى أول يوم سمع فيه بالإسلام فرأى نفسه حدثا يرى النبل في مكة وأبا بكر يفد إليه ليلغنه نبأ ظهور دين جديد يدعو إلى الإخاء والمساواة وعبادة إله واحد لا شريك له ، وما إن تذكر النبل حتى قفز به خياله إلى يوم أحد ، يوم وقف مع بضعة نفر من المسلمين يذب عن النبي ، فتطايرت سهامه حتى بلغ ما رماه ألف سهم ، وكان النبي يقول : « ارم أيها الغلام الحزور ، فذاك أبى وأمى » ، وتزاحمت الصور في رأسه وبلغ منه الجهد فأغفى إغفاءة خفيفة ، وما لبث أن فتح عينيه ، فوجد رأسه في حجر ابنه مصعب فحاول أن يتسم ولكن الابتسامة ماتت على شفثيه قبل أن تولد ، فقد اشتد به الوجع ، ورأى مصعب ذبول أبيه ، وما يقاسيه من ألم ، فلم يملك نفسه ، فغامت عيناه بالدمع ، ثم أخذت الدموع تتساقط على خديه ، فلما رأى سعد ذلك ، قال بصوت ضعيف :

— ما ييكيك يا بنى ؟ والله إن الله لا يعذبني أبدا ، وإني من أهل الجنة .

وأقفل عينيه قليلا ، ثم فتحهما وقال لمن حوله :

— إيتوني بتلك الجبة الصوف التي قابلت بها المشركين يوم بدر ، فما خبأتها إلا لهذا اليوم .

فجىء بالجبة وتناولها فضمها إلى صدره ، وأسبل عينيه ، وأخذت مشاهد بدر تمر بمخيلته ، فارتسم على وجهه هدوء واطمئنان ، ومرت مدة ثم فتح عينيه وقال لمن حوله :
— كفنوني فيها .

وانبهرت أنفاسه ، وخرج نفس ما عاد غيره ، فقضى سعد نجه في قصره بالعقيق ، على مسيرة عشرة أميال من المدينة ، ولما بلغ أهل المدينة خبر موته ، انطلق الرجال إلى داره وجهزوه ، وكفنوه في جبته التي خبأها يوم بدر لهذا اليوم ، ثم حملوه على الرقاب حتى بلغوا المدينة ، فلما دخلوا به المسجد ، طلب أزواج النبی أن يدخل به إلى حجرهن وأن يترك بها ليصلين عليه ، وتمت الصلاة ، فخرج به الناس من باب الجنائز ، وانطلقوا إلى البقيع ليقيموا آخر أهل الشورى ودمعهم جار ، وحزنهم عميق .

مؤلفات الأستاذ عبد الحميد جودة السحار

الطبعة الأولى		
أحمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفاري		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
في الوظيفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبي وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة أقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
أبناء أبي بكر الصديق		أكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد)	ترجمة مع محمد محمد فرج	يناير سنة ١٩٤٧
في قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل البيت		مايو سنة ١٩٤٨
أميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧
أم العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
أذرع وسيقان	قصة	يوليو سنة ١٩٥٨
أرملة من فلسطين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٩
الحصاد	رواية	سبتمبر سنة ١٩٥٩

الطبعة الأولى		القصة من خلال تجاربي الذاتية
سنة ١٩٦١		جسر الشيطان
أكتوبر سنة ١٩٦٢	قصة	ليلة عاصفة
ديسمبر سنة ١٩٦٣	مجموعة أقاصيص	النصف الآخر
يناير سنة ١٩٦٤	قصة	السهول البيض
يونيو سنة ١٩٦٥	رواية	وعد الله وإسرائيل
يوليو سنة ١٩٦٧		عمر بن عبد العزيز
يناير سنة ١٩٧٢	قصة	الحفيد
أكتوبر سنة ١٩٧٢	قصة	هذه حياتي
فبراير سنة ١٩٧٤	(قصة حياة المؤلف)	ذكريات سينائية
أبريل سنة ١٩٧٤		كشك الموسيقى
سنة ١٩٧٥		خفقات قلب
سنة ١٩٧٥		صور وذكريات
سنة ١٩٧٥		الأسراء والمعراج
سنة ١٩٧٧		عدو البشر
سنة ١٩٧٨		أبطال الجزيرة الخضراء
سنة ١٩٧٨		التمر
سنة ١٩٧٩		الله أكبر
سنة ١٩٧٩		ثلاثة رجال في حياتها
سنة ١٩٨٠		مسجد الرسول
سنة ١٩٨٠		فات الميعاد
سنة ١٩٨٢		آدم إلى الأبد
سنة ١٩٨٤		العرب في أوربا

مَحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللهِ

وَالَّذِي مَعَهُ

فِي عَشْرِينَ جُزْءًا

تأليف

عبد الحميد جوْزَة النخار

رقم الايداع ٤٠٣٢

الترقيم الدولي ٥ - ٢٧٤ - ٣١٦ - ١٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البجالة



الشمس ٢٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه